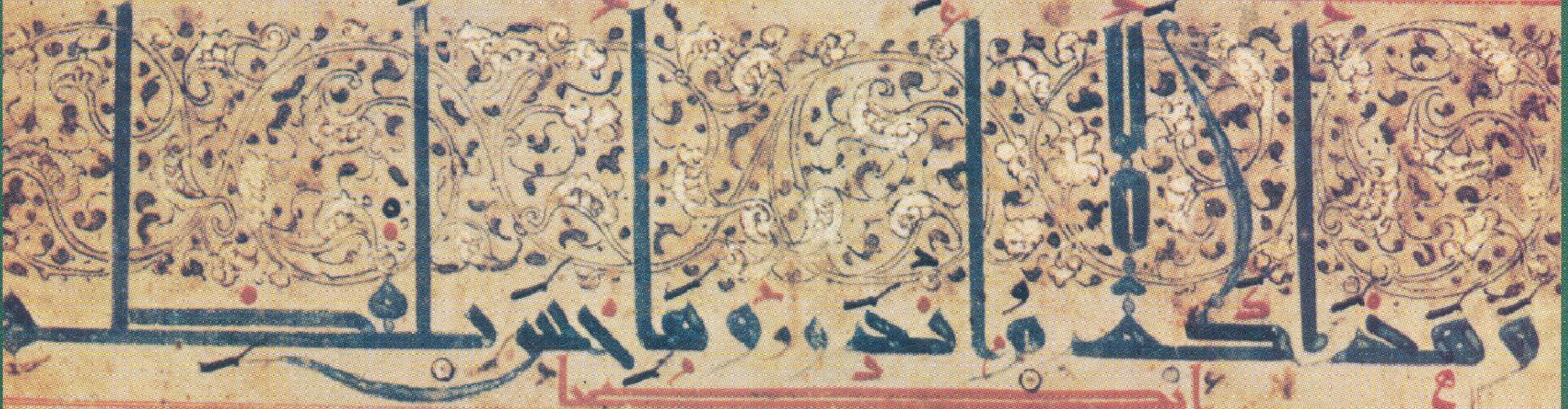
حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

المجلد الأول
٢٠٠٠ - ٢٠٠١

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوربا العصر الوسيط

يصدرها سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة عين شمس







حولية التاريخ الإسلامى والوسيط

دورية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوروبا العصور الوسطى

المجلد الأول

الجزء الأول: القسم العربى

٢٠٠٠-٢٠٠١

يصدرها: سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط، قسم التاريخ، كلية الآداب،
جامعة عين شمس، القاهرة، مصر.ص.ب.١١٥٦٦

الناشر
مصر العربية للنشر والتوزيع
١٣أ ش إسلام، حمامات القبة، القاهرة

حولية التاريخ الإسلامي والوسيط

دورية علمية سنوية محكمة تعنى بالدراسات التاريخية الإسلامية والبيزنطية وأوربا العصور الوسطى
يصدرها
سمنار التاريخ الإسلامي والوسيط ، قسم التاريخ ، كلية الآداب ، جامعة عين شمس
القاهرة ، مصر. ص.ب.١١٥٦٦ ، فاكس: (٢٠٢٠٠) ٢٨٥٤٠٧٩، بريد الكتروني:
amrtar_eg@yahoo.co.uk

- ترسل البحوث على العنوان السابق ذكره شريطة ألا تكون قد سبق نشرها في مكان آخر من قبل، وأن تكون مكتوبة على الحاسب الآلي IBM، Word 7.0، حسب المواصفات التالية:

١- البحوث المكتوبة باللغة العربية:

العنوان الرئيسي فونت ١٨ أسود، العنوان الفرعي فونت ١٦ أسود
الخط Traditional Arabic، فونت ١٤
الهوامش فونت ١٠
المسافة بين السطور متعدد ٫٩ للنص ، تام للهوامش
مواصفات الصفحة ١٢,٥ X ٢٠,٥؛ هامش علوي ٤,٦، سفلي ٤,٦، يسار ٤,٢٥، يمين ٤,٢٥ سم

٢- البحوث المكتوبة بلغة أجنبية:

العنوان الرئيسي فونت ١٤ أسود، العنوان الفرعي فونت ١٢ أسود
الخط New Times Roman، فونت ١٢

المسافة بين السطور متعدد ٩، للنص، تام للهوامش

مواصـــفات الصفحة ١٢,٥ X ٢٠,٥؛ هامش علوي ٤,٦، سفلي ٤,٦، يسار ٤,٢٥، يمين ٤,٢٥ سم

- يرسل البحث من نسختين بالإضافة إلى القرص المرن الخاص به مقاس ٣,٥.
- تقبل البحوث باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية.
- آخر موعد لتلقى البحوث شهر أكتوبر من كل عام.
-يكتب اسم الباحث ووظيفته أسفل العنوان الرئيسي للبحث مباشرة.

المحتويات

الجزء الأول: القسم العربي

أولاً: البحوث العربية

ثانياً: عرض الكتب العربية

ثانياً: القسم الأجنبي

أولاً: البحوث الأجنبية

ثانياً: عرض الكتب الأجنبية

المشاركون فى العدد

أحمد الطاهرى.................. أستاذ التاريخ الإسلامى-كلية الآداب والعلوم الإنسانية-جامعة المحمدية-المغرب

بوبة مجانى...................أستاذ التاريخ الإسلامى-كلية الآداب-جامعة منتورى-قسنطينة-الجزائر

جوناثان شبرد..................أستاذ التاريخ الروسى الوسيط/البيزنطى-كلية التاريخ-جامعة كامبردج-إنجلترا

حسين عطية................أستاذ تاريخ العصور الوسطى المساعد-كلية الآداب-جامعة طنطا-مصر

رأفت عبد الحميد...............أستاذ تاريخ العصور الوسطى-كلية الآداب-جامعة عين شمس-مصر

سند أحمد عبد الفتاح.............. معيد التاريخ الإسلامى-كلية الآداب-جامعة عين شمس-مصر

شيرين صادق................... مدرس مساعد الحضارة الإسلامية-كلية الآداب -جامعة عين شمس-مصر

طارق منصور محمد...............مدرس التاريخ البيزنطى-كلية الآداب-جامعة عين شمس-مصر

فاليرى جونزاليه...................مدرس تاريخ الفن الإسلامى-مارسيليا-فرنسا

فايز نجيب اسكندر............. أستاذ تاريخ العصور الوسطى-كلية الآداب-جامعة بنها-مصر

محمود اسماعيل................. أستاذ التاريخ الإسلامى-كلية الآداب-جامعة عين شمس- مصر

نريمان عبد الكريم................ مدرس التاريخ الإسلامى-كلية الآداب-جامعة المنوفية -مصر

تقديم

ليس أسعد إلى قلب باحث مدقق من أن يرى نتاج فكره وثمار غرسه، قطوفاً دانية بين أيدي الباحثين والسائرين في دروب المعرفة الإنسانية، وليس أعز إلى نفس مؤلف من أن يقلب صفحات خطها بيمينه بعد عمل شاق وجهد كبير.

والكتاب الذي بين أيدينا الآن نقلب صفحاته واحد من هذه الثمار التي طال انتظار نضجها، دون ملل أو كلل فى متابعة رعايتها وسقياها، حتى تخرج على هذا النحو الذي نراه الآن، ونطمع أن يلقى بين الدارسين والمفكرين قبولاً حسناً، ونصحاً هادفاً، بغية الوصول والارتقاء به إلى مصاف الدوربات العالمية.

فهذا هو العدد الأول من "حولية التاريخ الإسلامى والوسيط" التى يصدرها "سمنار" كلية الآداب – جامعة عين شمس فى هذا الحقل من البحث التاريخي، ورغم أن قصة الـ "سمنار" تعود إلى عام ١٩٨٢، ورغم صدور أعداد ثلاثة ضمت البحوث التى ألقيت من خلاله، ونشرت على التوالى فى أعوام ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥، إلا أن هذا العمل توقف لتفرق القائمين على أمره اغتراباً خارج الديار، وظل الحال على هذا النحو حتى قدر للطيور المهاجرة أن تعود ثانية إلى أعشاشها، وأن يظهر من أفراخها من ينضم إلى مسيرة البحث والبعث من جديد لفكرة هذا اللقاء العلمي المتجدد، وسمنار التاريخ الإسلامى والوسيط".

ولما كانت أمانة الـ "سمنار" تدرك يقينا أن الانغلاق والعزلة العلمية هي آفة أي مجتمع تودي به إلى الشيخوخة المبكرة والوهن العقلي، فقد حرصت على أن تفتح قنوات علمية عديدة مع الباحثين والمؤرخين من ذوى الاختصاص فى عدد من البلدان العربية والأجنبية، وقد استجاب لهذه الدعوة أساتذة فضلاء لهم وزنهم العلمي فى التاريخ الإسلامي أو تاريخ العصور الوسطى، وبعثوا ببحوثهم أو مقالاتهم لتضاف إلى الرصيد العلمي لهذه الحولية، بينما اعتذر نفر ثان عن عدم الاشتراك هذه المرة، على وعد صادق بأن يسهموا ببحوثهم الجديدة فى الأعداد القادمة للحولية بمشيئة الله.

وكان طبيعيا وأمانة الـ "سمنار" تسعى بالحولية إلى مرتقى علمياً سامياً، أن تعرض البحوث التى تنشر على الأساتذة الفضلاء العاملين فى حقل التاريخ الإسلامي والعصور الوسطى والتاريخ البيزنطى ، وذلك لتقييمها وتقديم الملاحظات السديدة من خلال النقد العلمي الرصين، حتى يتحقق الهدف المنشود من إصدار هذه الإسهامات العلمية فى ميدان البحوث التاريخية.

ويضم العدد أربعة بحوث فى التاريخ الإسلامي ، تدور كلها حول موضوعات تتناول جوانب معينة من الحضارة الإسلامية ، فبينما عالج الدكتور/ محمود إسماعيل "سياسة الدولة البويهية إزاء وضعية الأرض الزراعية ، خلال قرن ونيف من الزمان (٣٣٤ - ٤٤٨هـ) سيطر فيه البويهيون على مقاليد الأمور فى الدولة العباسية ، وأمسى خلفاء بنى العباس إلى جوار وزرائهم هؤلاء نسياً منسياً ، عرض الدكتور/ أحمد الطاهرى للنظام العقارى فى الغرب الإسلامى فى بواكير نشأته ، وتوقف فى دراسته هذه بصورة رئيسية عند وضعية الأرض أيضاً فى بلاد نكور ، والبحثان على هذا النحو يعرضان لـ "وضعية الأرض الزراعية" فى المشرق الإسلامى وغربه فى فترة زمنية معينة.

والواضح أن هذا الجزء الغربى من العالم الإسلامى قد حظى بنصيب كبير فى هذا العدد، فإلى جانب بحث الدكتور/ أحمد الطاهرى ، نجد دراستين أخريتين عن هذه المنطقة ، فقد قدمت الدكتورة/ نريمان عبد الكريم موضوعاً عن "دور مصر فى أفريقيا من الفتح العربى حتى نهاية عصر الولاة" (٢٧ - ١٨٤هـ / ٦٤٧ - ٨٠٠م) ، وهى الفترة التى قامت فيها مصر بدور فاعل فى الفتوح الإسلامية فى المغرب ، باعتبارها القاعدة المتقدمة للدولة الإسلامية باتجاه أفريقية ، ولم يكن دور مصر قاصراً على هذا الجانب العسكرى فقط ، بل امتد ليشمل التأثيرات الحضارية أيضا . هذا بينما تعرضت الدراسة الأخرى التى قدمتها الدكتورة/ بوبه مجانى للاتجاهات الفكرية للمدرسة الإسماعيلية فى مرحلتها المغربية (٢٦٠ - ٣٦٢هـ / ٩٠٩ - ٩٧٣م) ، وهى الفترة التى شهدت وجود الخلافة الفاطمية فى المغرب الإسلامى قبل قدوم المعز لدين الله الفاطمى ، الخليفة الرابع إلى مصر ، ليتخذ منها قاعدة لدولته ولتصبح القاهرة حاضرة هذه الخلافة من بعد . ولاشك أن الدعوة الإسماعيلية كان لها دور لا يمكن إنكاره فى مسيرة تاريخ المغرب الإسلامى.

اما الحروب الصليبية فقد حظيت بدورها بثلاثة بحوث تناولت صفحات مطوية من هذه الحروب ، فقد عالج الدكتور/ حسين عطية أحوال مملكة بيت المقدس الصليبية خلال ربع القرن الذى تلا قيامها مباشرة ، وخاصة على عهد ملكها بلدوين الأول وبدايات عهد بلدوين الثانى ، وهى الفترة التى شهدت وضع الأسس والقواعد الرئيسية لتأسيس هذه المملكة ، وألقى الضوء واضحا على مجلس نابلس الذى عقد فى الثالث والعشرين من يناير سنة ١١٢٠م ، وهو جوهر هذه الدراسة ويشكل أهمية خاصة فى تاريخ المملكة . فإذا جاز لنا أن نقفز قفزة علمية واسعة من بداية الحروب الصليبية إلى نهايتها لوجدنا الدراسة التى يقدمها لنا الدكتور/ فايز اسكندر عن "الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة الروم ١١

رجب ٦٩١هـ / ١٦ يونية ١٢٩٢م" ، ومن المعروف أن سلاطين مصر من أسرة قلاوون جرت على أيديهم كتابة الصفحات الأخيرة من تاريخ الحروب الصليبية ، أو بمعنى أدق الوجود الصليبي فى بلاد الشام ، فقد استرد المنصور قلاوون مؤسس الأسرة إمارة طرابلس من أيدى الصليبيين عام ١٢٨٩ ، ولم تمض على ذلك ثلاثة سنوات حتى كان ابنه الأشرف خليل يسترد مدينة عكا (١٢٩١) المعقل العسكرى الكبير للصليبيين ، ثم يوالى القضاء على الجيوب الصليبية الباقية ، وهذا ما يقدمة الدكتور/ فايز اسكندر فى دراسته عن استرداد الأشرف لقلعة الروم ١٢٩٢.

أما البحث الثالث الذى يتعلق بالحروب الصليبية فهو الذى قدمه الدكتور/ رأفت عبد الحميد تحت عنوان "الأمير فخر الدين بن الشيخ فى محكمة التاريخ" وفخر الدين هو أتابك العسكر أو قائد الجيش المصرى على عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقد تعرض الرجل للظلم مرتين ، أولهما عندما شن عليه المؤرخ ابن واصل والتابعون حملة ضارية متهمين إياه بالفرار من أمام القوات الصليبية التى يقودها ملك فرنسا لويس التاسع فيما عرف بالحملة الصليبية السابقة وذلك عند مدينة دمياط ، والمرة الثانية عندما لم ينتبه أحد من المؤرخين على امتداد هذه القرون منذ الثالث عشر حتى الآن لدراسة هذه القضية والنظر فى صحة هذا الاتهام من عدمه . والدراسة التى قدمها الدكتور/ رأفت عبد الحميد تناولت بالتحليل والنقد التاريخى كل هذه القضية من جميع جوانبها من خلال دراسة النصوص التاريخية والمصادر المعاصرة بصورة نقدية ، وتوصلت إلى آراء لعلها غير مسبوقة فى هذا المجال .

وقد شارك الدكتور "جوناثان شبرد" بدراسة شيقة تحت عنوان Silks, skills opportunities in Byzntium: some reflexions ولعنا ندرك جيدا أن الحرير بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية كان يمثل أهمية بالغة من الناحيتين السياسية والاجتماعية ، وقد حرصت الإدارة البيزنطية على أن يظل طريق الحرير البرى عبر وسط آسيا آمنا ، بل وسعت إلى تأمين طريق جديد بحرى عن طريق بحر العرب والبحر الأحمر أو القلزم ، وسياسات الإمبراطور جوستنيان وغيره واضحة فى هذه الناحية ، والدكتور "شبرد" يلقى الضوء فى دراسة علمية رصينة عن صناعة الحرير فى بيزنطة وما لعبته الثياب الحريرية من دور فى التعامل مع الشعوب المجاورة وفى الحملات العسكرية. كذلك تحدث عن البلاد الإسلامية وتزويدها لبيزنطة بالحرير، مثل فرغانة ؛ وعن التجار البيزنطيين الذين جابوا بلاد الشام ، لاسيما حلب ، طلباً للحرير .

وإلى جانب هذه البحوث فقد حرصت أمانة الـ "سمنار" على أن تتضمن الحولية باباً كاملاً لعرض عدد من البحوث أو المؤلفات التى صدرت مؤخراً فى ميدان التاريخ الإسلامى والعصور الوسطى ، أو بعض رسائل الماجستير والدكتوراه ومنها ما لم يتم نشره بعد ، وهى محاولة للوقوف على أحدث الدراسات التاريخية فى هذا الحقل ليفيد منها الباحثون والدارسون ، وقام بهذا الجهد مجموعة من شباب الباحثين فى كلية الآداب - جامعة عين شمس من قسمى التاريخ والإرشاد السياحى ، وشاركهم فى ذلك الدكتور/ فاليرى جونزاليه مدرس تاريخ الفن الإسلامى بمرسيليا .

ولايسعنى فى نهاية هذه الكلمة إلا أن أنوه بالجهد الكبير الذى قام به تلميذى وصديقى الدكتور/ طارق منصور فى متابعة أعمال الـ "سمنار" ودأبه وصدق عمله وتفانيه فى جمع هذه المادة العلمية التى ضمها هذا العدد من الحولية ، ومباشرة أمور الطباعة بدقة بالغة ، فله منى وأمانة الـ "سمنار" كل الشكر والتقدير ودوام التوفيق .

وأمانة الـ "سمنار" وهيئة تحرير الحولية يسعدها تماماً أن تتلقى كل الملاحظات والمقترحات التى تتناول هذه الحولية بالنقد العلمى الهادف وصولا بها إلى مكانة علمية مرموقة نرتجيها وإليها نسعى .

دكتور

رأفت عبد الحميد محمد

الجزء الأول : القسم العربي

أولاً:البحوث العربية

من بواكير النظام العقاري بالغرب الإسلامي
وضعية الأرض ببلاد نكور

د. / أحمد الطاهرى
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية –المغرب

لقد بات مسلما لدى المهتمين بالتاريخ الوسيط أننا نكاد نجهل كل شيء عن المراحل الأولى لنشأة الغرب الإسلامي، وعن الحيثيات التي رافقت –على مدى ما ينيف عن نصف قرن من الزمن– تحول المغرب من الانتماء في الفضاء الحضاري القديم المسيحي–اللاتيني للاندماج كجناح متكامل فى دار الإسلام. وما زالت العبارة الشهيرة التى ترددت فى أوساط الاستشراق ناعتة فترة التأسيس "بالقرون المظلمة" إلى اليوم سيدة الموقف. ولا غرو، فحتى القدامى من مصنفى أمهات المصادر المعتمدة فى التأريخ لهذه العصور يقرون بأن كبريات أحداث الفتح "لم تنضبط بتاريخ محقق"[1] فبالأحرى ما يتعلق بالجزئيات والتفاصيل. بلغت الشكوى من ندرة المعلومات وفقر المادة التاريخية بالبعض[2] إلى حد التأكيد على استحالة تناول تاريخ المغرب الأقصى طوال فترة الفتوحات الإسلامية إلى نهايات القرن الثانى الهجرى فى بحث مستقل.

إلا أن فى استقراء مضامين المصادر المتاحة، ما يقدم بعض عناصر المراجعة ويشجع على الانتقال بالبحث التاريخى من مستوى معاينة الحدث السياسى لمعالجة جوانب من التاريخ الحضارى. وهو ما سنتدرج على تناوله بالدرس فى حدود ما تسمح به الشذرات المتناثرة من المادة التاريخية المعتمدة .

تشكل وضعية الأرض فى نظر عدد من الباحثين إحدى ألغز معضلات التاريخ الإسلامي[3]. وبخصوص المرحلة التأسيسية من تاريخ المغرب الأقصى المرتبطة بعصر

---

[1] – ابن عذارى ، البيان المغرب فى تاريخ الاندلس والمغرب ، تحقيق ليفى بروفنسال / كولان ، بيروت ١٩٨٠ ، جـ١ ، ص ٣٩ .

[2] – انظر : ليفى بروفنسال ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب ، مجلة المعهد المصرى للدراسات الاسلامية ، المجلد الثانى ، السفر ١ ، ٢ ، مدريد ١٩٥٤ ؛ Jean BRIGNON et AUTRES, *Histoire du Maroc*, Casablanca 1967, p. 45 .

[3] – محمود اسماعيل ، سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، الدار البيضاء ، ١٩٨٠ ، جـ٢ ، ص٢٥ ؛ الحبيب الجنحانى ، دراسات مغربية فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى للمغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٠ ص ٩ ؛ Pierre GUICHRD," Les etats musulmans du Maghreb in Maghreb *Medieval* : l apogee de la civilisation Islamique dans l Occident Arabe, Aix en provence, 1991, p. 88 .

الفتوحات، يحتفظ الونشريسي[٤] بآراء ثلة من أقطاب المالكية ممن تصدر الفتوى أو تقلد الأحكام وتقلب فى جلائل الخطط بالمغرب والأندلس منذ البدايات الأولى خلال القرن الثانى وطوال القرنين الثالث والرابع إلى أواسط القرن الخامس الهجرى[٥].

والجدير بالذكر أنهم لم يتوقفوا عن الاستفتاء جيلا بعد جيل "عن أرض المغرب"[٦] والتنقيب عما خفى من أخبارها وإمعان النظر فى مظاهر العصر، مع الإصرار على سؤال أهل العلم والفقه والورع للكشف عن حقائقها. ولعل فى قول قاضى إفريقية وصاحب المدونة الفقيه المالكى الشهير سحنون: أنى "لم اقف منها على حقيقة"[٧]، وإقرار على بن زياد الإسكندرى - على إجهاده بالبحث عن أصول الروايات بمصر - إنه "لم يصح عندى فيها شيء"[٨]، ما يؤكد درجات ما تعرض له الموضوع من طمس وإتلاف.

من الطبيعي أن يسفر ذلك عن اختلاف الآراء وتضارب الروايات حول الوضعية القانونية لأرض المغرب "فقيل عنوية وقيل صلحية وقيل التفصيل بين السهل والجبل وقيل بالوقف"[٩]. وبينما ينبه أحدهم على "أن البلاد المغربية لم تجر فى الافتتاح على قانون واحد، بل منها ما افتتح عنوة ومنها ما افتتح صلحا"[١٠]، يكشف غيره فى نص هام عن إجماع أهل العلم على أن ثمة مناطق من المغرب الأقصى "أسلم عليها أربابها وليس فيها صلح ولا عنوة"[١١]. وهو ما ينطبق تماما على وضعية بلاد نكور التى لم تخضع حسبما يتضح من خلال جملة من القرائن لأية فتوحات عسكرية[١٢].

---

[٤] - المعيار المغرب والجامع المعرب عن فتاوى أهل افريقية والاندلس والمغرب، منشورات وزارة الاوقاف والشوون الاسلامية، الرباط، جـ٦، صص ٣٤ - ١٣٢.

[٥] - فمن تلامذة إمام المدينة مالك بن انس والرواة عنه، نذكر: على بن زياد الإسكندرى وأبا محمد عبد الله بن عبد الحكم بن أعين بن ليث المصرى الذى انتهت إليه الرياسة بديار مصر بعد اشهب. ومن إفريقية نخص بالذكر قاضيها ومفتى ديارها صاحب المدونة الشهير سحنون بن سعيد المتوفى سنة ٢٤٠ هـ وكذا ابن أبى زيد القيروانى الملقب بمالك الصغير المتوفى سنة ٣٨٦ هـ. ومن الأندلس، نستقرى آراء عبد الملك بن حبيب المتوفى سنة ٢٣٨ هـ هجرية وكذا إشارات قاضى الجماعة بقرطبة ابن وافد اللخمى المتوفى سنة ٤٠٤هـ هجرية وعبد الملك بن اصبغ القرشي المتوفى سنة ٤٣٦هـ. لمزيد من التفاصيل عن متصدرى المذهب المالكى أثناء تألقه بالأندلس راجع اللائحة الهامة التى ذيل بها ابن سهل كتابه فى النوازل الفقهية المشهور: الأحكام الكبرى، مخطوط المكتبة العامة، الرباط، رقم ٨٣٨ق، ص ٤٢٢ - ٤٢٦.

[٦] - الونشريسى، المصدر السابق جـ٦، ص ١٣٣.

[٧] - نفس المصدر والصفحة. انظر كذلك: الداودى: كتاب الأموال، تحقيق رضا محمد سالم شحادة، الرباط، ١٩٨٨، ص

[٨] - الونشريسى، نفس المصدر والصفحة.

[٩] - نفس المصدر والصفحة.

[١٠] - نفسه، جـ٦، ١٣٤. للمقارنة مع وضعية الأرض بالأندلس إبان عصر الفتوحات انظر: ابن حزم، التلخيص لوجوه التخليص، ضمن الرسائل، تحقيق/ إحسان عباس، بيروت، ١٩٨١، جـ٣، ص ١٧٥.

[١١] - انظر: الونشريسى، نفس المصدر، جـ٦، ص ١٣٣.

[١٢] - وهو ما تناولناه بتفصيل ضمن دراسة ستصدر قريبا فى حوالى ٢٥٠ صفحة بعنوان "إمارة بنى صالح فى بلاد نكور، الأصول التاريخية ومواكير النمو الحضارى والعمرانى بالغرب الإسلامى. وتشغل بلاد نكور، على طول الشاطئ المتوسطي للمغرب الاقصى، المنطقة الممتدة من أحواز نهر ملوية إلى سفوح جبال غمارة. وتتعمق إلى الداخل شاملة الحوض الأعلى لنهر ورغة ومنطقة تازة وتسول فى

وبصرف النظر عما أخذ غصباً و "وقعت فيه غلبة بعد غلبة"[١٣]، فمن المعلوم أن أرض العنوة منها ما عومل معاملة الغنيمة فخمست وقسمت، ومنها ما اعتبر فيئا يخمس ولا يقسم، ومنها ما يوقف على المسلمين عامة[١٤]. بينما ترتبط أراضي الصلح بسجلات وعقود والتزامات وشروط مضبوطة الحيثيات موثقة البنود بين المتعاقدين: الجند الفاتح وأهل البلد[١٥].

وبخلاف وضعية الأرض ببقية مناطق الغرب الإسلامي أبان عصر الفتوحات التي تأرجحت بين مقتضيات الصلح والعنوة، يذكر ابن خلدون[١٦] في نص فريد أن صالح بن منصور قد "استخلص نكور لنفسه ، أقطعه إياها الوليد بن عبد الملك في عام إحدى وتسعين من الهجرة".

وبرغم شيوع الاستخلاص كشكل من أشكال التعامل العقارى على مدار قرون من تاريخ الغرب الإسلامي، لم يحظ هذا المفهوم – في حدود علمنا – سواء على مستوى حدود اللفظ أو دلالاته التاريخية بأدنى اهتمام من طرف الدارسين. ويمكن من خلال قراءة أولية في عدد من الحوليات التاريخية وفحص متون جملة من المصنفات الفقهية الوقوف على بعض الحقائق المتعلقة بالضياع المستخلصة وعلى طبيعة الوضعية القانونية المترتبة عن هذه العملية.

فمن الأراضي المستخلصة من طرف الخلفاء والأمراء ما كان بمثابة ملك عام توضع عليه جبايات لصالح بيت مال المسلمين[١٧]، بينما اندرجت غيرها من المستخلصات ضمن

اتجاه المجرى الأوسط لنهر ملوية حيث مضارب قبائل مطماطة امكسور المكناسية . ولقد شهدت نشوء أول إمارة غير مفارقة ببلاد المغرب خلال التسعينات من القرن الأول الهجرى عرفت بإمارة بنى صالح من تأسيس مصور بن صالح النفزى ، الذى أسلمت على يده مجموع قبائل المنطقة .

[١٣] – ابن حزم ، المصدر السابق ، ص ١٧٥ .

[١٤] – المقرى ، نفح الطيب من غصن الاندلس الرطيب ، تحقيق/ إحسان عباس ، بيروت ، ١٩٦٨ ، جـ١ ، ص ٦٠ – ٢٥٩ ، لمزيد من التفاصيل عن أحكام أرض العنوة راجع : ابن سلام ، كتاب الأموال ، تحقيق/ عبد الأمير على بن مهنا ، بيروت ١٩٨٨ ، ص ٦٤ ؛ ابن آدم القرشى ، كتاب الخراج ، تحقيق جويبول ، ليدن ، ١٨٩٥ ، ٥ ؛ ابن المناصف ، كتاب الانجاد فى أحكام الجهاد ، مخطوط المكتبة العامة ، الرباط ، رقم ٧٤٨ق ، ص ٤٣ – ٢٤١ .

[١٥] – وللمقارنة ، نتوفر بهذا الخصوص على النص الكامل لكتاب الصلح حول منطقة تدمير بشرق الاندلس الموقع بين ملكها تدمير بين غندرش والأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير . انظر : الضبى ، بغية الملتمس ، القاهرة ١٩٦٧ ، ٢٧٤ . لمزيد من التفاصيل عن مضامين عقود الصلح والاتفاق بين الفاتحين والنصارى على مشاطرة كنائسهم ، انظر : المقرى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص٥٦٠.

[١٦] – كتاب العبر ، تحقيق خليل شحادة ، بيروت ، ١٩٨١ ، جـ٦ ، ص ٢٨٣ .

[١٧] – مثل " مستخلص " قرطبة انظر : ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ٢ ص ٢٣٢ المعروف خلال عصر الخلافة باسم : " مستغل جوف المدينة " انظر : ابن بسام ، الذخيرة فى محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق/ إحسان عباس ، تونس / ليبيا ١٩٨١ ، ق١ ، م١ ، ٥٢ ونذكر ايضا على سبيل المقارنة الملك الذى ألحقه والى ابن عباد خلال عصر الطوائف بمدينة باغة " واستخلصه لبيت مال المسلمين " انظر : ابن رشد ، الفتاوى ، تحقيق المختار بن الطاهر التليلى ، بيروت ١٩٨٧ ، جـ١ ، ص ٣٠٦ . ولا تعوز الدلائل عن غير ذلك من المستخلصات الملحقة بعدد من الحواضر الأندلسية ، نخص منها بالذكر مستخلص غرناطة الشهير ، انظر : ابن الخطيب ، الإحاطة فى أخبار غرناطة ، تحقيق/ محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٧٣ ، جـ١ ص ٤٢٩ .

الممتلكات الخاصة للملوك والمتنفذين وأهل الجاه والسلطان. ولا تعوز القرائن الكاشفة عمن دأب على اتخاذ قرى بأكملها "ضياعا مستخلصة"[18]. بل ومن أرباب الخطط والنفوذ من طاوعته نفسه فتجرأ على ملك "الأحباس واستخلصه لنفسه"[19].

هكذا، فبالنظر إلى المعانى المعجمية للمصطلح[20] ولمختلف دلالاته التاريخية، يتجلى من خلال السياق العام لنشأة إمارة بنى صالح أن المقصود باستخلاص صالح بن منصور نكور لنفسه: تمكنه من حقوق التصرف فيها فصارت بذلك خالصة له خاصة، لا يحق لغيره من الولاة والأمراء استغلالها ولا وضع الجبايات وأصناف الواجبات على أهلها ولا التحكم فى رقبة ضياعها.

نتيجة لهذه الوضعية القانونية المتميزة، سلمت نكور من تبعات الاندماج فى النظام العقارى والجبائى المعتمد من طرف الخلافة الأموية بالأمصار المفتوحة عبر سلسلة التراتب الهرمى التى يتحكم فيها ولاة إفريقية، وغدت على عكس مجموع بلاد المغرب فى علاقة مباشرة بواسطة عقد الإقطاع السالف الذكر مع مركز الخلافة بدمشق. ومن المعلوم أن التشريعات المتعارفة خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ الإسلام، قبل التحولات الطارئة خلال القرون اللاحقة "لا تجوز إقطاع الأمراء والقضاة والقواد وإنما ذلك للخليفة خاصة"[21].

والراجح أن الخلفاء الأمويين قد التزموا بمقتضيات عقد الإقطاع الممنوح لصاحب نكور إلى حدود العقد الثانى من القرن الثانى الهجرى على الأقل. يتجلى ذلك من خلال موقف الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك الذى لم يغفل – عند إصداره صك تعيين واليه

---

[18] – ابن بسام، المصدر السابق، ق٣، م١، ص ١٩ .

[19] – ابن الحاج، كتاب النوازل، مخطوط المكتبة العامة الرباط، رقم ٥٥ جـ ، ص ١٢٢ .

[20] – راجع ابن منظور، لسان العرب، تحقيق عبد الله على الكبير وآخرون، القاهرة، حرف الصاد، جـ٧، ص ٢٦ – ٢٩ .

[21] – الجزيرى، المقصد المحمود فى تلخيص العقود، مخطوط المكتبة العامة، الرباط، رقم ٥٩٢ق، ورقة ٧٩ب . لمزيد من التفاصيل عن هذا الموضوع راجع : ابن سلام، المصدر السابق، ٢٧٦ . وفى دراسة سابقة لا مجال هنا لتفصيل نتائجها، تناولنا التحول الملحوظ الذى مس مفهوم الإقطاع وممارسته فى ظل الرخص الواسعة التى أقرها ثلة من الفقهاء للجند وأهل الخطط والمتامرين من كل نوع بالغرب الإسلامي . أسفر ذلك عن ابتعاد الإقطاع فى أكثر من مظهر، ان لم يكن فى الجوهر، عما كان عليه خلال عصر النبوة وخلافة الراشدين . عن بعض هذه الرخص انظر : ابن المناصف، كتاب الإنجاد فى أحكام الجهاد، مخطوط المكتبة العامة، الرباط، رقم ٧٤٨ق، ص ٤٣ – ٢٤١ . ومن أبرز الأمثلة على التزام العمل بالشرط المثبت أعلاه خلال هذه الفترة المبكرة من تاريخ الغرب الإسلامي، اضطرار ابناء الملك القوطى غيطشة الذين أمضى لهم طارق بن زياد العهد، إلى اللحاق بموسى بن نصير المقيم بافريقية الذى وجههم بدوره إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك بدمشق باعتباره صاحب الحق الشرعى الوحيد فى امضاء السجلات وعقد الإقطاعات . وبالفعل، فبعدما " وصلوا إليه أنفذ لهم عهد طارق بن زياد وعقد لكل واحد منهم بذلك سجلا " ابن القوطية، تاريخ افتتاح الاندلس، تحقيق/ إبراهيم الابيارى، بيروت، ١٩٨٢، ص ٣٠ .

على إفريقية والمغرب النص على استثناء بلاد نكور من سلطة الوالى الجديد، مذكرا إياه بعدم التدخل فى شؤون نكور، مراعاة لخصوصيتها القانونية.

حقيقة أننا لا نتوفر على أدنى ما يفصح عن محتويات ومضامين صك الإقطاع الذى منحه الخليفة الأموى لصاحب نكور. مع ذلك فالراجح أن ثمة واجبات مالية من المفروض على هذا الأخير استخلاصها من الرعية وتوجيهها رأسا إلى بلاد الخليفة بدمشق . مصداق ذلك، ما ورد لدى صاحب أخبار مجموعة[٢٢] فى سياق حديثه عن بلاد المغرب فى خلافة عمر بن عبد العزيز وكذا عمن قبله من " الخلفاء كانوا إذا جاءهم جبايات الأمصار والآفاق يأتيهم من كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجناءها فلا يدخل بيت المال متى الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذى لا اله إلا هو ما فيه دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه".

إلا أن الوضع سرعان ما تغير ابتداء من خلافة يزيد بن عبد الملك، وبعدئذ طوال العقود اللاحقة، إذ اندرج خلفاء بنى أمية على الرفع من المطالبات والتكاليف الموضوعة على مجموع بلاد المغرب "أكثر مما كان"[٢٣]، بما فى ذلك بلاد نكور التى "ثقلت ... التكاليف"[٢٤] على أهلها ولم يعد بوسعهم الالتزام بأدائها. لم يتوقف الأمر عند هذا الحد، بل سرعان ما اندرجت التوجيهات الأموية فى اتجاه مراجعة الأسس المنظمة للوضعية العقارية، تمهيدا لتخميس الأرض بعموم بلاد المغرب وإخضاعها لمقتضيات الفيء[٢٥].

ومن جهة أخرى، فالغالب على الظن أن صالح بن منصور قد آثر الالتزام بالشرائع المنظمة لوضعية الأرض حسبما كان متعارفا عليه لدى فقهاء العصر. ومن المعلوم أن البلد إذا استسلم عليه مالكه "من غير قتال وفى يده الأرض فهو عشر"[٢٦]. ولا يستبعد أن يكون صاحب نكور قد عمد إلى تقوية مداخيل بيت المال الذى يعود بالنفع على العامة وذلك بتوسيع القطاع الخراجى، علما بأن "من أسلم على شيء فهو له ويؤخذ منه خراج

---

[٢٢] - مجهول ، أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، مخطوط المكتبة الوطنية ، مدريد ، رقم ٤٩٩٥ ، ص ١١ - ١٢ .
[٢٣] - ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٢ .
[٢٤] - ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ٢٨٣ .
[٢٥] - ابن عذارى ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٥١ - ٥٢ . لمزيد من التفاصيل عن مضامين الفئ راجع :ابو الفرج الحنبلى ، كتاب الاستخراج لأحكام الخراج ، تحقيق / عبد الله الصديق ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ص ١٦ - ١٧ .
[٢٦] - ابو الفرج الحنبلى ، نفسه ، ص ١٥ .

الأرض"[٢٧]. لذلك اشتهر صاحب نكور لدى معاصريه بمن فيهم خلفاء بنى أمية ذاتهم بـــــ "عدله"[٢٨] فى الرعية.

وترجمة لحقوق التصرف الشرعية التى أصبحت فى يد صالح بن منصور بمقتضى عقـد الإقطاع على الأراضى الواقعة فى دائرة نفوذه، لم يتردد عن "إنزال نفر من الـــبربر موضعـا يحاذى مدينة نكور فى الضفة الثانية من النهر وكانوا يقيمون هناك سوقا"[٢٩]. وعلى عكس ما طبق فى عدد من أبرز الكور الأندلسية – خلال نفس الفترة تقريبا أو لربما بعد بضع سنوات من هذا التاريخ إذ اقدم والى قرطبة على إنزال الناس بعضهم على بعض وجعل أموال أهــل الذمة من العجم طعمة للجند الشامى"[٣٠]، آثر صاحب نكور الالتزام بالشــــروط الفقهيـة المنظمة للإقطاع. يتجلى ذلك فى حصره الإنزال المذكور فيما يبدو أنه من عـادى الأرض أو مما لم يحيه أحد من الموات[٣١].

ولعل فى إقدام المستفيدين من الإنزال المذكور على إقامة سوق بالموضع سرعان مـــا أصبح نواة لإحدى أكبر الحواضر المغربية الوسيطة، ما يفصح عن تحقيق الهـــدف التنمـــوى والعمرانى حسبما تواخاه ثلة من الفقهاء المتشددين فى ضبط شروط جواز الإقطاع. ومـــن المعلوم أن رابع أمراء نكور سعيد بن إدريس قد تجرد لاحقا لنقلـــهم عـــن هـــذا الموضـــع للاستقرار بمدينة نكور، مما يدل على إن الإنزال الممنوح لهم اقتصر على تمكينهم من استغلال فائدة المال و لم يكن إنزال تمليك على رقبة الأرض[٣٢].

وبانتهاء العمل بعقد الإقطاع الذى يتم بمقتضاه تحويل جزء من ثروات بلاد نكـــور نحو دمشق، ومع اتساع نفوذ البلد ليشمل رقعة تمتد عرضا "مسيرة عشرة أيام"[٣٣] وتتعمـــق طولا نحو التخوم الشبه الجافة للمجرى الأوسط لنهر ملوية، تصاعدت إمكانـــات تحقيـــق التراكم المالى بواسطة الجبايات والمغارم الموضوعة على أهل الطاعة من القبائل الموالية، وفـــق نظم إدارية ومالية لم يصلنا عنها أدنى إشارة فى المصادر المعتمدة.

---

[٢٧] – نفسه ، ١٤ . لمزيد من التفاصيل عن أحكام أراضى الخراج راجع : البلاذرى ، فتوح البلدان ، تحقيق / رضوان محمـــد رضـــوان ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ٣٥ – ٤٣٣ .

[٢٨] – الزيانى ، الترجمانة الكبرى فى أخبار المعمور برا وبحرا ، تحقيق / عبد الكريم الفيلالى ، المحمدية ٨١ ، ١٩٦٧ .

[٢٩] – البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشر / دى سلان ، باريس ١٩٦٥ ، ص ٩٢ .

[٣٠] – ابن القوطية ، المصدر السابق ، ص ٤٤ ؛ ابن عذارى ، المصدر السابق جـ٢ ، ص ٣٣ ؛ ابن الخطيب ، الإحاطة ، م١ ، ص ١٠٣.

[٣١] – المقصود بعادى الأرض " كل ارض لها ساكن فى آباد الدهر فانقرضوا فلم يبق منهم أنيس فصار حكمها إلى الإمام " انظـــر : ابـــن سلام، المصدر السابق ، ٢٨١ . عن الوجه الثانى المشرق للإقطاع باعتبار دوره فى تنشيط العمران وتحريك النمو راجع نصا هاما لابن حزم ورد لدى ابن رضوان : الشهب اللامعة فى السياسة النافعة ، تحقيق / على سامى النشار ، الدار البيضاء ١٩٨٤ ، ٢٣٢ .

[٣٢] – عن أصناف الإنزال ، راجع : ابن رشد ، المصدر السابق ، جـ١ ، ص ٢٤٤ ، ٢٩٤ .

[٣٣] – اليعقوبى ، كتاب البلدان ، نشر / دى جويه ، ليدن ، ١٩٦٧ ، ص ٣٥٧ .

ولعل فيما ذكره البكري[٣٤] عن امتناع "مكناسة عن صالح وحبسوا مغارمهم"، ما يفصح عن ركون صاحب نكور إلى النظام القبلى فى تحديد الوحدات الخاضعة للمغارم، على الأقل فيما يتعلق بالمناطق الجافة والشبه الجافة النائية عن مركز الحاضرة. أما قلب الإمارة بنكور وتمسامان، فلا يستبعد أن يكون قد انتظم منذ هذا العهد المبكر فى كور ورساتيق، على غرار النظام المعتمد لاحقا بالأندلس فى إدارة وتدبير المجال[٣٥]. مصداق ذلك ما ذكره ابن حوقل[٣٦] فى سياق حديثه عن أعمال بلاد طنجة التى انتظمت فى شكل "مدن متصلة الرساتيق". وضمن الكتاب الذى بعثه محمد بن خزر الزناتى إلى الخليفة الأموى بالأندلس عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٩ هجرية، ما يدل على أن الانتظام الإدارى وأعداد المجال القروى فى كور وأقاليم ورساتى، له أصول سابقة فى تاريخ العدوة المغربية، إذ قال : "هذه أطراف أعمالنا وحواشى كورنا من نحو المراسى المنتظمة بجزيرة الأندلس"[٣٧].

والغالب على الظن أن ثمة تغيير قد مس فى العمق بمجمل النظام العقارى المرتبط بوضعية الأرض وأشكال الملكية ببلاد نكور ابتداء من نهايات القرن الثالث الهجرى. فعلى غرار النظام الثغرى بالأندلس، لم يتردد عبد الرحمن الناصر عن إطلاق يد المتنفذين من أتباعه بالعدوة المغربية بواسطة إمضاء سجلات وعقود الإقطاع، مقابل الولاء والطاعة والاندماج فى نظام الجماعة. يتجلى ذلك من خلال إنفاذ العهد لموسى بن أبى العافية إقرارا على لسان الخليفة بأن" كل ما توسعت فيه وفتح الله عليك به كان لك ولولدك ولعقبك إقطاعا من أمير المؤمنين لك وتوسعا عليك ومكافأة لمحبتك لا تتبدل لك ولا لأحد من ولدك وعقبك عند أمير المؤمنين حال إلا بأحسن منها"[٣٨]. ومن المعلوم أن حملات موسى بن أبى العافية التوسعية قد بلغت قلب الإمارة نكور فخربها ليعود نفوذه إلى الانحسار بعدئذ نحو التخوم الشرقية الشبه الجافة ببلاد مكناسة واحواز مليلة.

وليس أدل على رسوخ إقطاع التمليك فى عدد من المناطق التى كانت إلى عهد قريب من ممتلكات إمارة بنى صالح ، من فحوى الخطاب الذى بعثه الخليفة الأموى عبد الرحمن

---

[٣٤] - المصدر السابق ، ٩٣ . والمقصود فى سياق هذا النص ، صالح بن سعيد خامس امراء آل صالح بنكور .

[٣٥] - المقدسى ، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ، ١٩٦٧ ، ٢٢٢ . والرستاق مصطلح جغرافى مشرقى يقابله فى المغرب والأندلس مصطلح الإقليم الذى يعتبر بمثابة اصغر وحدة فى تنظيم المجال . وتنتظم الأقاليم ضمن وحدة اكبر تدعى الكورة . وتختلف دلالات مصطلح الأقاليم اختلافا بينا بين جناحى دار الإسلام . راجع ، ياقوت الحموى ، معجم البلدان ، بيروت ، ١٩٧٩ ، جـ١، ص ٢٢ .

[٣٦] - صورة الأرض ، ليدن ، ١٩٦٧ ، ص ٨٣ .

[٣٧] - ابن حيان ، كتاب المقتبس ، نشر / م. صبح / ف. كوريطى / ب شالميتا ، مدريد ، ١٩٧٩ ، جـ ٥ ، ص ٣٠٢ .

[٣٨] - نفسه ، ص ٣١٢ .

الناصر سنة ٣٢٦ هجرية لمدين بن موسى بن أبي العافية مرفوقا "بسجل من قبله ولاه بـه أعمال أبيه من مليلة وغيرها من مدن العدوة حسب ما كان سجل لأبيه قبله"[٣٩].

والراجح أن بلاد نكور لم تخرج عن القاعدة العامة التى عادة ما تمس وضعية الأرض والعلاقات المتمحورة بين أطراف الإنتاج الفلاحى حول العائدات الزراعية عند انتقال أزمة القرار السياسى والمبادرة التنظيمية والتشريعية من الحواضر والمدن والقرى الجامعة نحو القلاع والحصون[٤٠]. ففى هذه الحالة ، لا يقتصر دور مراكز القرار الجديدة المحصنة علـى اتخاذ أحمية[٤١] متحيفة، بل وتتحكم أيضا بفضل الجند والحاميات العسكرية فى مجمـل الأراضـى والأنشطة الفلاحية المرتبطة بها.

ينطبق نفس الشئ على الامتدادات الغربية للإمارة، ويتعلق الأمر ببلاد غمارة الـتى لم تعد منتظمة كما كانت فى إطار الجماعة وأصبحت لكثرة المتآمرين من القواد "بتلك الناحية ملكا توزعوه قطعا"[٤٢]. انعكس ذلك على المستوى العمرانى بخراب الحواضر والمدن واختلال البنيان. من ثم تصاعد الاهتمام باتخاذ الحصون ورفع الأسوار وبناء القلاع، بما يكشف عـن التوجهات الجديدة التى مست فى العمق مجمل النظام الإقتصادى القائم.

لعل فى هذه العناصر، ما يدعو إلى إعادة النظر فيما تكرس لحد الآن من تصـورات بخصوص المرحلة التاريخية المعروفة بالقرون المظلمة فى تاريخ المغرب، وما يستحث الهمم ليس لبناء حوليات الحدث السياسى ببلاد نكور، بل وكذلك للانغماس فى معالجـة جملة من قضايا التاريخ الحضارى بالغرب الإسلامى.

---

٣٩ - نفسه ، ص ٤٢٧ .

٤٠ - للمقارنة يمكن تتبع تفاصيل هذه المسالة ضمن عملنا : عامة أشبلية فى عصر بنى عباد ، أطروحة دكتوراه دولة نوقشت بكليـة الآداب بمكناس ، ابريل ١٩٩٤ (غير منشورة) .

٤١ - من المفيد بهذا الخصوص الإشارة إلى أهمية صنف خاص من المصادر العربية التى طواها النسيان ، ويتعلق الأمر بـ " كتـب أحمية الحصون " . نخص منها بالذكر كتاب ابى الحسن على بن محمد بن خلف المعافرى المعروف بابن القابسى من أهل إفريقيـة المتـوفى ٤٠٣هـ الذى وضعه فى الموضوع ، راجع : ابن فرحون ، الديباج المذهب فى معرفة اعيان المذهب ، تحقيق / محمد الأحمـدى أبـو النور، القاهرة ، ١٩٧٢ ، جـ٢ ، ص ١٠٢ . ومن الأندلسيين نذكر يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكنانى من موالى بنى أميـة جيانى الأصل قرطبى المنشأ قيروانى الإقامة وتوفى بسوسة سنة ٢٨٩هـ الذى وضع هو الآخر مصنفا فى " أحمية الحصون " راجـع نفسه ، جـ٢ ، ص ٤٥٥ ، وله كتاب مماثل بعنوان " فى فضائل المنستير والرباط " .

٤٢ - ابن خلدون ، العبر ، جـ٦ ، ص ٢٨٩ .

المدرسة الفكرية الإسماعيلية فى المرحلة المغربية

(٢٩٦ - ٣٦٢هـ / ٩٠٩ ٩٧٣م)

د. / بوبة مجانى

كلية الآداب - جامعة منتورى

ظروف تأسيس المدرسة الفكرية الإسماعيلية ببلاد المغرب:

إن الحديث عن المدرسة الفكرية الإسماعيلية فى مرحلتها المغربية يتطلب من الدارس العودة إلى فترة الدعوة المبكرة فى هذه المنطقة ، والأفكار التى روج لها الدعاة الأوائل الذين استطاعوا أن يتحصلوا على موطئ قدم منذ سنة ١٤٥هـ / ٧٦٢م حسب الرواية الشيعية[١] ، أى عندما كان الفكر الإسماعيلي يؤسس في المدينة أيام الإمام جعفر الصادق. كما أن هذه الدراسة تسعى إلى كشف أسباب اختيار بلاد المغرب مجالا لنشر المذهب الشيعي.

غير أن الغموض الذي اكتنف بدايات الدعوة والأفكار التى روج لها الدعاة كانت بسبب قلة الكتابات التاريخية من جهة وضياع ما دون مبكرا من جهة أخرى مثل كتابات المؤرخ والداعية أحمد بن الأسود بن الهيثم[٢] المعاصر للداعى أبى عبد الله الشيعى والإمام عبيد الله المهدى. وكذلك كتابات كبير الدعاة الكتاميين والمعاصر هو الآخر للإمام الأول المهدى، أفلح بن هارون الملوسى[٣]. كما أن بعض كتابات فقيه الدولة القاضى النعمان بن محمد بن حيون التميمى المبكرة والعائدة إلى فترة الإمام الأول مفقودة هى الأخرى . اضف إلى ذلك سرية الدعوة وطبيعة المذهب ذاته القائم على تأويل الخبر وليس روايته[٤] . كل هذه الأسباب زادت من استعجام الموضوع وعسرت مهمة المتصدى له للكشف عن ملامح هذه المدرسة فى الفترة المغربية . ولاستجلاء ملامح هذا الدور وقضاياه تبقى غير واضحة إذ أن اهتمام المصادر اقتصر على الجوانب السياسية والعسكرية دون غيرها .. لهذا تبقى الأخبار المتعلقة بالفكر الذى احتوى هذه الحركة شحيحة لا تسعف الدارس على سبر أغواره ، بل

---

[١] - القاضى النعمان : رسالة إفتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، دار الثقافة بيروت ١٩٧٠ ، ص٥٤ .

[٢] - الداعى إدريس عماد الدين القريشى : عيون الأخبار وفنون الآثار ، نشر محمد البعلاوى القسم الخاص بالمغرب بعنوان تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، دار الغرب الإسلامى بيروت ١٩٨٥ ، ص ١٥٦ ، ٢١١ ، ٢١٢ ونقل عنه إدريس عماد الدين فى كتابه السالف الذكر من أخبار الدعوة والدولة ورجالاتهما .

[٣] - نفسه / ٢١١ - ٢١٢ .

[٤] - يعد كتاب القاضى النعمان المجالس والمسايرات الذى ألفه فى عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله أحسن مثال على ذلك نشره محمد البعلاوى والحبيب الفقى وإبراهيم شبوح منشورات الجامعات التونسية تونس ١٩٧٨ .

تكتفى الأخبار بالإشارة إلى أن الدعاة روجوا لفكرة الإمام المستور المهدى المنتظر . وتنطوى هذه الفكرة فى حد ذاتها على منظومة فكرية كاملة تسعى إلى إصلاح المجتمع فكريا وعقائديا واقتصاديا واجتماعيا .

والسؤال الذى يطرح بإلحاح : إلى أى مدى ساهمت كتامة القبيلة فى صياغة الفكر الإسماعيلى فى دوره المغربى ؟

وللإجابة على هذا السؤال يجب على الباحث أن يضع يده على مؤلفات كتامية بالدرجة الأولى مثل كتابات قاضى القضاة وداعى الدعاة أفلح بن هارون الملوسى السالف الذكر ، وحيدرة بن محمد بن إبراهيم صاحب " السيرة الكتامية " والذى نقل عنه إدريس القرشى قائمة مؤلفات القاضى النعمان[٥] . وغيرهما من علماء هذه القبيلة[٦] . أو بالإعتماد على المؤلفات المبكرة التى أرخت للدعوة أو حملت أفكار هذه الدعوة ، لأن كتابات القاضى النعمان وحدها لا تكفى لرسم صورة كاملة وواضحة لهذه المدرسة فى دورها المغربى .

لامراء فى أن منطقة كتامة قد اختارها التنظيم الدعوى لتكون قاعدته لنشر المذهب فى بلاد المغرب وكذلك قاعدته العسكرية لإقامة الدولة ، لأنها تتميز بطبيعة جبلية وعرة وببعدها عن مركز السلطة بمدينة القيروان ، وهذه الطبيعة الجغرافية والبعد فرضا عليها عزلة فكرية وعلمية فما كان يدور من صراع فكرى ومذهبى ومناقشات كلامية فى القيروان وبعض الأمصار المغربية مثل فاس وتهرت وغيرهما لم تعرفه هذه المنطقة . لهذا كانت معرفة الكتاميين بالإسلام بسيطة لا تتعدى مستوى المعاملات اليومية التى يعودون فيها إلى من عرف منهم ببعض العلم ليحتكموا إليهم فى أمور دينهم .

لقد عمل التنظيم الدعوى على نشر أفكاره فى كل الأوساط ، وعندما تطلب الأمر انشاء دولة توجه إلى البيئات الأقل تحضرا والبعيدة عن المراكز الحيوية مثل منطقة كتامة ليتخذ من الوضع الاجتماعى سببا للإحتجاج على السلطة العباسية[٧] . قدم التنظيم الدعوى

---

[٥] - عيون الأخبار / ٥٦٨ Ponawala Ismail (K) : *Bibliography of Ismaili Literature*, California, 1977, pp. 48 68;Lvanow , *A guide to Ismaili Literature*, London, 1933, pp.32-37.

[٦] - هناك شاعر كتامى دون أحداث فتح مصر والشام نظما مشيدا بدور القائد الكتامى جعفر بن فلاح أنظر : إدريس القرشى : المصدر السابق / ٦٩٦ .

[٧] - فرهارد دفترى : الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ، " الإسماعلية حتى العهد الفاطمى " دار الينابيع للنشر والتوزيع ، دمشق ، ١٩٩٤ / ١٧٩ .

البرنامج البديل المتمثل فى فكرة المهدى المنتظر . وكانت كتامة الأرض والقبيلة هى التى حقق بها التنظيم الدعوى برنامجه الإصلاحى .

ولقد إستفاد التنظيم من طبيعة المجتمع القبلية المعتمدة على العصبية وما تملكه القبائل من سلاح وخيل[8] لأن الهدف لم يكن إلا الحصول على النصرة السياسية . ولأن نشر الفكر المذهبى التأويلى الفلسفى يحتاج إلى استعداد ذهنى وموروث فكرى ، بالإضافة إلى ما يتطلبه من وقت لنشره . اى أن التنظيم كان يريد منطقة صالحة للعمل العسكرى بعد الحصول على النصرة السياسية أكثر مما يسعى إلى الحصول على مرتكز فكرى لتطوير المذهب ، لأن الفكر قد تمت صياغته وحددت أبعاده وأهدافه ووضعت أسسه وبرامجه فى المشرق أيام الأئمة الأوائل منذ نهاية القرن الأول الهجرى / السابع الميلادى .

وعليه كانت الدعوى تريد عصبية قبلية قادرة على العمل المسلح ، ومنطقة صالحة إستراتجيا لهذا العمل ، وهذا التطبيق ما تم الترويج له من أفكار لا تتعدى التذكير بفضائل آل البيت وحقهم فى الإمامة وهو ما وجدته فى كتامة القبيلة والأرض . وكان يكفيها من الناحية الفكرية أو المذهبية ما يكنه الكتاميون من حب لآل البيت وكرة للسلطة الأغلبية . يؤكد ذلك أن السلطة الفاطمية لم تفكر فى فرض ضرائب على الكتاميين ، وهذا مقابل خدماتهم للدعوة إلا بعد أن بدات استعدادات العودة إلى المشرق فى خلافة المعز لدين الله[9] .

إن الذى حدد مسار الحركة الفكرية الإسماعيلية فى مرحلتها المغربية يتمثل فى نشأة الخلافة فى وسط مشبع بالعداء للمذهب الإسماعيلى فى القيروان قاعدة وحصن المالكية ، فلم يكن بإمكان الإمام الفاطمى أن يتوقع حكم بلاد المغرب بسهولة من هذه المدينة أو من مدينة أخرى من مدن المغرب التى إنتشر فيها المذهب المالكى وسيط كلية بحيث لم يترك مجالا لمذهب آخر . والخلاف مع المالكية إنصب كلية حول قضية الإمامة التى شيد عليها الفكر الشيعى . كما أن معاداة المالكية للإسماعيلية لم يكن سببها الإختلاف فى نظرية الإمامة فقط ، بل يمكن ردها كذلك إلى السياسة الإقتصادية التى سلكتها الخلافة الفاطمية تجاه المعارضين لها فى المذهب[10] .

---

[8] – القاضى النعمان : إفتتاح الدعوة / ٦٥ – ٦٦ .

[9] – المقريزى اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق جمال الدين الشيال ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ١٩٦٧، ٩٨.

[10] – أنظر تفاصيل ذلك فى دراسة د. محمود إسماعيل : محنة المالكية فى إفريقية المغربية ، دراسة إجتماعية ، مغربيات دراسات جديدة ، فاس ١٩٧٧ ، ص ٦٨ وما بعدها .

لقد أسندت مهمة الرد على طعونات السنة واعتراضاتهم إلى الفقيه القاضي النعمان بالتأليف في الموضوع منذ عهد الخليفة الثالث المنصور الذي أمر النعمان بالرد على السنة فيما رفضوه من إمامة آل البيت[11] لأن القاضي النعمان يعد من أكثر علماء الإسماعيلية إطلاعا على مذاهب أهل السنة وفقههم مما مكنه من الرد عليهم من داخل مرجعيتهم[12] ويتجلى ذلك في كتابه اختلاف أصول المذاهب .

أما قبل هذه الفترة فلقد كانت الردود على السنة في شكل مناظرات جمعت الخليفة الأول عبيد الله المهدي مع كبار فقهاء السنة مثل سعيد بن الحداد[13] . كما جمعت كذلك كبير دعاته أبا عبد الله الداعي وأخاه أبا العباس المخطوم مع علماء السنة[14] . ودارت المناظرات كلها حول قضية الإمامة ، لتنقطع بعد ذلك أخبار هذه المناظرات والمواجهات الفكرية في عهد الخليفة الثاني القائم بأمر الله بسبب انشغاله بالمعارضة المسلحة التي قام بها الخوارج النكار بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار . وتعود المناظرات في عهد الخليفة المعز لدين الله الذي ناظر في ذات الموضوع فقيها سنيا[15] .

أما باقي مناطق المغرب فقد ظاهرت المذهب ودولته العداء وحاربته بكل قوتها . ففي تاهرت عاصمة الدولة الرستمية الأباضية ، وفي فاس دولة الأدارسة العلويين الذين أقصاهم الشيعة الإسماعيلية والإمامية من الحكم بحصرهم الإمامة في أبناء الحسين فقط . وفي سجلماسة كانت تحكم أسرة بربرية تدين بالمذهب الخارجي الصفري . فكلهم إذن يخالفون المذهب الإسماعيلي فكراً وسياسة . إلى جانب عدو الإسماعيلية التقليدي الأمويين في الأندلس والعباسيين في بغداد .

إن القضية الأساسية التي استغرقت زمن التنظيم الدعوي الإسماعيلي هي قضية الإمامة . هذا الاستغراق لم تتسبب فيه المعارضة المذهبية فقط ، بل كذلك الانشقاقات داخل المذهب ذاته بسبب الاختلاف حول سوق الإمامة ، فكانت هي الموضوع الفكري المتداول بين أتباع المذهب . وعلى الرغم من المجهودات التي بذلها الخليفة المعز من أجل لم شتات الفكر وتوحيده حول قضية الإمامة وصياغته صياغة رسمية ، إلا أن موضوع الإمامة ظل يطرح بإلحاح مع دعاته في المشرق ويتجلى في المراسلات التي كانت تدور بينه وبين دعاته

---

[11] – القاضي النعمان : المجالس ، ص ١٣١ – ١٣٢ .

[12] – نفسه ، ص ٤٣٠ .

[13] – أبو بكر عبد الله المالكي : رياض النفوس ، تحقيق بشير البكوش ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ١٩٨٣ ، ص ٥٩/٢ .

[14] – نفسه ٢/ ٨٤ – ٨٦ .

[15] – القاضي النعمان : المجالس ٣٦٥ .

مثل الرسالة التى بعث بها داعيته حليم بن شيبان داعى السند الذى يعلمه فيها بإلتزامه بخط الخلافة فى الإمامة[١٦] .

ويبدو أن الذى زاد من حدة الصراع والاختلاف بقاء الكتب التى تتناول الموضوع وفلسفته سرية لا تتداول إلا فى نطاق ضيق ، وحتى أبناء البيت الحاكم كانوا يخفونها عن بعضهم البعض .

فالخليفة عبيد الله المهدى يطلع المنصور ولى عهد القائم على كتب فى الباطن خفية عن ولى عهده القائم بأمر الله ذاته[١٧] .

هذا الانقسام والانشقاق بسبب الاختلاف حول بيت الإمامة . وهو ما تمثله الحركة القرمطية التى رفضت إمامة عبيد الله المهدى ، والتى بسبب سيطرتها على بلاد الشام ترك المهدى "سلمية " إلى بلاد المغرب[١٨] .

هذا الرفض لإمامة المهدى لم يكن من طرف دعاة المشرق فقط ، بل حتى داعيته المقيم لسلطانه فى المغرب " أبى عبيد الله الداعى " وأخيه " أبى العباس المخطوم " رفضا مهدويته . غير أن رفض المشرق صحبه إنتاج فكرى متنوع وعميق[١٩] . بينما رفض المغرب لم يتعد الحركة العسكرية لأن نشر المذهب فى صيغته التأويلية والفلسفية فى بيئة المغرب أمر مستحيل لأن هذه البيئة ليست هى بيئة المشرق التى كانت تغص بالأفكار الفلسفية .

هكذا كان الجو الذى ظهرت فيه الخلافة الفاطمية فكان لزاما عليها أن تواجه هذا العداء المذهبى والسياسى والفكرى . لهذا عندما أسس المهدى الخليفة الأول عاصمة الدولة باشر فى تطبيق الفكر على أرض الواقع فسمى هذه العاصمة " المهدية " وهو اسم ذو مدلول عقائدى. واهتم فيها بالتحصينات العسكرية دون الإهتمام بالمنشآت الدعوية . أى أنه لم يؤسس بها دار دعوة لأن حاجة الدولة إلى البقاء فى هذا الوسط العدائى يحتاج إلى القوة العسكرية قبل كل شئ. أما الدعوة فيكفيها أن تعقد بجالسها فى القصر والمسجد . كما أن

---

[١٦] - إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٢٤٩ .

[١٧] - القاضى النعمان : المجالس / ٥٠٢ .

[١٨] - أحمد بن إبراهيم النيسابورى : استتار الإمام عليه السلام وتفرق الدعاة فى الجزائر لطلبه ، نشر سهيل زكار ضمن الجامع فى اخبار القرامطة ، دار حسان ، دمشق ، ١٩٨٧ ، جـ١ ، ص ٢٧٣ - ٢٨٢ ، محمد بن محمد اليمانى : سيرة الحاجب جعفر ، نشر إيفانوف ، مجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، مجـ٤ ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١١٠ - ١٩٠ .

[١٩] - من المؤلفات القرمطية التى وصلتنا كتاب " عبدان " : شجرة اليقين ، تحقيق عارف تامر ، ط١ ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ١٩٨٢. ويتفق كثير من الدارسين على أن الإسماعيلية سطوا على التراث الفكرى القرمطى . انظر فرهاد الدفترى : الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ، ترجمة سيف الدين القصير ، دار الينابيع ، دمشق ١٩٩٤ ، جـ١ ص ١٨٧ ، محى الدين اللاذقانى : ثلاثية الحلم القرمطى ، ط١ ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ١٩٩٣ ، ص ٢٥٠ .

المشروع السياسى الفاطمى يهدف بالأساس إلى العمل من أجل العودة إلى المشرق ، وجعل المغرب مرحلة وقاعدة انطلاق فقط لهذا العمل العسكرى لكن دون التخلى عن العمل الدعوى. الانشقاق تطلب من السطلة لم شتات المذهب الفكرى الذى انتج فى المشرق والذى أخذ لبوس هذا الانشقاق وتوحيده وصياغته صياغة رسمية تخدم أهداف الإمامة فى المغرب .

واستغرقت عملية التوحيد هذه فترة زمنية طويلة لانشغال الإمامة بالفتن والثورات التى ظهرت منذ عهد الخليفة الأول ، فبالإضافة إلى فتنة الداعى التى تطلبت من المهدى تصفيته جسديا مع أخيه ومن تبعهما من رجالات كتامة ، هناك ثورة صاحب الحمار أبى يزيد مخلد بن كيداد الخارجى .

وعلى الرغم من أن هذه الثورة لم تكن ذات أبعاد فكرية بل كانت ثورة على السياسة المالية المجحفة . هذا ما يفهم من قول أبى يزيد عند خروجه للحج مع رفقاء له من نفس المذهب حيث قال لهم عندما ودعهم بالقرب من جبل نفوسة : " ليس لله علينا أن نشترى حجة "[20] مما يعبر صراحة عن رفضه للضرائب الكثيرة التى فرضتها الخلافة على التجار والفلاحين بل حتى الحجاج أجبروا على المرور بالمهدية لدفع ضريبة قبل الخروج إلى المشرق[21] وكادت هذه الثورة أن تقوض أركان الدولة خصوصا بعد أن تحالف المالكية مع النكار مما أخذ من الدولة وقتا طويلا ومجهودا كبيرا من أجل إعادة الاستقرار فى البلاد . أى أن الدولة اهتمت وركزت على الجانب العسكرى كما فى مرحلة الدعوة . وهذا من اجل البقاء فى وسط هذا الجو العدائى ، ولم يظهر الاهتمام بالناحية الفكرية إلا فى عهد الخليفة الرابع " المعز لدين الله " .

فى خضم هذه الأجواء العسكرية تكونت المدرسة الفكرية الإسماعيلية فى بلاد المغرب . وهذه الأجواء هى التى طبعت مسارها ، كما أن الأهداف التى رسمتها لنفسها منذ ظهور المذهب فى المشرق حدد كذلك هذا المسار .

---

[20] – يحيى بن أبى بكر أبو زكريا : سير الأئمة وأخبارهم تحقيق إسماعيل العربى ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ١٩٧٦ ، ص ١١٦ حول هذه الثورة راجع إحسان عباس : مصادر ثورة أبى يزيد مخلد بن كيداد ، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربى وحضارته ، الجامعة التونسية ، تونس ١٩٧٩ ، ص ١١١ وما بعدها ، محمود إسماعيل : الخوارج فى المغرب الإسلامى ، دار العودة بيروت ، مكتبة مدبولى القاهرة ، ١٩٧٦ ، ص ١٧٧ وما بعدها .

[21] – ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، ط٣ ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣ ، جـ١، ص ١٨٦.

خصائص المدرسة الفكرية الإسماعيلية :

ينطلق هذا الفكر من نظرته إلى السلطة التي يقيمها على تصوره للإمامة التي تكون بالنص والوصية والتوقيف وليس الاختيار او الشورى . لأن الإمامة مكملة للنبوة التي مهمتها تبليغ الرسالة أو التنزيل ، أما الإمامة فمهمتها تأويل هذا التنزيل وحفظه من أجل استمراره . أى أن المؤول والحافظ للشريعة يجب أن يكونا عالمين بأسرارها ، لهذا زاوجوا بينهما بل جعلوا الفصل بينهما مبطلا للإمامة .

فالتأويل والحفظ يتطلبان العلم الوهبي الفطري الذي حبا الله به وفضل به آل البيت دون غيرهم من البشر واستحفظهم سره هذا الاصطفاء يعطى للإمام حق المفاضلة بين الناس فيصطفى بدوره من يراه أهلا لعلمه وحكمته[٢٢] . وعلم الإمام يورثه للإمام الذى يأتى من بعده . اى لا يكون عن طريق التلقين والاكتساب . فصادر الإسماعيلية بذلك من باقى المسلمين اختيار الإمام كما صادروا منهم العلم كذلك ، العلم الذى يعنى القدرة على الغوص فى أعماق النص القرآنى أو السنى عن طريق التعلم .

وبناء عليه يعتبر الإسماعيلية سبب الاختلاف بين الأحزاب والمذاهب والفرق هو عدم رجوع المخالفين لمذهبهم إلى علم الأئمة وعدم أخذهم عنهم ويقول فى ذلك القاضى "النعمان"[٢٣] استنادا على حديث مأثور عن الإمام على عند اختلاف الناس بعد موت الرسول (لو ثنيت لى وسادة وجلست للناس لقضيت بين أهل القرآن بالقرآن ، وبين أهل التوراة بالتوراة وبين أهل الإنجيل بالإنجيل ولما اختلف اثنان فى حكم من أحكام الدين) .

هذا النص يبين للناظر فيه أن علم الإمام على اللامحدود لم يقتصر على القرآن بل شمل كل الكتب السماوية . وطبيعى أن يرفض الإسماعيلية العقل فى التمييز بين الخير والشر والعدل والجور دون الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله الذى لا يعلم مكنونهما ومعانيهما الباطنية إلا الأئمة ، فبذلك لا علم إلا علم الأئمة[٢٤] يتجلى لنا ذلك من خلال رد المعز على أحد الكتاميين فى مجلس من مجالسه ، قائلاً له : كل الناس يدعون العقل ، حتى المجانين وهم مختلفون فى المذاهب ، وحجة كل واحد عقله ، ومع ذلك لا يعدم مخالفا له ، والعاقل فى نظره هو المطيع لله والآخذ عن أوليائه، والجاهل هو العادل عن ذلك[٢٥] .

---

[٢٢] - القاضي النعمان : المجالس / ١٠٤ ، إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ٢٥٨ .

[٢٣] - إختلاف أصول المذاهب ، تحقيق مصطفى غالب ، ط٣ ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ص ٣١ .

[٢٤] - القاضي النعمان : المجالس ص ٤٢٤ .

[٢٥] - نفسه / ص ٤٢٣ - ٤٢٤ .

إن الأئمة وحدهم هم القادرون على التأويل الذى هو البحث فى أسرار الدين ؛ فهما يقرب من جوهر العالم الروحانى . أى استخدام أو الاستعانة بالفلسفة فى فهم القرآن فهما تأويليا أو فلسفيا[٢٦] .

وتأسيسا على ما سبق فإن التأويل يتحدد بالمنظومة الفكرية للمؤول . فالإسماعيلية مثلا تأولوا القرآن من أجل إيجاد مسوغ شرعى لمطالبتهم بالإمامة ، والإمامة هى الركن الأساسى الذى بنى عليه فكرهم .

كما أن التأويل يتحدد بمدى عمق فكر المؤول وطبيعة فكره . فرجل الدين يختلف تأويله عن الفيلسوف . فإذا كان المؤول رجل دين فتأويله يكون من أجل استخراج الأحكام الشرعية وتطبيقها . أما إذا كان فيلسوفا فإن تأويله ينصب على الكشف عن أسرار الكون وعالم الغيب . غير أن المؤول الإسماعيلى سواء كان رجل دين أم فيلسوفا فإن هدفه هو تثبيت حقهم فى الإمامة . لهذا ربطوا بين الأئمة والأنبياء وجعلوا الحركة التاريخية أدوارا يكون آخرها دور القائم ، الذى يرقى إلى مرتبة النبوة . ولهذا شرعية الإمامة عندهم مرتبطة بشرعية التأويل أى التأويل لا يستطيع أن يقوم به إلا الإمام من هنا تأتى نظرة الإسماعيلية للتاريخ الذى قسموه إلى أدوار كما سبق الحديث وكل دور يشابه الآخر وهو تكرار له من آدم إلى القائم[٢٧]. كما أن الحدث التاريخى ذاته ذو وجهين ، هناك الحادثة أو الواقعة وهناك تأويلها[٢٨] . وصحة الأحداث التاريخية العائدة لهذه الأدوار مصدرها الأئمة[٢٩] لأنهم وحدهم مصدر كل علم . وهذا تسخيرا لإثبات شرعية الإمامة بامتدادها فى أعماق التاريخ ومنذ بدايته أى من دور آدم .

لقد دون الدعاة الفكر الإسماعيلى باعتمادهم وحسب الرواية الرسمية الإسماعيلية على الأئمة. وعلى الرغم من أن المصدر واحد إلا أن الاختلاف كان كثيرا حول القضية الواحدة . هذا الاختلاف هو الذى يؤكد لنا أن رد العلم إلى الأئمة وحدهم دون غيرهم هو للدعاية المذهبية فقط التى تطالب بشرعية آل البيت فى الإمامة استنادا على العلم المورووث عن

---

[٢٦] – الحبيب الفقى : التأويل أسسه ومعانيه فى المذهب الإسماعيلى (القاضى النعمان) ، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس / أ .

[٢٧] – الحبيب الفقى : المرجع السابق / أ .

[٢٨] – عادل عوا : معنى التاريخ فى الفكر الإسماعيلى ، المؤتمر الأول لتاريخ بلاد الشام ، ط١ ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ، ١٩٧٤ ، ص ١٩٢ .

[٢٩] – نفسه ، ص ٢٠١ .

الرسول عليه الصلاة والسلام . ويذهب بعض الدارسين[٣٠] إلى أن هذا الادعاء تبطله حقيقة أن الأئمة لم يكونوا ذوى علم ما عدا " جعفر الصادق " و " المعز لدين الله " .

غير أن الواقع من خلال ما وصلنا من أخبار يثبت أن الأئمة كانوا من ذوى العلم فالإمام "محمد الباقر" له أجوبة رد فيها على أسئلة الأتباع وجمعت هذه الأسئلة فى كتاب لإسماعيلية آسيا الوسطى هو "أم الكتاب"[٣١] .

كما يروى "جعفر بن منصور اليمن" عمن أخذ عن الباقر[٣٢] وكل ذلك يؤكد أن الباقر كان من علماء آل البيت العلماء وكتاب "المجالس والمسايرات" للقاضى النعمان[٣٣] حافل بالأخبار عن علم الأئمة وحكمتهم مثل "المنصور" الذى كان يشرف على مجالس الحكمة فى المهدية والمنصورية . بل له تآليف منها كتاب فى الإمامة[٣٤] .

وإذا نظرنا إلى الموضوع من داخل المذهب الإسماعيلى ذاته فإن المعز لا يمكن أن يكون عالما إذا لم يكن الإمام "المنصور" هو الذى أودعه هذا العلم . فكما ورث عنه الحكم ورث عنه العلم كذلك .

وتعود أسباب كثرة الأخبار عن المعز إلى طبيعة الفترة التى حكم فيها . فالمعز جاء حكمه بعد فترة اضطرابات وحروب شغلت حياة الأئمة الثلاثة من قبله . كما أن المسلك الذى اتبعه فى نشر الدعوة كان مغايرا لمسلك سابقيه ، المهدى والقائم وهذا بسبب رد فعل المغاربة على هذا الأسلوب ، واحسن مثال على رد الفعل هو ثورة صاحب الحمار .

ومن خلال الأخبار التى وردت عند القاضي النعمان عن علم المعز نرى أنه كان عالما بالنحو ويناظر فى ذلك علماءه البارعين[٣٥] فطلب من أحد أئمته أن يؤلف كتابا فيه وحدد له فى نفس الوقت موضوع هذا الكتاب . وتعود براعة المعز النحوية إلى ارتباط هذا العلم بعلم البيان. والبيان إحدى معجزات القرآن الكريم . ونظرا لكون الأئمة هم وحدهم القادرين على الغوص فى أسرار الكتاب فهم بذلك الأعلم بالنحو[٣٦] .

---

[٣٠] – الحبيب الفقى : المرجع السابق / ٣ .

[٣١] – جاء فى هذا الكتاب أن الباقر هو الذى أعطى هذا العنوان للكتاب الذى شملت أجوبته موضوعات فى العقائد والتفسير وقصص الأنبياء وغيرها من الموضوعات مثل الروح والجسد والعرش والملائكة Lvanow, *Kitab der Islam*, 1936, tome 23, p. 16.

[٣٢] – جعفر بن منصور اليمن : كتاب الكشف ، نشر مصطفى غالب ، ط١، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٨٤ ، ص ٢٨ .

[٣٣] – أنظر على سبيل المثال المجالس / ٢٦٥ – ٢٦٧ والداعى إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ٢٥٨ .

[٣٤] – القاضى النعمان : المصدر السابق ص ٣١٥ .

[٣٥] – نفسه ص ٣٠٩ .

[٣٦] – نفسه ص ١٢٤ .

إلى جانب علم النحو يذكر النعمان كذلك أن المعز كان مؤرخا مؤولا للأحداث التاريخية وليس راويا لها فقط[٣٧] . وكان عالما بكل اصناف العلوم الدينية والدنيوية[٣٨] ، من علم الكلام والفقه والطب والهندسة وعلم النجوم والفلسفة واللغة[٣٩] .

هكذا كان المعز العالم يمثل المدرسة الفكرية بكل معارفها بل كان الموجه لمنهجها ومفاهيمها[٤٠] .

فبعد أن اجتازت الدولة مرحلة التأسيس وتوطيد دعائمها التفتت إلى البناء الحضارى والفكرى استعدادا لتشييد إمامة تحكم كل العالم الإسلامى من بغداد بعد إسقاط الخلافة العباسية. لهذا قام المعز بتوحيد الفكر الإسماعيلى فعمل على كسب إسماعيلية المشرق إلى صفه بعزله الدعاة الثائرين عليه أو المبالغين فى موالاته ، بتحليلهم المحارم أو الخلط بين الدين والفلسفة ونسب ذلك إلى الأئمة[٤١] . هذا التقول و التحريف فى المذهب ونسبه إلى الأئمة يرجع إلى المرجعية العلمية عند الأتباع التى حصرت فى الأئمة فأصبح كل تقول أو تحريف ينسب إليهم فكثرت الكتابات وتنوعت واختلفت مما دفع بالمعز إلى الجمع والتوحيد وسيظل بيت الإمامة هو الذى يشرف ويوجه ما ينشر من علم سواء أكان فقها أم علم حقائق حتى بعد العودة إلى المشرق[٤٢] .

وبناءا على ما سبق فإن الحركة الفكرية المتمثلة فى جمع شتات الفكر وإلغاء اختلافاته هو تأكيد للفكرة القائلة أن لا علم إلا علم الإمام . أى أن الإمام المعز كما جمع كل السلطات فى يده هو الذى يتولى تحديد طبيعة الفكر ووجهته التى تخدم دولته . لهذا عندما كان يسأل إن كان هو المهدى يرد على سائليه قائلا : فضل الله تعالى كثير وواسع ولنا منه قسم جزيل ولمن يأتى من بعدنا فضله ، ولو كان الفضل لواحد لما وصل إلينا منه شئ . فقد كان المهدى مفتاح قفل الفضل والرحمة والبركات والنعمة فبه فتح الله تعالى ذلك للعباد وذلك يتصل عنه فى ذريته حتى يتم وعد الله الذى وعدهم إياه بفضله وقوته وحوله[٤٣] ولكى يتغير المجتمع سياسيا واقتصاديا واجتماعيا يجب أن يتغير علميا وثقافيا على أساس من الفكر الفلسفى . لأن التغيير بالثورة أو العنف دون مسوح فكرى لا يحقق الأهداف المرجوة.

---

٣٧ – أنظر تفاصيل ذلك فى المصدر نفسه ص ١٣٨ – ١٣٩ .

٣٨ – القاضى النعمان : المجالس ، ص ١٤٢ .

٣٩ – نفسه ص ١٤٩ .

٤٠ – نفسه ص ١٤٢ .

٤١ – نفسه ص ١٩٨ ، ٢١٦ ، ٢٣٧ ، ٤٠٨ ، ٤١٩ ، ويذكر هذه الأخبار بجملة دون تفصيل أو تحديد لهذا التبديل والتقول .

٤٢ – القاضى النعمان : إختلاف أصول المذاهب ، ص ٣٨ .

٤٣ – القاضى النعمان : شرح الأخبار فى فضائل الأئمة الأطهار ، مؤسسة النشر الإسلامى ، قم ، ايران ، ١٤٠٩ ، جـ١٥ ، ص ٣٩٠ .

والناظر فى هذا النص يتبين له أن فكرة المهدى عبارة عن مشروع إصلاحى اجتماعى واقتصادى وسياسى ، وهذا الإصلاح مرتبط بإصلاح أمر النـــاس الفكـــرى . أى عندمـــا يأخذون العلم عن الأئمة[٤٤] وعليه المهدى ليس آخر الفضل بل هو بدايته ، وهو الأســـاس الذى بنى عليه المذهب الإسماعيلى وهو الإمام وعلمه سواء أكان هذا الإمام ظاهرا أم مستترا لأنه هو الهادى للبشرية[٤٥].

ووقف العلم على الأئمة دون غيرهم من البشر جعل الدعاة يروجون لفكـــرة علـــم الأئمة للغيب . وساهم فى بث هذا الاعتقاد فى نفوس الأتباع تحقيـــق بعـــض التوقعـــات المستقبلية مثل ظهور المهدى هذه التوقعات هى التى تعرف بعلم الحدثان الذى كان منتشـــرا فى إفريقية أيام الأغالبة . حيث كان الناس يأملون فى الخلاص من جور أمرائهم على يد إمام من آل البيت وهو المهدى . وهو ما تحقق فى السنة التى حددوها[٤٦].

وبالعودة إلى المصادر التي أرخت للدعوة الإسماعيلية نرى أن التنبؤات المستقبلية بدأت أيام مؤسس المذهب الإمام جعفر الصادق الذى تنبأ بفشل كل الثورات التى يقوم بهـــا آل البيت بل وحتى العباسيين وهذا الفشل حسب النص سببه التشبه بالمهدى أو إدعاء المهدويـــة . والثورة حسب هذا التنبؤ التى ستحرز النجاح هى التى يقودها أبناء الحسين بن على[٤٧].

وتتردد مقولة علم الغيب كثيرا فى كتابات القاضى النعمان مثل علم المهدى المســـبق بثورة صاحب الحمار وحصاره للمهدية . وهو الأمر الذى جعله عند تأسيسها يقيم حولهـــا أشد التحصينات انطلاقا من اختيار الموقع[٤٨] . كما أن المهدى تنبأ كذلك بعدم فتح مصـــر على يديه ومع ذلك قام بمحاولة الفتح[٤٩].

والسؤال الذى يطرح : هل كان ذلك علما بالغيب أم هو حسن التقدير والقـــدرة على الاستشراف ؟ أم هو تأويل للأحداث لصالح الدعوة ؟ أم هو فى الأخير غلو الدعاة ؟

---

[٤٤] - إدريس القريشى : عيون الأخبار ، ص ٢٥٠ .
[٤٥] - القاضى النعمان : المجالس ص ١١٨ -
[٤٦] - القاضى النعمان : كتاب افتتاح الدعوة ص ٨٤ - ٨٧ - ٨٨ - ٨٩ - ٩٩ .
[٤٧] - القاضى النعمان : شرح الأخبار ١٤ / ٢٠٨ .
[٤٨] - القاضى بن النعمان : كتاب إفتتاح الدعوة ص ٢٧٥ ، وحول حقيقة علم الغيب الذى يعلمه الأئمة ، أنظر لنفس المؤلف : الرســـالة المذهبة ، تحقيق عارف تامر (خمس رسائل إسماعيلية) ، دار الإنصاف للتأليف والطباعة والنشر ، سلمية ١٩٥٦ ، ص ٨٢ .
[٤٩] - إدريس القريشى : عيون الأخبار ص ٢٠٨ .

لقد نفى الإمام القائم بأمر الله أن يكون الأئمة يعلمون الغيب ، والدعاة الذين روجوا لذلك هم صادون عن الأئمة وليسوا دعاة لهم[٥٠] ويذهب المعز فى نفس السياق لتوضيح اللبس فيرى أن علم الغيب الذى يعلمه الأئمة ليس الغيب الذى قال فيه الله سبحانه وتعالى " قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ".

والغيب الذى يعلمه الأئمة هو العلم الذى غاب عن الناس ووهبه الله إلى الأئمة واستحفظهم سره[٥١] . فهو بذلك يؤكد على الأساس الذى بنى عليه الإسماعيليون مشروعيتهم فى السلطة وهو العلم الوهبى الموروث والمنقول من إمام إلى آخر بفضل العناية الإلهية وعليه هذا العلم هو الذى يمنح الإمام القدرة على الاستشراف.

وتحقيق التنبؤات المستقبلية هو الذى أدى ببعض الدعاة إلى الغلو فرفضوا علم الظاهر أى ترك المعنى الظاهرى للنص الشرعى ، وعملوا فقط بالمعنى الباطنى . وهو ما سمح لهم بتأول الأحكام حسب أهوائهم ، فشاع هذا الغلو واستشرى بين الدعاة مما دفع بالمهدى وحفاظا على مصالح الدولة إلى معاقبتهم بالنفى أو السجن . ثم أقدم بعد ذلك على الامتناع عن عقد مجالس لعدة سنوات ، وكان قبل ذلك يجلس إليها بنفسه[٥٢].

ويرجع المعز أسباب عدم أخذ أغلب الدعاة بعلم الظاهر جهلهم بالأحكام ، فعندما كانوا يسألون عن الصلاة مثلا أو الصوم يمتنعون عن الإجابة بحجة أن السائل لم يبلغ الحد الذى يسأل عنه[٥٣].

ولهذا حرص المعز حرصا شديدا على أن لا ينشر الدعاة إلا ما يأمر به أو يصدر عنه وليس ما يضيفه الدعاة على هذا العلم أو تأويلهم له[٥٤].

وهكذا التأويل حتى وإن تعدد فيكون من الإمام ذاته وليس من الدعاة وهذا ما يؤكده قول الإمام جعفر الصادق " إنا لنجيب فى المسألة الواحدة بسبعة أوجه لكل وجه حد فاستكثر ذلك من سمعه وقال بسبعة أوجه يابن رسول الله -صلع- ؟ فتبسم وقال : نعم وسبعون ولو زادوا لزدنا"[٥٥].

---

٥٠ - القاضى النعمان : المجالس ص ٨٤ .
٥١ - نفسه ص ٨٤ - ٨٥ .
٥٢ - القاضى النعمان : إفتتاح الدعوة ص ٢٦٧ .
٥٣ - القاضى النعمان : المجالس ص ٥١٤ .
٥٤ - نفسه ص ٤٥٢ .
٥٥ - نفسه ص ٤١٤ .

هكذا يتبين لنا أن العلم مستويات كما أن الدعاة رتب ومستويات ولهذا لا يستطيع الداعية أن يتجاوز حده فى الدعوة[٥٠] .

لقد كان الدعاة فى هذه الفترة فى بلاد المغرب أغلبهم من كتامة ، ولقد صرح الأئمة فى أكثر من مناسبة بعدم قدرة كتامة على استيعاب أفكار المذهب الشيعى لهذا كان إقبالهم على مجالس الدعوة والحكمة بسيطا[٥١] .

إن الفراغ الفكرى الذى عاشته كتامة هو الذى يسر مهمة الداعى بها . فعندما نزل بها عند قدومه مع حجاجها سنة ٢٨٠هـ / ٨٨٣م ، وجد الأرض الخصبة المهيئة التى يبذر فيها بذور مذهبه ، لهذا باشر بعقد مجالس دعوته فى إكجان[٥٢] ، مظهرا فى هذا المرحلة فضائل الإمام على والأئمة من ذريته ، ومن يلمس فيه الاستعداد لتقبل علمه يأخذ عليه العهد وينتقل به إلى علم الباطن[٥٣] ، أى يطلعه على بعض أسرار المذهب .

والتشيع العام عرفته قبيلة كتامة قبل دخول الداعى إليها ، على يدى الداعيتين أبى سفيان الحسن بن القاسم ، وعبد الله بن على بن أحمد الحلوانى[٥٤] . وبذلك يكون الداعى قد نقل الكتاميين من التشيع العام إلى الخاص دون أن يبلغ بهم أعلى المراتب أى ظل يعمل من أجل نشر الفكر السياسى دون الفلسفى.

ولقد ترجم هذا الفكر السياسى على أرض الواقع عندما أحرزت دعوته على بعض الانتصارات العسكرية فقام بتقسيم القبيلة والأرض إلى سبعة أسباع جاعلا على كل سبع داعية وقائد[٥٥] .

ويواصل الداعى الارتقاء بكتامة فى مراتب التشيع عندما يشتد الصراع مع الأغالبة الذين حاصروه فى تازروت ، فيظهر الحكمة لأتباعه[٥٦] بهدف شحن النفوس .

هكذا استطاع الداعى أن يكون جيلاً من الدعاة الكتاميين الذين يتولون مهمة نشر الدعوة فى بلاد المغرب . ومن أشهر هؤلاء الدعاة أفلح بن هارون الملوسى الذى تولى قضاء

٥٦- نفسه.

[٥١] -القاضى النعمان: إفتتاح الدعوة، ص٧٩.

[٥٢] -القاضى النعمان: إفتتاح الدعوة، ص٦٧.

[٥٣] - إدريس القرشى : عيون الأخبار ص ٨٨ .

[٥٤] - نفسه ص ٥٤ .

[٥٥] - القاضى النعمان : المصدر السابق ص ١٢٧ .

[٥٦] - القاضى النعمان : المصدر السابق ص ١١١ .

القضاء ورئاسة الدعوة أيام الخليفة عبيد الله المهدى . وكانت مجالس دعوته شاملة لكل فئات المجتمع . فالنساء كان لهم مجلس ، وكذلك الصناع والحرفيون ، والفلاحون والرعاة[٥٧] .

وعلى الرغم من هذه المكانة التي بلغها هذا الداعية الكتامي إلا أن المصادر الشيعية عندما تتحدث عن إنتاجه الفكرى الذى أسهم به فى بناء المدرسة الشيعية فى بلاد المغرب تذكر أنه كان نساخا للكتب فقط سواء كانت فقهية أم فى الآثار وفضائل آل البيت[٥٨] وبذلك يكون قد ساهم فى عملية جمع التراث الإسماعيلى دون الإبداع والتأليف .

وإذا قارنا ذلك بما كان يجرى فى المشرق فإن المشرق كان يعج بالأفكار الفلسفية والعقائدية فغالى دعاته كذلك فى علم الأئمة وتخلوا عن ظاهر الدين وأخذوا بباطنه لكن ذلك كان بسبب استخدامهم الفلسفة فى الدين والخلط بين الدين والفلسفة . فلم تكن آراؤهم فلسفية محظة ولا دينية صرفة[٥٩] فالمشرق غالى فاستطاع أن يتأول النصوص كما استطاع أن يمزج الموروث بالدين مما أعطى للدعاة حرية استقراء النص واستخراج الأحكام منه حسب هوى كل مؤول فكثرت بذلك الخلافات وكثر معها التأليف مما دفع بالإمام المعز إلى جمع هذا التأليف وتوحيده وتوجيهه الوجهة الرسمية وأوكلت هذه المهمة إلى القاضى النعمان .

أما فى المغرب فإن نكران المهدوية توقف عند حد العمل العسكرى واكتفت كتامة بتنصيب مهدى من إحدى قبائلها على صورة المهدى الفاطمى .

والكتابات الفاطمية الرسمية فرضت التعتيم على هذه الحركة واكتفت بتكفير مهدى كتامة واتهامه بادعاء النبوة والوحى وتنصيب دعاة على نفس التنظيم الدعوى الذى كان الداعى ينشر من خلاله ويروج لفكره المهدى الفاطمى[٦٠] .

---

[٥٧] - إدريس القرشي : عيون الأخبار ص ٢١٢ . ظل هذا النظام فى نشر الدعوة متبعا حتى بعد العودة إلى المشرق ففى العهد الخليفة الحاكم بأمر الله كان مكلف بالدعوة الحسين بن على بن نعمان (ت ٣٩٥هـ / ١٠٠٣م يفرد للأولياء مجلسا وللقضاة وشيوخ الدولة مجلسا آخر فى القصر ، وعوام الناس والطارئين على البلد مجلسا أما نساء القصر كان لهن مجلسا خاصا بهن فى القصر ولعامة النساء مجلسا فى الجامع الأزهر ، تقى الدين المقريزى : المقفى الكبير ، نشر محمد البعلاوى ، ط١ ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٧ ، ص٣٩٦ .

[٥٨] - نفسه ص ٢١١ .

[٥٩] - القاضى النعمان : المجالس ص ٤٠٨ .

[٦٠] - ابن عذارى : البيان ١/١٦٦ - ١٦٧ . عبد الرحمن ابن خلدون : العبروديوان المبتدأ والخبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ١٩٨١ ، جـ ٧٨/٧/٤. المقريزى : المقفى ص ٩٠ . إدريس القرشى : عيون الأخبار ص ١٩٠ .

هكذا يتضح لنا أن كتامة المحدودة الفكر عندما انشقت لم تستطع أن تنتج فكرا يضاد الفكر الرسمي بل كل ما عملته أنها استنسخت صورة المهدى الفاطمي دون إعطاء فكري أو مذهبي ، بل يمكن القول أنها استنسخت فكر المهدى .

ولاغرو أن تأسيس المدرسة الفكرية في المرحلة المغربية هو نتاج الجهود التي بذلت أيام الخلفاء الأوائل كالمهدى والقائم من أجل توطيد أركان الدولة بسيادة الفكر الذى قامت عليه وهذا استعداد للعودة إلى المشرق بعد أن تشمله سيادة فكرها بعد توحيده .

فعندما جاء المعز إلى السلطة وحرصا منه على تحقيق هدف العودة اتخذ موقفا مخالفا للأئمة السابقين من المعارضة سواء كانت مالكية أم أباضية[٦١] .

والسياسة التي اتبعها المعز تجاه الخصم هي التي وفرت له جو توحيد المذهب الإسماعيلي وأسند هذه المهمة وكما سلف القول إلى القاضي النعمان قاضي القضاة وداعي الدعاة ، وأحد أبناء كبار الدعاة في اليمن وهو جعفر بن منصور اليمن ، لأن المعز لم يجد من أهل المغرب من يستطيع القيام بهذه المسؤولية . فلقد كان كثير الشكوى بجهل أهل إفريقية[٦٢] وتمكن من توحيد هذا الفكر بعد أن كسب ولاء بعض المنشقين عنه في المشرق ، فأصبح الدعاة يبعثون إليه بأسئلتهم المتعلقة بالمذهب فيجيب عنها[٦٣] .

واستمرت هذه الاتصالات مع الدعاة فكانوا يخبرونه بكل ما يجرى في جزرهم ، وهو بدوره يخبرهم بما يجرى في دولته .

حركة التأليف وتأسيس المكتبات :

إن الأسس التي قام عليها المذهب الإسماعيلي وهي العلم الألوهي الرباني الذى يعطي للإمام شرعية تأويل النصوص الدينية - وهي نفس الأسس التي بنيت عليها الإمامة - أعطت ثراءا في التدوين .

لهذا يتساءل الدارس إذا كان الفكر الإسماعيلي منطلقة العلم الرباني الذى يعتمد على التأويل الباطني للنصوص ، فهل اعتمد دعاته عند نشرهم للدعوة على الرواية الشفهية أم على كتب مدونة ؟ خصوصا وأن الدعوة سرية والخلافة العباسية تبث عيونها في كل مكان لمنع هذه الدعوة من الانتشار .

---

٦١ - أبو زكريا : السير ص ١٣٨ - ١٤٠ .
٦٢ - القاضي النعمان : المجالس ص ٣٩٦ .
٦٣ - القاضي النعمان : المجالس ص ٢٣٦ . فرهارد دفترى : الإسماعيليون تاريخهم وعقائدهم ٥٢/٢ .

ففى بلاد اليمن مركز الدعوة ومدرسة إعداد الدعاة كان الداعية ابن حوشب وابن الفضل الجيشانى عندما دخلاها وجدا بها من يمتلك كتبا تنبئ وتبشر بظهور المهدى وتتحدث عن أخباره وكذلك أخبار الدعاة الذين يأتون إلى بلاد اليمن يدعو له بها قبل ظهوره وهما ابن حوشب ورفيقه[٦٤] .

أما بلاد المغرب فيذكر المؤرخون أن أبا عبد الله الداعى عندما كلف بنشر المذهب وأثناء وجوده فى سجلماسة لإخراج المهدى من سجنه كانت معه كتب ينظر فيها[٦٥] .

ويفترض أن تكون هذه الكتب قد حملها معه إلى بلاد كتامة عند دخوله إليها كما أن كبير دعاة كتامة أفلح بن هارون الملوسى استنسخ كتبا كثيرة فى الفقه وفضائل أهل البيت .

وخطب الإمام على وأبنائه أيام الخليفة المهدى[٦٦] يرجح كذلك أن يكون النسخ قد تم أيام الدعوة السرية وعند تأسيس الدولة وأثناء قدوم الإمام عبيد الله المهدى من الشرق كانت معه كتب ملاحم أخذت منه فى برقة[٦٧] .

ومن الدعاة الذين كانت لهم تآليف فى بداية الدولة فى عهد خليفتها الأول المهدى الداعى الطالبى أبو على باب الأبواب (ت ٣٢١) ومن مؤلفاته كتابه الموسوم " أمهات الإسلام" رد فيه على الفلاسفة والأمم المخالفين للإسلام كما عرض فيه كذلك إلى التأويل وحقيقة وجوده وظل الداعى الطالبى يؤلف إلى أن توفى[٦٨] .

ومن الدعاة الذين كانت لهم مؤلفات وعاصروا الخليفة المهدى ، أحمد بن الأسود بن الهيثم الذى نقل عنه أخبار الدعوة والدولة الداعى إدريس القرشى الذى توفى فى القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى[٦٩] .

وظلت حركة التأليف فى عهد المهدى نشطة فالداعى أبو اليسر الرياضى الذى تولى خطة الكتابة بعد تأسيس الدولة صنف كتبا فى علوم شتى منها علوم الحديث والقرآن والأدب[٧٠] .

---

[٦٤] - القاضى النعمان : شرح الأخبار ١٥ / ٤٠٧ .

[٦٥] - أبو زكريا : السير / ١١٠ .

[٦٦] - إدريس القرشى : عيون الأخبار ص ٢١١ .

[٦٧] - القاضى النعمان : إفتتاح الدعوة / ١٥١ ، إبن عذارى : البيان ١/١١٠ . المقريزى : إتعاظ الحنفا / ٦١ . والمقفى / ٨٤ . إبن حلدون : العبر / ٧/٧١ .

[٦٨] - إدريس القرشى : المصدر السابق ٢٣٦/ .

[٦٩] - نفسه / ٢١١ .

والقاضى النعمان الذى نال شهرة واسعة فى عهد الخليفة الرابع المعز لدين الله بدأ هو الآخر تصنيف الكتب أيام الخليفة المهدى فكتابه " مختصر الإيضاح " وهو عبارة عن أحاديث وأخبار تروى عن الأئمة من آل البيت[٧١] ألفه فى هذه الفترة كما أن كتابه الذى وضعه فى آداب التعامل مع الأئمة وهو " كتاب الهمة فى آداب إتباع الأئمة " يرجح أنه صنفه فى آخر عهد المهدى أو بداية عهد القائم[٧٢] .

هذه الكتب إلى جانب ما حمله معهم الدعاة الذين قاموا بنشر مذهب فى بلاد المغرب هى التى كونت النواة الأولى للمكتبة الإمامية بإفريقية فبعد تأسيس الدولة اهتم الخليفة المهدى باقتناء الكتب وجمعها بل صادر من المخالفين لمذهبه كتبهم فالفقيه المالكى سعدون بن أحمد الخولانى (ت ٣٢٧) كان يمتلك كتب الحدثان فصادرها منه المهدى[٧٣] .

ومن علماء المالكية الذين صودرت كتبهم ووضعت فى خزانة القصر كتب الفقيه أبى محمد عبد الله بن أبى هاشم (ت ٣٤٦) وكانت هذه الكتب فى علوم شتى[٧٤] .

وعندما كان الداعى يقوم بإسقاط الدولة الحاكمة فى بلاد المغرب وهو فى طريقه إلى سجلماسة استولى على تاهرت عاصمة الرستميين سنة ٢٩٦هـ / ٩٠٩م ، وجد بها مكتبة عامرة بالكتب فأخرجها كلها واقتنى منها ما يصلح للملك والحساب وأحرق الباقى[٧٥] .

أما المصدر الآخر الذى مد المكتبة الإمامية بالكتب هو ما كان يؤلف فى بلاد المشرق فى بغداد حتى ولو كان فى أخبار بنى العباسى[٧٦] .

وظلت الكتب التى تؤلف فى المشرق من طرف الداعة ترسل إلى بلاد المغرب فكتاب "الزينة" الذى ألفه أبو حاتم الرازى فى فضل اللغة العربية ومنافع الشعر واشتقاقات أسماء الله الحسنى أرسل إلى الخليفة القائم بأمر الله لم يسمح لولى عهده المنصور بالإطلاع على بعض

---

[٧٠] – إبن عذارى : البيان ١٦٣/١ .

[٧١] – إدريس القرشي : المصدر السابق / ٥٦٠ .

[٧٢] – فرحات الدشراوى : كيف صار القاضى النعمان فقيه الدولة الفاطمية فى المغرب ، أعمال الملتقى القاضى النعمان الثانى ، المهدية ، من ٤ – ٧ أوت ١٩٧٧ ، وزارة الشؤون الثقافية ، تونس ١٩٨١ ، / ٢١٢ .

[٧٣] – المالكى : رياض النفوس ٢٥٩/٢ .

[٧٤] – نفسه ٤٢٢/٢ . القاضى عياض اليحصبى : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق أحمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دار الفكر طرابلس الغرب ، ٣٤٠/٣ .

[٧٥] – أبو زكريا : السير / ١١٣ ، أبو العباس الدرجينى : طبقات المشايخ بالمغرب ، تحقيق إبراهيم الطلاى ، مطبعة البعث ، قسنطينة ١٩٧٤ ، ٩٤/١ – ٩٥ .

[٧٦] – القاضى النعمان : المجالس / ٣٢٠ .

أجزائه[٧٧] ، وهذا لكون الكتاب فى علم الباطن على الرغم من أن مادته تبدو فى علم الظاهر. وإهتمام الأئمة بالعلم واقتناء الكتب واستنساخها وتصنيفها فى خزانة القصر جعلهم يعينون موظفا مهمته هى جمع الكتب واستنساخها وحفظها . وأسندت هذه الوظيفة فى عهد كل من المهدى والقائم إلى القاضى النعمان وكان المسؤول عن المكتبة أحد أبناء البيت الحاكم وهو المنصور ولى عهد القائم[٧٨] .

وفى عهد الخليفة المنصور تولى هذه الخطة الأستاذ " جوذر الصقلى " الذى كان يدخر عنده نفيس ما تحتوى عليه هذه المكتبة[٧٩] .

ويمدنا صاحب سيرة جوذر[٨٠] ببعض عناوين هذه الكتب عندما يتحدث عن أمر المنصور جوذر باستنساخ كتب منها كتاب الإيضاح للقاضى النعمان وخطبة للقائم وأخرى للمنصور ذاته[٨١] .

وفى خزانة الكتب تلك كان الخليفة المعز يقضى ليلة يطلع على محتوياتها خصوصا ما كان منها فى علم الباطن الذى لا يطلع عليه إلا الأئمة . وفى نفس الوقت كان يؤلف فى لياليه تلك[٨٢] .

ويمكن القول بعد هذا العرض السريع لمواضيع الكتب نرى أن معظم المؤلفات كانت دينية وعقائدية وفلسفية وهو ما يرجح أن يكون قد شكل الرصيد الأكبر فى مقتنيات هذه المكتبة .

ومن القرائن على ذلك أن الأئمة عندما كانوا يصادرون كتب المخالفين لهم فى المذهب كانت إما فى علم الحدثان أو الحساب والرياضيات ولعلم الرياضيات علاقة وطيدة بعلم الفلسفة الذى أستخدم فى التأويل .

ومن العلوم كذلك علم النجامة الذى اهتم به الأئمة اهتماما كبيرا . فالخليفة المنصور برع فيه وكان غرضه من ذلك هو التوحيد وليس معرفة الغيب[٨٣] وكان الخليفة المعز يرى أن

---

[٧٧] - إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٦٢٦ ، حول شخصية هذا العالم ومولفاته ، انظر : Lvanow, op.cit, pp. 24 - 26 ؛ نشر كتاب الزينة فى القاهرة سنة ١٩٥٦ من طرف حسين بن فيض الله الهمدانى .

[٧٨] - القاضى النعمان : المجالس ٨٠ / .

[٧٩] - العزيزى الجوذرى : سيرة الأستاذ جوذر / تحقيق محمد كامل حسين ، ومحمد عبد الهادى شعيرة ، القاهرة ، / ٥٣ .

[٨٠] - نفسه / ٥٣ .

[٨١] - نفسه .

[٨٢] - القاضى النعمان : المصدر السابق / ٥٠ .

[٨٣] - القاضى النعمان : المجالس / ١٣١ - ١٣٢ .

النظر فى النجامة هو لمعرفة حساب السنين ومواقيت الليل والنهار وهى دلائل على التوحيد[٨٤] لذلك طلب من النعمان أن يضع له أسطرلاب ، فاختار النعمان ذلك ابنه محمد ليشرف على الصانع الذى كلف بوضعه[٨٥] وتبدو استفادة الإسماعيلية من هذا العلم جلية ، فعلى نظام الكون نظموا دعوتهم ، كما جعلوا العلم والحكمة تنتقل من إمام إلى آخر تدريجيا وليس دفعة واحدة كنمو الخلق وتحول الفصول[٨٦] .

ومن خلال ما سبق نرى أن العلوم التى حازت على اهتمام الأئمة هى العلوم التى تستخدم فى عملية استشراف المستقبل كعلم الحدثان والرياضيات والنجامة وكلها ترتبط بالفلسفة التى عالج بها الأئمة قضية الإمامة ما عدا علم الحدثان .

وإذا نظرنا إلى الكتب التى كانت تدرس فى مجالس الدعوة نرى أن القاضى النعمان داعى الدعاة كان يجلس للفقه فى المسجد وفى القصر يجلس لعلم الباطن تتلى فيه الكتب بعد صلاة العصر فى كل يوم جمعة ، وكان أغلبية المتلقنين فى هذا المجلس الذى يعقد بالقصر من كتامة[٨٧] .

وكان الإمام المعز هو الذى يحدد الكتب التى تتلى فى مجلس القصر ومن بينها كتابى القاضى النعمان " دعائم الإسلام "[٨٨] و " اختلاف أصول المذاهب "[٨٩] المتمم والمكمل للدعائم فالدعائم يؤسس ويؤصل الفقه الإسماعيلى كما يروى عن الأئمة والثانى فى المنهج الذى أصل به هذا الفقه .

لقد كان القاضى النعمان – كما سلف القول – هو الذى يجلس للعلم سواء فى المسجد أو القصر[٩٠] كما كان هو المؤلف للكتب التى تتلى فى هذه المجالس والتى مازال بعضها يتداول بين الأتباع لحد الآن مثل كتاب الدعائم الذى ضمنه القواعد الفقهية للمذهب وهى الأسس السبعة التى يقوم عليها الإسلام حسب رأى الإسماعيلية .

[٨٤] – نفسه / ٣٤٩ .
[٨٥] – المقريزى : المقفى / ٣٦١ .
[٨٦] – القاضى النعمان : المجالس / ٢٦٧ .
[٨٧] – إدريس القرشى : عيون الأخبار / ٦١٨ .
[٨٨] – نفسه / ٣٠٦ .
[٨٩] – فرحات الدشراوى : المرجع السابق / ٢١٣ .
[٩٠] – القاضى النعمان : المصدر السابق / ٣٨٦ .

هكذا تولى النعمان مهمة تأليف الكتب أو جمعها واستنساخها وتولى معه هذه المهمة إبن كبير الدعاة جعفر بن منصور اليمن[٩١] ، الذى لعب دورا كبيرا فى صياغة الفكر الإسماعيلى صياغة تأويلية باطنية . أما القاضى النعمان فلقد جمعت كتاباته ما بين الظاهر والباطن وكان باطن علمه باطن فقيه وليس باطن فيلسوف غاص فى أعماق الفكر الفلسفى مثل جعفر بن منصور اليمن وهذا التبحر فى فكر جعفر جعله يتقدم على النعمان ويحظى بالمركز الأسمى فى التنظيم الدعوى .

إن أخذ المذهب الإسماعيلى بالفلسفة جعله يتمتع بالقدرة على التلاؤم مع كل تراث وهو ما أعطى فى نفس الوقت حرية للدعاة فى تأويل النصوص فكثرت الخلافات والاختلافات فى هذا الفكر . وهذه الكثرة فى التنوع وفى الإنتاج هى التى دفعت بالمعز إلى جمع التراث وصياغته بما يتلاءم وأهداف الخلافة خصوصا إذا كان بعض هذا الإنتاج يشكل خطرا على الخلافة ويهددها بالانقسام.

والسؤال الذى يطرح : هل هؤلاء الدعاة كانوا مبدعين أم ناسخين فقط وجامعين لهذا الفكر ؟ إن الناظر فى المصادر الشيعية يرى أن كل الأخبار التى وردت عن التدوين فى المرحلة الإفريقية تبين أن واضعى هذا الفكر هم الأئمة من آل البيت فالقاضى النعمان ينسب كل ما ألفه إلى الخليفة المعز[٩٢] .

وإذا سلمنا بذلك وفى غياب رواية أخرى مخالفة فإن مكانة المرحلة المغربية بين المراحل التى مر بها هذا الفكر هو الجمع والصياغة الرسمية . وهو ما تحتاجه الخلافة فى هذه الفترة لكى يسهل عليها العودة إلى المشرق وحكمه مع المغرب بالمذهب الإسماعيلى .

أما الدور الآخر فهو نشر المعارف العقلية التى لم تكن منتشرة من قبل فى بلاد المغرب منها الفلسفة التى انتشرت كتبها فكانت مؤلفات أرسطوطاليس فى الفكر السياسى معروفة فى بلاد المغرب بل حتى فى أقصى أطرافه مثل سجلماسة[٩٣] . والفلسفة إن تكن قد دخلت المغرب قبل الفاطميين فإن الفضل يرجع لهم فى نشرها وإعطائها مكانة خاصة .

والميزة الأخرى للمرحلة المغربية أنها أدخلت منهجا علميا ومعرفيا جديدا إلى بلاد المغرب لم يكن معمولا به من قبل . وهذا المنهج مرتبط بالمذهب وملازم له فالعلم الألوهى

---

[٩١] - توفى بالمغرب سنة ٣٤٧هـ / ٩٥٨م . ما تزال بعض مؤلفاته مخطوطة مثل كتاب الشواهد والبيان ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ميكروفيلم رقم ٣٠٤٤٤ عقائد تيمور .

[٩٢] - نفسه / ٤٠١ ، إدريس القرشى : عيون الأحبار / ٥٦٠ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ .

[٩٣] - إدريس القرشى : عيون الأحبار / ٦٢٦ .

الذى مصدره الإمام يلقن للأتباع حسب قدراتهم العقلية وينتقل من إمام إلى آخر انتقالا وراثيا أى تواصل المدد الإلهى . وبذلك رفضوا العمل بالرأى والقياس اللذين عملا بهما السنة لهذا عاب جعفر بن منصور اليمن على بعض الشيعة إتباعهم منهج القياس كالسنة[٩٤] وعليه الصراع هو صراع فكر ومنهج فى ذات الوقت .

ويمكن القول أنه إذا كان الفضل يرجع للخليفة المعز فى جمع الفكر الإسماعيلى وتوحيده فإن للخلفاء الذين سبقوه دورا فى ذلك ، فهم الذين وطدوا له الحكم ووفروا له الاستقرار حتى يستطيع أن يقوم بهذا الدور الفكرى لكى يعود إلى المشرق .

ويبدو أن المعز أدرك جيدا أن السياسة التى انتهجها الأئمة الذين سبقوه فى الحكم المهدى ، القائم ، هى التى زادت من عداوة المخالفين لهم فى المذهب من سنة وخوارج ، لذلك تفطن المنصور إلى هذا السلوك السياسى فتعامل مع الخوارج الذين ثاروا عليه بزعامة أبى يزيد صاحب الحمار بالقوة وداهن السنة المالكية حتى يكسر الحلف الخارجى السنى فأرضاهم بقتل بعض الدعاة ونفى البعض الآخر إلى الأندلس وغيرها من المناطق ، كما سمح للفقهاء أن يفتوا ويعملوا بالمذهب المالكى[٩٥] .

فعندما جاء المعز إلى الخلافة عول على أسلوب التعايش الفكرى مظهرا تقديره للعلماء بما فيهم علماء الخوارج[٩٦] .

والذى ساعد كذلك على ازدهار الحياة الفكرية أيام المعز ، إباحته مجالس الدعوة لكل الراغبين فى علم الأئمة هذه المجالس التى ظلت سرية إلى غاية عهد الخليفة المنصور وربما يعود السبب فى ذلك أن عهد هذا الخليفة عرف اضطرابات كثيرة بسبب ثورة صاحب الحمار ، والتى تسببت فيها سياسة الخليفة المهدى الدعوية فلقد كان يحمل الناس بالقوة على التشيع ويمنعهم من الإفتاء بغير المذهب الإسماعيلى[٩٧] .

ولأن المغرب كان الفكر المالكى والإباضى فيه لا يشكلان خطرا على الفكر الإسماعيلى بل الذى كان يهم الأئمة هو توفير الاستقرار السياسى فى المنطقة لتسهل العودة إلى المشرق وهذا يفرض على المعز وقبل الرحيل أن يوحد المذهب حتى لا يواجه بخصم من داخل المذهب ذاته ليتفرغ للعدو العباسى ، فيسقط دولته ببغداد ويحكم هو منها العالم

---

[٩٤] – جعفر بن منصور اليمن : سرائر وأسرار النطقاء ، تحقيق وتقديم مصطفى غالب ، ط١ دار الأندلس بيروت ١٩٨٤ / ٢٤٤ ، ٢٥٠.

[٩٥] – القاضى عبد الجبار الهمدانى : إثبات دلائل النبوة ، نشر د/ سهيل زكار فى الجامع فى أخبار القرامطة ، جـ١ ، ص ٣١٠ .

[٩٦] – أنظر تفاصيل ذلك عند أبى زكريا : السير / ١٤٨ .

[٩٧] – المالكى : رياض النفوس جـ٢ ، ص ٢٦٥ .

الإسلامى لأن المهدية لم تكن هى المستقر فعندما أسسها المهدى اتخذها دار هجرة فقط للإمام القائم بأمر الله[٩٨] وعلى الأئمة الذين يأتون من بعده تقع فريضة الجهاد الفكرى والعسكرى حتى تتحقق العودة إلى المستقر وهو بغداد .

وأخيرا للكشف عن طبيعة الفكر ذاته ومدى صلته بالفكر القرمطى يتطلب دراسة قائمة بذاتها بمقارنة المؤلفات القرمطية المتوفرة مع ما ألف فى مرحلة جمع وتوحيد الفكر الإسماعيلى ، أى المرحلة المغربية ، مثل كتابات الداعى منصور اليمن[٩٩] المعروف بابن حوشب ، وابنه جعفر والقاضى النعمان وغيرهم من الدعاة الذين وصلتنا مؤلفاتهم .

---

[٩٨] – إدريس القرشى : زهر المعانى / ٢٢٠ .

[٩٩] – من مؤلفاته المشهورة البيان فى مباحث الإخوان ، تحقيق مصطفى غالب ، ط١ ، سلمية ١٩٥٦ ، وينسب إليه كما ينسب إلى ولده جعفر كذلك كتاب " العالم والغلام " ، نشر مصطفى غالب ضمن أربعة كتب حقانية ، ط١ ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت ، ١٩٨٣ .

المصادر والمراجع

أولاً المصادر

- جعفر بن منصور اليمني (ت ٣٤٧هـ / ٩٥٨م) : كتاب الكشف ، تحقيق/ د. مصطفى غالب الطبعة الأولى ، دار الأندلس ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

............، سرائر وأسرار النطقاء ، تحقيق/ د. مصطفى غالب ، الطبعة الأولى ، دار الأندلس ، بيروت ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م .

............، العالم والغلام ، أربع كتب حقانية ، نشر/ مصطفى غالب ، ط١، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر ، بيروت، ١٩٨٣ .

- الجوذرى،منصور العزيزى (ت أواخر القرن ٤هـ / ١٠م) : سيرة الأستاذ جوذر ، تحقيق/ محمد كامل حسين وعبد الهادى شعيرة ، القاهرة .

- ابن حوشب منصور اليمنى : البيان فى مباحث الإخوان ، تحقيق/ مصطفى غالب ، سلمية ١٩٥٦ .

- ابن خلدون، أبو زبد عبد الرحمان بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥ - ١٤٠٦م) : المقدمة وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ١٩٨١م .

- الدرجينى، الشيخ أبو العباس أحمد ابن سعيد (ت ٦٧٠هـ / ١٢٧١م) : كتاب طبقلت المشائخ بالمغرب ، تحقيق/ إبراهيم الطلاى ، مطبعة البعث ، قسنطينة ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

- ابو زكريا يحى بن أبي بكر (ت ٤٧١هـ / ١٠٧٨م) : كتاب سير الأئمة وأخبارهم ، تحقيق وتعليق /إسماعيل العربى ، المكتبة الوطنية ، الجزائر ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م .

- عبدان الداعى القرمطى (ت : القرن ٣هـ / ٩م) : شجرة اليقين ، تحقيق/ عارف تامر ، ط١، دار الآفاق الجديدة ، بيروت ، ١٩٨٢ .

- ابن عذارى المراكشى، ابو عبد الله محمد (ت نهاية القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى): البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق/ ومراجعة ج.س. كولان وأ.ليفى بروفنسال ، الطبعة الثالثة ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٨٣ .

- القاضى عياض، أبو الفضل بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى (ت ٥٤٤هـ / ١٠٤٩م) : **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق/ د. أحمد بكير محمود ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ، دار الفكر ، طرابلس الغرب .**

- القرشي، الداعى المطلق إدريس عماد الدين (ت ٨٢٧هـ / ١٤٨٨م) : زهر المعانى ، تحقيق/ د. مصطفى غالب ، الطبعة الأولى ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع ، بيروت ١٤١١هـ / ١٩٩١م .

..............، عيون الأخبار وفنون الآثار السبع الخامس وقسم من السبع السادس ، نشر/ محمد اليعلاوى تحت عنوان تاريخ الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٥م .

- المالكى، أبو بكر عبد الله بن محمد (ت : أواخر القرن ٥هـ / ١١م) : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية ، تحقيق/ بشير البكوش ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٨٥م .

- المقريزى، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) : كتاب المقفى الكبير) تراجم مغربية ومشرقية من الفترة العبيدية) ، اختيار/ د. محمد اليعلاوى ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٤٠٧هـ / ١٩٨٧م .

..............، اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء ، تحقيق/ د. جمال الدين الشيال ، لجنة إحياء التراث الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٦٧م .

- النعمان، القاضى ابو حنيفة محمد بن محمد بن حيون التميمى المغربى (ت ٣٦٣هـ / ٩٧٣م) : اختلاف أصول المذاهب ، تقديم وتحقيق/ د. مصطفى غالب ، الطبعة الثالثة ، دار الأندلس بيروت ١٩٨٣م .

..............، تأويل الدعائم ، تحقيق/ محمد حسين الأعظمى ، الطبعة الثانية ، دار المعارف القاهرة .

..............، دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام عن أهل بيت رسول الله عليه أفضل السلام ، تحقيق/ آصف بن على أصغر فيضى ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

......، رسالة افتتاح الدعوة ، تحقيق/ وداد القاضى ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٠م .

.......، الرسالة المذهبة ، نشر/ عارف تامر ، ضمن خمس رسائل إسماعيلية ، دار الإنصاف للتأليف والطباعة والنشر ، سلمية ١٩٥٦ .

................، شرح الأخبار فى فضائل الأئمة الأطهار ، مؤسسة النشر الإسلامى ، قم، إيران ١٤٠٩ .

................، المجالس والمسايرات ، تحقيق/ الحبيب الفقى ، إبراهيم شبوح ، محمد اليعلاوى الجامعة التونسية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، تونس ١٩٧٨م .

................، الهمة فى آداب اتباع الأئمة ، تحقيق/ د. مصطفى غالب ، دار مكتبة الهلال بيروت ١٩٨٥م .

- النيسابورى، احمد بن إبراهيم : كتاب استتار الإمام عليه السلام وتفرق الدعاة فى الجزائر لطلبه، نشر/ سهيل زكار فى الجامع فى أخبار القرامطة ، دار حسان ، دمشق ، ١٩٨٧.

- اليمانى، محمد بن محمد (مان حيا أواخر القرن ٤هـ / ١٠م) سيرة الحاجب جعفر ، نشر/إيفانوف ، بمجلة كلية الآداب ، الجامعة المصرية ، ١٩٣٦م .

ثانياً المراجع

- إسماعيل، محمود : الخوارج فى المغرب الإسلامى ، مكتبة مدبولى ، القاهرة ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٦ .

- الدشراوى، فرحات : الخلافة الفاطمية بالمغرب ٢٩٦ - ٣٦٥هـ / ٩٠٩ - ٩٧٥م التاريخ السياسى والمؤسسات ، نقله الى العربية حمادى الساحلى ، الطبعة الأولى ، دار الغرب الإسلامى بيروت ١٩٩٤م .

............، كيف صار القاضى النعمان فقيه الدولة الفاطمية بالمغرب ، ملتقى القاضى النعمان للدراسات الفاطمية الدورة الثانية المهدية ٧ - ٤ أوت ١٩٧٧م ، وزارة الشؤون الثاقفية ، تونس ١٩٨١م .

- دفترى، فرهارد : الإسماعليون تاريخهم وعقائدهم ، الجزء الأول ، تطور الإسماعيلية حتى العصر الفاطمى ، ترجمة سيف الدين القصير ، دار الينابيع ، دمشق ١٩٩٤م .

.........، الإسماعليون تاريخهم وعقائدهم ، الجزء الثانى ، تطور الإسماعيلية حتى العصر الفاطمى ، ترجمة سيف الدين القصير ، دار الينابيع ، دمشق ١٩٩٥م .

- عباس، إحسان : مصادر ثروة أبي يزيد مخلد بن كيلاد ، أشغال المؤتمر الأول لتاريخ المغرب العربي وحضارته ، الجامعة التونسية ، تونس ١٩٧٩ .

- عوا، عادل : معنى التاريخ فى الفكر الإسماعيلى ، أشغال المؤتمر الدولى لتاريخ بلاد الشام ، الطبعة الأولى ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت .

- ال--- الحبيب : التأويل أسسه ومعانيه فى المذهب الإسماعيلى (القاضى النعمان) ، مركز الدراسات والأبحاث الاقتصادية والاجتماعية ، تونس .

Lvanow, W: *Ummu t - Kitab der Islam*, tome 23, 1936 .

: *A Guide to Ismaili Literature*, London, 1933 .

.... : *The Rise of the Fatimide*, Calcuta 1942 .

Ponawala Ismail: *Bibliography of Ismaili literature*, California, 1977.

مجلس نابلس
(٢٣ يناير ١١٢٠ م)
وأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية

د. / حسين محمد عطية
كلية الآداب – جامعة طنطا

في ٢٣ يناير ١١٢٠ م عقد فرنج مملكة بيت المقدس الصليبيـــة اجتماعـــا في مدينة نابلس برئاسة الملك بولدوين الثاني (١١١٨–١١٣٠م) وجـــيرموند بطريـــرك كنيسة بيت المقدس (١١١٨–١١٢٨م). وضم المجلس كل كبار رجال الدين والســادة العلمانيين بالمملكة. وعرف هذا الاجتماع بمجلس نابلس Council of Nablus [1] وبصفة عامة، فأن اجتماع هذا المجلس لم يشد-بدرجة كبيرة-حتى الآن، انتباه مؤرخي الحروب الصليبية الحديثين. ومن عرض له منهم، عالجه بشكل سريع وبالمصادفة خـلال معالجته لمؤسسات مملكة بيت المقدس الصليبية [٢]، الأمر الذي جعله يتـــواري، مـــن حيث الأهمية، دون أن يشعر به قارئ تاريخ هذه المملكة الناشئة. وهذا البحث، هـــو محاولة لإلقاء الضوء على طبيعة هذا المجلس، وأسباب انعقـــاده، وأهدافـــه، وطبيعـــة القرارات التي تضمنها المرسوم الذي أصدره المجتمعون فيه، ومدى توافقها مع ضـــرورة انعقاده، ومدى ارتباطها بأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية آنذاك، وأخيراً، موقـــف المؤرخين اللاتين تجاه هذا الحدث.

أما عن طبيعة هذا الاجتماع، فقد اعتبره وليم الصوري-الذى افـــرض لهـــذا المجلس فصلاً كاملاً من حوليته-"اجتماعاً شاملاً ومجلســـاً عامـــاً"-Co n ventum publicam et cu riam generalem [٣]. أما فى عنوان هذا الفصل، فقـــد جعلـــه وليم "مجلساً كنسياً" synodus [٤]. كما اعتبره كذلك الكاتب البندقى جربـــانوس Cerbanus، حيث أشار في رسالة له إلى أسقف كاستللر بونفاس فاليبه Bonifazio Falier، ألي مجلس كنسى Synodo Celebrata عقده بطريرك بيت المقدس وملـــك بيت المقدس [٥]. وكان عنوان الوثيقة الرسمية التي تضمنت قرارات المجلس، هو "مجلـــس نابلس" Concilum Neapolitanum الذي دعـــا ألي انعقاده كـــل مـــن الملـــك والبطريرك[٦]. واعتبره المؤرخ هانز ماير "برلماناً "p arlement لمشاركة العلمـــــانيين من ســـادة الممـــلكة الصليبية فيه[٧]. ولما كان المجلس الكنسي يعقـــد دائمـــا برئاسة البطريرك، وفى مقره الكنسي في بيت المقدس ولا يشارك فيه العلمانيون، ولمـــا كـــان بطـــارقة بيت المقدس يشاركون دائما في مجالس المملكة التي تنـــاقش أمـــوراً تخـــص المملكة بصفة عامة، فإنه مـــن الممكن اعتبار هذا الاجتماع مجلساً صليبيا عاديا مثـــل

كل المجالس الصليبية التي كان الملك يدعو لاجتماعها، ونقطة الاختلاف الوحيدة بين مجلس نابلس وهذه المجالس الأخرى هو أن الذي دعا إلية الملك والبطريرك معاً. وسنعرف بعد ذلك أن هذه الدعوة المشتركة ترتبط ارتباطا وثيقا بالهدف الحقيقي لانعقاد هذا المجلس.

وفى الحقيقة، فأن السباب التي دعت إلى انعقاد هذه المجلس كانت عديدة، والتعرض لها سيلقى الضوء على أحوال مملكة بيت المقدس الصليبية بخاصة، وأحوال الصليبيين في بلاد الشام بعامة. وقد ذكر وليم الصوري سببين لانعقاد هذا المجلس، وهما المحن الطبيعية التي أحاطت بالصليبيين لهجمات أسراب من الجراد والفئران لمدة أربع سنوات متتالية "أهلكت فيها المحاصيل بالكامل، حتى بدا وكأن العالم بأسره سيفتقر إلى الخبز... هذا بالإضافة ألي الهجمات التي شنها العدو كل يوم كل يوم تقريبا"[٨]. وكغيره من الفرنج، فقد أرجع وليم الصوري كل ما تمر به المملكة من محن ومشاكل إلى آثار الصليبيين، الذين وقع عليهم غضب الرب. وبذلك يكون الهدف من وراء عقد هذا المجلس-بالنسبة لوليم الصوري-هو إجراء الإصلاح المناسب لأعمال الفرنج الشريرة، ورفع مستوى الأخلاق بينهم، والمحافظة على النظام[٩]. إلا أن ما أورده رئيس أساقفة صور من أسباب وأهداف لم تكن هي كل الحقيقة. خاصة وأن ما لم يورده-ومن المؤكد أنه يعلمه-أو ربما ما لم يرغب في تسجيله، من أسباب وأهداف؛ قد ارتبط ارتباطاً وثيقاً، أكثر مما أورده، بطبيعة القرارات التي اتخذها مجلي نابلس. لذلك يجدر بنا أن نلقى الضوء على أحوال المملكة الصليبية والفرنج معاً لنحدد السباب والأهداف الحقيقية من وراء انعقاد مجلس نابلس.

فقد اعتلى بولدوين الثاني عرش مملكة بيت المقدس الصليبية، وبدأ يمارس سلطاته الملكية في ١٤ أبريل ١١١٨م، أي قبل انعقاد مجلس نابلس بحوالي عامين[١٠]. وبمجرد أن بدأ عهد الملك بولدوين، بدأت المشاكل تحيط به، وتزيد من أعبائه كحاكم للملكة الصليبية، كما أضافت إلينا أعباء جديدة، وهى حماية وتدبير أمور الإمارات الصليبية فى شمال الشام، وبالتحديد في إمارة إنطاكية الصليبية. فقد كانت الأحوال الاقتصادية لمملكة بيت المقدس الصليبية في تدن واضح، نظراً لما تعرضت له البلاد طيلة أربع سنوات من القحط الذي سببته هجمات الجراد والفئران التي أشار إليها بالتفصيل وبانزعاج شديد القس الخاص بالملك

بولدوين، المؤرخ فولشر الشارترى[١١]. هذا ألي جانب ما سببته الزلازل التي ضربت أملاك الصليبيين في نواحي إنطاكية، وطرابلس، والمملكة الصليبية نفسها، من خسائر، في أعوام ١١١٤م و ١١١٥م و ١١١٧م، وخاصة في العام الخير الذي اجتمعت على الفرنج خلاله أهوال الزلازل وهجمات الجراد والفئران [١٢]. وبدأ النشاط الزراعي في المملكة في التدهور على عكس ما كان في السابق، من وفرة المحاصيل الزراعية والفاكهة، وانتعاش للحياة الزراعية فيها، الأمر الذي اندهش له كل من الرحالة الروسي دانيال الراهب في عام ١١٠٦-١١٠٧م، والمؤرخ إيكهارد في علم ١١١٥م[١٣].

هذا الى جانب ما تعرض له الصليبيون بصفة عامة من ضغط إسلامي عرضهم لحظر بالغ. ففي الجنوب، علم بولدوين بأنباء قيام تحالف وشيك بين دمشق والقاهرة، ولما كان الصليبيون قد اعتمدوا منذ بداية دخولهم ألي ديار الإسلام، على انشقاق الصف الإسلامي الذي مكنهم من إقامة ركائزهم في المنطقة بسهولة [١٤]، فأن تركيز للجهد الإسلامي كان يشكل خطراً كبيراً عليهم. وهذا ما دفع جوسلين كورتيناى أمير الجليل السابق الى البقاء في فلسطين لمعاونة الملك بولدوين الثانى دون التوجه الى إمارته الجديدة الرها، التى تقرر أن يحل فيها محل الملك بولدوين أميرها السابق[١٥]، واضطرا معا إلى مواجهة طغتكين أتابك دمشق الذي طالبهم برد كل ما يقع وراء نهر الأردن من الأراضي، بعد أن وثق من نيل المساعدة من مصر[١٦]. وحشد بولدوين القوات من المملكة ومن إنطاكية وطرابلس، بالإضافة إلى قوات جوسلين، واستعد بالقرب من أسدود لمواجهة قوات دمشق، فى الوقت الذي احتشد جيش مصري على الحدود الجنوبية للمملكة الصليبية[١٧]. وإذا كان الأمر قد انتهى دون قتال بين الطرفين، بعد ثلاثة أشهر من المواجهة السلبية، فقد قام بولدوين وجوسلين معاً، بعد فترة قصيرة، بالتصدى لقوات دمشق، وأغارا على إقليم حوران، وأوقعا الهزيمة ببورى إبن طغتكين [١٨]. وكان على بولدوين أن يسارع بعد ذلك إلى إقليم شرق الأردن لنجدة جوسلين الذي حوصر في كمين أعده له البدو بالقرب من نهر اليوموك[١٩]. ولم يسترح بولدوين في إقليم طبرية بعد نجدته لجوسلين إلا وجاءته الرسل من إنطاكية يطلبون منه الإسراع لنجدتها من براثن غيلغازى الأرتقى وحلفائه [٢٠]. وكان على الملك الصليبي أن ينهض بمهام كثيرة، فقد انهزم روجر الأنطاكى أمير إنطاكية، وقتل مع كل فرسانه، وأبيد جيشه في موقعة ساحة الدم Ager Sanguinis في ٢٨ يونيو ١١١٩م / ١٦ ربيع الأول ٥١٣ هـ بعد أن تخلى عن حذره و لم ينتظر قدوم بولدوين لمساعدته ضد خطر الاراتقة، وينظم أمورها، ثم يدخل في معركة ضد

إيلغازي وحليفة طغتكين أتابك دمشق عند قرية هـــاب في ١٤ أغسـطس ١١١٩م، واضطر الى البقاء في شمال الشام حتى ديسمبر ١١١٩م [٤٢٢].

وإذا كانت كارثة إنطاكية ق وحدت بين إمارات الفرنج، وأملت عليـهم أن يركزو جهودهم ويوحدوا صفوفهم أمام خطر المسلمين؛ فألها قد ألقت على كـاهل ملك بيت المقدس عبء الدفاع عن كل الركائز الصليبية في بـلاد الشـام، وأعـالي الفرات. هذا الى جانب عبء إصلاح أحوال مملكته والدفاع عنها. ضد نفس الخطـر أيضاً [٢٣].

وكان على بولدوين أن يستعد لمواجهة خطـر المسـلمي بعـدة إجـراءات ضرورية. فبعد أن منح طائفتي الفرسان الرهبان الناشئتين من الإستبارية والداوية كثـيرا من الامتيازات، ليمدا الكيان الصليبي بجيش منظم وثابت يتألف من مقاتلين مدربـين لتعويض النقص الدائم في الموارد البشرية التي يحتاجها [٢٤]، بعد ذلـك، كـان علـى بولدوين أن يعالج مشكلة أخرى لا تقل خطرا على الفرنـج مـن خطـر المسـلمين والكوارث الطبيعية، التدين الأخلاقي لفرنج المملكة الصليبية. فبالرغم مـن أن حيـاة الفرنج في الشرق كانت محفوفة بالخطر الإسلامي في كل وقت؛ إلا أن الخوف والقلـق في حياقم لم ينفصلا كثيرا عن حياة المرح والبذخ والخيانة، كما أن القلـق شـجعهم على الانغماس في اللهو والمباذل [٢٥]. وقد لاحظ المؤرخ اللاتيـني المعـاصر فولشـر الشارترى مدى حرص الفرنج على الحياة اكثر من الموت في سبيل الدفاع عن الكيـان الصليبي. وكان هذا من العوامل التي دفعت بولدوين إلى عدم مبادئه طغتكين بالقتـال عند أسدود، لينتهي الأمر بانسحاب كل من الطرفين دون مواجهة الآخر [٢٦]. وربمـا لاحظ بولدوين تراخي قواته في القتال، الأمر الذي لاحظه أيضاً المسلمون وجزع منـه المؤرخ فولشر الذي أيقن الروح العسكرية لدى الفرنج وعـدم التزامـهم سـيمكن المسلمين من قهرهم حين أورد لنا على لسان أحد المقاتلين المسلمين فحوى كل ذلـك حين وجه المسلم كلامه إلى جندي صليبي كان في مواجهته في موقعة هاب قائلا لـه "أقول لك أيها الفرنجي، أأحمق أنت فتجهد نفسك عبثا؟ فليس لكم بالفوز علينا قـط، إذ أنكم قله ونحن كثرة. والحق أن إلهكم قد تخلى عنكم لعلمـه بـأنكم لا تقيمـون شرائعه كما حق عليكم، ولا تحفظون الأيمان والصدق فيما بينكـم ولاريـب أننـا سنقهركم في الغد ونهزمكم". ويرى فولشر بأن علاج ذلـك لا يتـأتى إلا إذا أقـوم الفرنج أخطاءهم [٢٧]. ونفذ بولدوين ذلك . فلكي يضمن إخلاص أتباعه من نبـلاء الفرنج وجنودهم، والتزامهم بالعلاقة الإقطاعية بينهم وبينه كملك لهم، بما يكون قـد اصدر أول مجموعة قوانينه tablissement التي تسمح له بمصادرة إقطاع تابعة إذا ما

ارتكب أى من المخالفات التي وردت في مجموعة القوانين هذه دون محاكمة[٢٨]. وإذا كان هذا التشريع يضمن للملك ولاء أتباعه من الفرنج والتزامهم بتلبية داعي الحرب بصفة خاصة، فإن أهم إجراءات بولدوين قد جاء في صورة غالبية القرارات التي أصدرها مجلس نابلس، والتي تعالج التدني الأخلاقي لفرنج المملكة بصفة عامة، وليس النبلاء منهم فقط.

وقد بدأت فعاليات اجتماع الفرنج في مجلس نابلس بعظة دينية ألقاها البطريرك جيرموند لإعلان الجميع الندم والتوبة عن ارتكاب المعاصي والذنوب، وطلب الصفح من الرب الذي صب عليهم جام غضبه[٢٩]. وكان الجو العام الذي طغى على اجتماع مجلس نابلس قد اتسم بمسحة من الندم. ويتضح ذلك من الثلاثة قرارات الأولى من مجموع الخمسة وعشرين قرارا التي تضمنها المرسوم الذي أصدره المجلس. وحقيقة الأمر أن هذه القرارات الثلاثة الأولى لم تكن لمجرد التكفير عن الخطايا بل إنها تشارك بقية القرارات من حيث إلقاء الضوء على أحوال المملكة الصليبية فى بداية عهد بولدوين الثاني، وتنفرد عن بقية القرارات في أنها تحدد طبيعة العلاقات بين الدولة والكنيسة، وبتعبير أدق بين الملك بولدوين الثاني وبطريرك كنيسة بيت المقدس، وتوضح بجلاء الظروف التي دفعت الملك الصليبي الى إصدار هذه القرارات الثلاثة.

ففي القرار الأول "يرد" بولدوين إلى البطريرك عشر دخل الملك من كل مدن بيت المقدس، و نابلس، وعكا، حيث لم يكن قد تم تنصيب أساقفة في المدينتين الأخيرتين. وإذا تم انشاء أسقفيات في هاتين المدينتين، فعلى البطريرك أن يقرر لها العشور الكنسية المقررة على دخل كل منهم، والتى تقرر ردها الى الكنيسة، حسب احتياجات البرشيات الواقعة في إقطاعاتهم[٣١]. وفى القرار الثالث، قرر البطريرك جيرموند أن يتسلم هذه العشور المستحقة له ولأساقفته، الحاضرين أو الغائبين عن الاجتماع، حسب احتياجات أبرشية كل منهم[٣٢]. وبالرجوع الى تفاصيل هذه القرارات الثلاثة، نجد أن الملك-في القرار الأول-"يرد" العشور الى الكنيسة ونجده في القرار الثاني-يعترف وباروناته بأنهم يسعون الى التفكير عن خطيئة الغطرسة superbia التى ارتكبوها فى حق رجال الدين عندما حبسوا تلك العشور عن الكنيسة. ولذلك فالملك واتباعه يطلبون الصفح. وفى القرار الثالث نجد البطريرك وقد غفر لهم ذلك التصرف، وأحلهم من الالتزام بتأدية هذه العشور عن الفترة السابقة لانعقاد مجلس نابلس.

وفى الحقيقة لم يكن الندم أعلنه الملك بولدوين أو الاعتراف بالذنب في حق الكنيسة ورجال الدين لمجرد دافع من التقوى والورع،

أو التوبة والتكفير عن الذنوب، وإنما بدافع مختلف تمام، وهو التنازل عن سلطات لطالما مارسها سابقوه ولاحقوه من ملوك بيت المقدس في أمور تخص الكنيسة. فمن المعروف أن الملك بولدوين الأول كانت له السيطرة على الدخل الكنسي، و لم يتنازل عن ذلك أبدا[٣٣]. وبمقارنه فحوى القرارات الثلاثة الأولى فيما يخص العشور التي ردها الملك إلى الكنيسة بما كان يحدث قبل انعقاد مؤتمر نابلس يمكن التثبت من محاولة بولدوين الثاني شراء رضى الكنيسة في شخص البطريرك. فلم يكن هناك فرق بين الشعور التي ردها الملك، في القرار الأول، وبين تلك التى تقرر أن يردها باروناته، إلى الأبرشيات التي تقع في نطاق إقطاعاتهم-في القرار الثاني-،لأن القرار الثالث يوضح أن البطريرك والأساقفة هم الذين يتسلمون العشور لأنفسهم على أن تصرف حسب احتياجات أبرشياتهم. ولما لم يكن هناك-حتى عام ١١٢٠م-نظام محدد للأبرشيات التي تقع في المناطق الريفية، حيث ندر التنظيم الكنسي اللاتيني في الريف بسبب عادة استيطان اللاتين الذين تركزوا في المدن، حتى أن السيد الإقطاعي اللاتيني لم يكن يقطن الريف، وإذا ما استقر الفرنجة في الريف، فأنهم كانوا يعيشون في قرى مغلقة لا يخالطون فيها نصارى الشام ولا مسلمة . وبذلك لم تتوفر الحاجة الى كنيسة الا في مواضع قليلة من الريف[٣٤]. وكانت الأسقفية تطابق الأبرشية؛ لذلك فأن العشر كان يخص الأسقف، على أن يضمن دخلا لكل أبرشيه تنشأ في أي مكان يتبع الأسقفية.

ولكن اختلف الأمر بين العشور التى ردها الملك والعشور التى ردها البارونات من حيث النطاق الحدودي الذى يتصرف فيه البطريرك في أموال العشور التي يدفعها الملك، والنطاق الذي يتصرف فيه السقف في تلك الأموال. فبناء على ما جاء في القرار الأول فإن الملك قد رد العشور عن دخله من مدن بيت المقدس و نابلس وعكا الى البطريرك حسب ما تقتضيه احتياجات اسقفيته sicut ratio diocesis exigit[٣٥]. ومعنى ذلك أن البطريرك لم يكن ليستطع أن ينفق هذا الدخل ارج نطاق المنطقة التى تقع تحت نفوذه فعليا أى مقر كرسيه الكنسي. ولما كانت مدن بيت المقدس و نابلس وعكا هي مراكز الدومين الملكي، ولما كان الدومين الملكي يتطابق في حدوده مع أسقفيه البطريرك فإن البطريرك ليس له الحق في التصرف في أموال العشور خارج نطاق هذه الحدود. وهى الحدود التابعة لكنيسة بيت المقدس فقط. ولكن القرار نص على أنه أذا نصب أساقفة في نابلس أو عكا فكان البطريرك-كما نص القرار بوضوح-مجبرا على أن يدع الأساقفة الجدد يحصلون على ذلك الجزء من العشر المفروض على دخل الملك عن نابلس وعكا. أى أن البطريرك حق التصرف في مال

العشور خارج نطاق كنيسته في بيت المقدس. أما البارونات، فإذا كانوا قد تنازلوا عن حق التحكم في العشور الكنيسة، فأنهم قد حافظوا على واحدة من مصالحهم الرئيسية. فحدود الأسقفيات لم تكن في الغالب تتطابق مع حدود إقطاعات البارونات. كما أن أملاكهم انتشرت خارج مقار بارونياتهم لذلك رد البارونات أموال العشور إلى رجال الدين ليتصرفوا فيها حسب احتياجات أبرشية كل منهم Prout parochiarum suarum ratio exigit[٣٦]. أي أن رجل الدين لا يستطيع أن يصرف هذه الأموال خارج نطاق مقر أبرشيته حتى ولو كان سينفقها في موقع يتبع أبرشيته كنسيا، لكنه لا يدخل في نطاق المدينة التي تقع فيها أبرشيته. وبذلك يكون الملك قد تغاضى عن حق لم يتغاض عنه باروناته. وكذلك أقر مجلس نابلس مبدءا جديدا لم يكن معمولا به من قبل، ويدل على حجم التنازلات التي وافق عليها بولدوين الثاني إرضاءا للبطريرك. ففي القرار الثاني للمجلس جاء أن ملاك الأراضي من البارونات-وليس مستأجريها أو المنتفعين بها أو الذين يعملون فيها كأتباع للبارون-هم الذين يؤدون ضريبة العشر للكنيسة. ولكن الكنيسة بفرض العشر على السادة من الفرنج، تكون قد وصلت الى جمع المسيحيين من غير اللاتين والمسلمين، بحجم عشر ما يدفعونه لصاحب الإقطاع من اللاتين. وكان فرض العشر على اللاتين فقط من شأنه أن يمنح الكنيسة حصيلة أقل. لأن غالبية سكان الريف كانوا من المسيحيين الشرقيين والمسلمين. وبعد أن كانت الكنيسة-قبل عهد بولدوين الثاني-تجبى العشر من فلاحى الأرض التي تملكها فقط، أصبحت تجبيه بطريق غير مباشر من أقرانهم الخاضعين للسادة من اللاتين[٣٧].

وإذا قارنا بذلك ما كان يحدث في عهد بولدوين الأول ندرك حجم التنازل الذي اقر به بولدوين الثاني للكنيسة في حقوق لم تنازل عنها سلفه أبدا. ففي الحقيقة لم يكن ملك بيت المقدس ليتدخل في تصرفات البطريرك في أية أمور كنسية، إلا إذا تعلق الأمر فقط بالدخل الكنسي، فهنا كان يتوجب على البطريرك أن يحصل على موافقة الملك حين التصرف فى هذا الدخل. فعندما اراد البطريرك إبريمار Ebremar (١١٠٢-١١٠٨م) أن يحدد رواتب لكهنة القبر المقدس في عام ١١٠٢م، فقد حصل أولا على موافقة الملك بولدوين الأول، بل انه وثق المرسوم الذى أصدره بشأن ذلك بخاتم الملك[٣٨]. وعندما أراد البطريرك أرنولف (١١١٢-١١١٨م) أن

يخص في عام ١١١٢م جزءا من العشور التي يؤديها له بعض ملاك الأرض من اللاتين لإعادة بناء كنيسة جوسفات Josphat التي تقع خارج نطاق مدينة بيت المقدس من جهة الشرق ، وعندما منح نفس البطريرك في عام ١١١٤م عشور بيت المقدس الى كهنة القبر المقدس، في الحالتين، كان ذلك بمشاورة الملك consilio regis، وبعد أن قدم الى الملك التماسا بذلك، وأمره الملك بتنفيذ ذلك. وحتى عهد بولدوين لم يكن من حق رجل الدين أن يتصرف في أموال العشر إلا في حدود إقليم كنيسته فقط، فقد فرض أسقف بيت لحم ضريبة العشر على كونت عسقلان في عام ١١٦٠م في عهد الملك بولدوين الثالث (١١٤٣-١١٦٣م) ولكن لم يسمح للأسقف أن ينفق عائد هذه الضريبة في مدينة الخليل التي كانت أيضا تتبع أسقفية بيت لحم لكنها تقع خارج حدود كونتية عسقلان (٤٠).

ومن المعروف أن الكنيسة في البداية قد واجهت متاعب كثيرة لتحمل البارونات اللاتين على الاعتراف بمبدأ العشر الكنسي (٤١). فقد قام تنكريد أمير الجليل (١٠٩٩-١١٠١م) باستغلال كل أملاك دير جبل طابور (٤٢) لأغراض خاصة. ولم يرد تنكريد هذه الأملاك للدير إلا برحيله إلى إنطاكية في عام ١١٠١م (٤٣). وتم الاتفاق على أن يتسلم الدير إحدى عشرة قرة في إقليم الجليل، وأربعة أخرى تقع شرقي نهر الأردن ولم يكن-بالطبع-من السهل أن يترك تنكريد هذه القرى للكنيسة إلا لأن قرى الجليل كانت خربة تماما، بينما كانت قرى شرقي الأردن لا تزال بأيدى المسلمين. واحتفظ تنكريد بأربعة قرى أخرى لم يسلمها للدير، وبقيت في ايدى فرسانه، لندرة الاراضى ولحاجة فرسانه إليها. ولم يحصل الدير من هذه القرى الأربعة إلا على العشر من دخلها فقط، وكان ذلك قد تم بموافقة الملك بولدوين الأول الذى لم يؤكد هذه الاتفاقية إلا في عام ١١٠٦م (٤٤).

وهكذا، إذا كان الملك بولدوين الأول وغيره من ملوك بيت المقدس قد فرضوا سيطرتهم على دخل الكنيسة، وكذلك فعل أتباعهم من السادة اللاتين، فلم إذن تنازل الملك بولدوين الثاني عن ذلك؟. والإجابة على هذا التساؤل تقتضي تفحص الظروف التي أحاطت باعتلاء بولدوين الثاني عرش المملكة الصليبية.

فقد مات الملك بولدوين الأول دون أن يحدد من يخلفه في حكم المملكة وانعقد مجلس المملكة، وتقرر أن يبعث الفرنج الى يوستاش الثالث Eustace كونت بولونيا، وهو الأخ الثالث لكل من جودفرى وبولدوين الأول، ليحضر الى الشرق ويتولى أمر المملكة الصليبية. إلا أن يوستاش قد علم وهو في ابوليا بإيطاليا، باعتلاء بولدوين دى بورج عرش المملكة، فعاد

يوستاش الى بولونيا، و لم يشـأ أن يواصل رحلتـه الى بـلاد الشـام ليقـاتل في سبيـل إرث بعيد. وفى الحقيقة، فقد تم اختيار الملك بولدوين الثـاني ملكـا بعـد مناورة قام بها جولسين كورتيناى أمير الجليل، أقوى أعضـاء المجلـس نفـوذا، وأيده في ذلك البطـريرك أرنولف، واستـطاع الاثنان إقنـاع الـمجلس باختيـار بـولدوين الـذي حضـر جنازة الملك الميـت في يـوم الأحـد ٧ أبريل من عـام ١١١٨م(٤٥). وفى يوم الأحد التالي ٧ أبريل ١١١٨م، قام البطريرك أرنولف بإعلانـه ملكا على مملكة بيت المقدس الصليبية(٤٦). وإن كان البطريرك جيرموند قد توجه رسميا في ٢٥ ديسمبر من عام ١١١٩م(٤٧).

وبالنسبة لوليم الصوري، الذى روى تفاصيل غالبية هذه الاحـداث، فـأن الطريقة التي اعتلى بها بولدوين العرش تعتبر غير شرعية، ويرى أن جولسين قد ابرم مـع بولدوين صفقة ناجحة، فقد أيده في الحصول على تاج المملكة، في نظير أن يترك لـه بولدوين كونتية الرها(٤٨). وإذا كان جولسين قد حصل على المقابل، فلماذا لا يكـون البطريرك أرنولف قد سعى ألي المقابل يخصه هو، أى أن يمنح بولدوين الكنيسة مطلـق الحرية في التصرف في دخلها، أو على الاقل في الجزء الاكبر منه، وهو أموال العشـور الكنيسة، وبذلك تنتهي سيطرة ملوك بيت المقدس على هذه الأموال. وقـد واتـت الفرصة البطريرك، وكان علية أن يستغلها. ففي عهد بولدوين الأول كـان ارنولـف اضعف الاثنين. و لم يشأ أن يختلف مع الملك الذي طالما تدخل في كل ما يخص دخـل الكنيسة، والذي كثيرا ما اخضع لسطوته كل بطارقة بيت المقدس السـابقين. وقـد واجهت أرنولف في عهد بولدوين متاعب كثيرة استمرت حتى عـام ١١١٦م حـتى يثبت نفسه في كرسي البطريركية (٤٩). وكانت هناك أسباب كثيرة للـهجوم عليـة. وكانت أهم الاتهامات التي وجهت إليه هي الوقيعة التي حاكها بين بولدويـن الأول والبطريرك دايمبرت البيزى، كما تصرف أملاك الكنيسة على هواه، فقد زوج إبنة أخته إما Emma من يوستاش جارنييه Garnier Eustace ومنح الأخير مدينة أريحا مهرا، على الرغم من أن المدينة كانت من أملاك كنيسة بيت المقدس؛ إلي جانب دخل المدينة الذي قدره وليم الصوري بخمسة آلاف قطعة ذهبية. كما أتهم أرنولف بإقناع الملـك بولدوين الأول بالزواج من امرأة أخرى بينما كانت زوجته على قيد الحياة. كما كـان سجله الوظيفي في بطريركية بيت المقدس غير مشرف، فقـد عين بطـريركا لأول مـرة في عام ١٠٩٩م وعـزل من منصبة بعـد عـدة أشهـر، ثم عـين مـرة أخـرى في عام ١١١٢م، وتم عـزله في عام ١١١٥م، ولكنـه عـاد ألي منصبـه بتوصيـة من البابويـة، وبقـى بطريركا حـتى مـات في عام ١١١٨م. وكـان

توليه المنصب غما بمؤامرة يحيكها ضد البطريرك المعين، أو بتملقة للبابوية. هذا الى جانب سلوكه الشائن مع النساء(٥٠). ولما كان تحكم السلطة العلمانية في العشور الكنيسة أمرا بغيضا بالنسبة لأرنولف، وهو الذي يريد أن يطمس سجله الحافل بالنقائص، الذي يضعف من موقفة أمام ملك بيت المقدس، فقد أراد يظهر بمظهر مصلح كنيسة قوية، بان ينهى تحكم الملوك في أموال الكنيسة، وقد واتته الفرصة في عهد بولدوين الثاني الذي رأى، وموقف أرنولف أقوى من موقفة، أن تحكم الملكية في دخل الكنيسة أمر لا يتفق والظروف الراهنة. من هنا، ومن موقف كل من الرجلين، الملك بزلدوين الثانى، والبطريرك ارنولف، كان الجو مهيئا لعقد صفقة مفيدة لكيهما، وتم عقدها بالفعل. وقد مات أرنولف في ٢٨ أبريل ١١١٨م(٥١) أي بعد أسبوعين من اعتلاء بولدوين الثانى عرش المملكة، واعتلى البطريرك جيرموند كرسي البطريركية، وربما تمت مناقشة أتمام الصفقة وتنفيذها معه. إلا أن الملك أضطر للذهاب الى شمال الشام لنجدة إمارة إنطاكية بعد موقعة ساحة الدم، وعاد الى بيت المقدس في ديسمبر ١١١٩م، حيث تم تتويجه رسميا كملك على يد البطريرك جيرموند وذلك في ٢٥ ديسمبر ١١١٩م. وفى الشهر التالى وبالتحديد في ٢٣ يناير ١١٢٠م قام الملك بدفع المقابل الخاص به فى هذه الصفقة عندما دعا بمشاركة البطريرك الاجتماع بمجلس نابلس. وبعد أن ألقى البطريرك بعظته، رد الملك بخشوع تام، وفى إعلان صريح عن توبته، العشور للكنيسة معترفا بخطيئة التحكم في هذه العشور. لذلك كله لم يكن تدين بولدوين الثاني، ولا كثرة صلواته التي أدت إلي تصلب ركبتيه-كما يصفه وليم الصوري-هما اللذان دفعاه الى التنازل عن سلطات مارسها بولدوين الأول، وإنما للحصول على رضى الكنيسة والتصالح معها في وقت كان نفس الأمر على وشك أن يتم بين البابوية والإمبراطورية، الأمر ما الذي أبهج المؤرخ المعاصر فولشر الشارترى (٥٢).

وإذا انتقلنا إلى بقية القرارات التي تضمنها مرسوم بمجلس نابلس نجد انها في مجملها تعالج التدنى الأخلاقي الذي تفشى بين الصليبيين في المملكة، الأمر الذي لا يتناسب وحجم المخاطر التي تحيط بها وبسائر الإمارات الصليبية في بلاد الشام. وكانت هذه القرارات لإصلاح أحوال المملكة التى كان عليها أن تنهض بمهمة حماية الكيان الصليبي ككل إلى جانب مهمة التوسع على حساب المسلمين في بلاد الشام. ولينجح الصليبيون في كل ذلك كان لابد من الارتقاء بالمستوى الأخلاقي-وبشكل ثابت-للفرنج. و لم يكن هذا يتأبى إلا بإصدار قانون يتخذ صفة رسمية ليلتزم به الجميع. وليس كما كان يحدث من قبل من مجرد دعوة يوجهها رجال الدين والقادة الى

أتباعهم من الفرنج بالتحلي بالأخلاق السوية فيما بينهم ليؤيدهم الرب فى قضيتهم، وسرعان ما ينسون فحواها بعد انتهاء كل أزمة تحيط بهم.

فمن المعروف أن الحملة الصليبية الأولى-منذ البداية-وعلى الأقل بالنسبة لمفهوم من شاركوا فيها- أنها رحلة حج إلى الأراضي المقدسة، وعمل تكفيري تغفر في مقابلة كل الذنوب(٥٣)، وأن الحرب ضد المسلمين هي حرب مقدسة(٥٤). واعتقد الصليبيون أن مجرد المشاركة في الجهد الصليبي من شأنه أن يغفر لهم كل شئ. فانغمسوا في كثير من الانحرافات(٥٥).وكان الجزء الأساسي من هذه الانحرافات، التي جبلوا عليها، يتضمن الخطايا الجنسية كارتكاب فاحشة الزنا أو اللواط، الى جانب السرقة (٥٦). واعتاد المؤرخون اللاتين ورجال الدين المشاركون في الحملة على إرجاع كل كارثة حربية أو طبيعية تحيط بهم إلى غلو الفرنج في ارتكاب المعاصي. فيرجع فولشر الشارترى سبب وقوع الفرنج في كمين السلاجقة عند دوريليوم الى خلاعة الفرنج(٥٧). وعند وصول الفرنج الى إنطاكية عربدوا في شهوة عارمة، ونسوا معنى العفة وارتكبوا خطيئة الزنا، وانتشرت الدعارة بينهم(٥٨). فيخبرنا جيبرنا دى نوجنت بقصة الراهب الذى ضبط يضاجع راهبة في المعسكر الصليبي(٥٩). كما يخبرنا ألبرت دكس بقصة رئيس الشمامسة الذى وقع في أيدي السلاجقة خارج إنطاكية وهو يمارس الزنا مع عشيقته الفرنجية (٦٠). ولما غضب الرب على الفرنج، اشتدت بهم المجاعة، ولما اصلحوا من سلوكهم كافأهم الرب بالاستيلاء على إنطاكية. ولما دخلوا المدينة نسوا الرب وعادوا إلى فواحشهم، فحاصرهم كربوغا (٦١). وبعودتهم مرة أخرى إلى السلوك القويم كافأهم الرب مرة أخرى بالأنتصار على كربوغا(٦٢). واستمر هذا التناقض الأخلاقي بين الفرنج حتى استقرارهم في الشرق، وأصبح في مفهومهم أنهم يحرزون النصر في المعارك ضد المسلمين في الحياة الدنيا، ويضمنون الخلاص في الآخرة طالما تجنبوا الزلات الجنسية(٦٣) .

من هنا تضمن مرسوم مجلس نابلس بعض القرارات التي تحد من انغماس الفرنج في الرذيلة واعتداء بعضهم على شرف بعض. فالقرار الرابع يقضي بأنه إذا تخوف شخص من سوء سلوك زوجته فعليه أن يواجهه الشخص المشكوك في أنه على علاقة بها، ويحرم دخول مترله والحديث مع زوجته، وأن يكون ذلك بحضور شهود. وإذا ما اكتشف الزوج أو أحد أصدقائه أن الزوجة وعشيقها يلتقيان في مترل الزوج أو في مترل أخر، يساق الرجل الى الكنيسة التى تقوم بالتفريق بين الطرفين. فاذا ما طهر الرجل الآثم نفسه بالحديد المحمى يطلق سراحة بلا جناح عليه. وإذا ما عزز الزوج

موقفة واكتشف-رغم ذلك-أمرا مشينا في الحديث مع زوجته، يكون لـــه الحـــق في الانفصال عنها مقابل انتهاكا للمحاذير[٦٤].

ويقضـــي القـــرار الخـــامس بأنه إذا ضاجـــع فرنجـــي زوجـــــة فرنجـــي آخـــر، واعتـــرف بـــذلك، فانه ينفى خـــارج البلاد بأمـــر قضـــائي، وتقتـــــل الزانيـــة، إلا إذا صفـــح عنهـــا زوجهـــا، فيكـــون لـــزاما عليهمـــــا (الـــزوج والـــزوجـــة) مغـــادرة البـــلاد إلـــى غـــــرب أوروبـــــا[٦٥]. ونلاحـــــظ أن مســـألة صفـــح الـــزوج عـــن زوجتـــه أو حـــتى التغاضي عن المر كله كانت أمرا معتادا يحدث بين الفرنج حتى بعد صدور قرارات مجلس نابلس. فقد فسرنا أسامة ابـــن منقذ، أكثر المؤرخين المسلمين اقترابا من طبائع الفرنج، هذه الظاهرة حين يرجع سبب تكرار حدوثها إلى افتقار الفرنج إلى الغيرة علي العرض، المر الذي جبلوا عليه، ويعطينـا مثلا لذلك براويته عن الفرنجى الذي عاد إلى مترله ليجد زوجته في فراشة مع فرنجـــي آخر يمارسان الفاحشة، فلم يتعد رد فعل الزوج من هذا كله سوى ا،ه استفسر مـــن الرجل عن سبب دخوله إلى مترله حتى وصوله إلى فراشة، ولامه على مضاجعة الأخـــير لزوجته، وأنذره بأنه لو كرر ذلك الأمر فسيخاصمه "فكـــان هـــذا نكـــيره ومبلـــغ غيرته"[٦٦].

أما القرار السادس فيقضي بأنه إذا راودت الشكوك فرنجيا حـــول ارتكـــاب رجل دين من الفرنج الفاحشة مع زوجته، فعلى الزوج أن يمنع رجل الدين من الـــتردد على مترله أو الحديث مع زوجته. وإذا ما اكتشف الزوج أنهما لا يـــزالان يلتقيـــان، وضبطهما بعد ذلك يرتكبان الفاحشة أو متحاورين، فليعرض الآمر في الناهية علـــى عدالة الكنيسة، وإذا لم تنصفه، يعرض الأمر لاحقا على محكمة علمانية[٦٧]. ونلاحظ هنا أيضا أن رجال الدين اللاتين لم يكونوا بمنأى عن ارتكاب المعاصي. فإلى جـــانب الدين حكى لنا عنهم مؤرخو الحملة الصليبية الأولى، فان من التهم التي التصقت بكـــل من البطريرك أرنولف والبطريرك هرقل (١١٨٠-١١٩١م) كانت علاقتـــهما غـــير شرعية بالنساء[٦٨].

ومن القرار السابع نعرف أن المجتمع الفرنجى لم يخل من القوادين من الرجـــال والنساء الذين يسهلون أمر قيام علاقات غير شرعية بين الرجال والنساء من اللاتـــين. وكانوا يديرون بيوت الدعارة التي انتشرت في المدن الصليبيـــة وخاصـــة في مدينـــة عكا[٦٩]. فيقضى القرار السابع بأن يخضع للمحاكمة كل قواد (أو قوادة) يقوم بـإغواء زوجة أحد الأشخاص وجعلها تمارس خطيئة الزنا. وتحاكم كذلك الزانية[٧٠]. وبالطبع تكون العقوبة هي نفس العقوبة التي أقرها القرار الخامس[٧١].

والى جانب ارتكاب الفاحشة مع زوجات الآخرين، والاعتداء على حرمة بيت رجل آخر، واجه مجلس نابلس مشكلة الشذوذ الجنسي بين الصليبيين. فقد جاء الصليبيون الى الشرق وقد جبلوا على ارتكاب خطيئة اللواط. فيخبرنا جيبرت دى نوجنت بأن بعض صليبى الحملة الأولى فضل ممارسة اللواط مع الصبية البيزنطيين الذين وجدوهم فى المواخير البيزنطية، على ممارسة الزنا مع النساء البيزنطيات(٧٢). و لم يتخل الفرنج عن هذه العادة بعد استقرارهم في بلاد الشام.

فنجد القرارات من الثامن إلى الحادي عشر تعالج هذه المشكلة. فقد قضى القرار الثامن أنه إذا ما اعترف فرنجى بالغ بأنه مارس رذيلة اللواط بكامل إرادته يحرق مع نفذ فيه فعل اللواط(٧٣). ونلاحظ هنا من نص القرار أن الشخصين كانا-معا- مريضين بالشذوذ الجنسي، لذلك كان الإتيان بفعل اللواط بإرادة كل منهما. فكان العقاب صارما.

وكذلك يكون العقاب صارما بالحرق لمن يمارس هذه الخطيئة عنوة مع شخص آخر غير مريض جنسيا. فيقضى القرار التاسع بأن يحرق اللوطي الذي يمارس اللواط عنوة مع طفل قاصر أو أي شخص متقدم في السن خاصة إذا ما أطلق المعتدى عليه صيحات الاستغاثة. أما إذا ارتكب اللوطي هذه الرذيلة بغير إرادته فإنه يخضع للمحاكمة دون أن يفقد حقوقه القانونية (٧٤). أي أنه ينظر في أمره لبحث الدوافع الخارجة عن إرادته والتي جعلته يأتي بذلك الفعل التماسا لأي عذري له حتى تخفف عقوبة الحرق. وإذا تقتنع المحكمة بهذه الدوافع فيحاكم كغيرة من اللوطيين.

أما القرار العاشر فأنه يقضى بأن يحاكم محاكمة اللوطي من يقترف خطيئة اللواط عنوة ويخفى الأمر ثم يعود إلى ممارسته ويعترف به (٧٥).وهنا لم يشفع اعتراف المذنب لأنه ارتكب جرمة عنوة.

بينما يقضى القرار الحادي عشر بأنه إذا تم إعلان اللوطي بالخضوع أمام المحكمة لارتكاب خطيئة اللواط، يؤتى به إلى الكنيسة ليحاكم حسب الأحكام الكنيسة. وإذا ما عاود هذا الشخص ارتكاب هذا الجرم فإنه يحاكم للمرة الثانية، ولكنه يبعد عن مملكة بيت المقدس(٧٦). وطالما كان الحرق هو عقوبة اللوطي الذي يرتكب جريمته بإرادة من يمارس معه الرذيلة أو عنوة، فإن تكرار القيام بهذه الجريمة وتكرار محاكمته كما يقضى القرار الحادي عشر يدل على عقوبة الحرق لم تكن تعني الحرق حتى الموت. وربما كانت تقتصر على وصمة بالحديد المحمى كما كان يحدث من قبل. هذا عن الجرائم الزنا واللواط التي انتشرت في المجتمع الصليبي في مملكة بيت المقدس.

ولما كان الصليبيون مضطرين إلى تغير سياستهم تجاه المسلمين من سكان المدن الشامية التي استولوا عليها أثناء فترة غزوهم لبلاد الشام، والتي بدأت بسفك دماء مسلمي هذه المدن كما حدث عن استيلائهم على مدن إنطاكية والبارة ومعرة النعمان (١٠٩٨م/٤٩٢هـ) وجبيل (١١٠٤م/٤٩٩هـ) وبيروت (١١١٠م/٥٠٢هـ)(٧٧)، وبدءوا يحافظون على العنصر البشرى الإسلامي لمواصلة الحياة الاقتصادية. فقد بدأ في عهد بولدوين الأول، حيث خير المسلمون بين الهجرة من مدنهم التي احتلها الصليبيون، وبين البقاء تحت الحكم الصليبي لمزاولة الزراعة والصناعة لخدمة الكيان الصليبي اقتصاديا. بدأ ذلك عند استيلاء الصليبيين على مدن صيدا (١١٠١م/٤٩٥هـ) وجبلة وعرقه (١١٠٨م/٥٠١هـ) وطرابلس (١١٠٩م/٥٠٢هـ) والأثارب (١١١٠م/٤٩٩هـ) وصور (١١٢٤م/٥١٨هـ)(٧٨). وبذلك اضطر الصليبيون الى التعايش مع المسلمين في مدن وأقاليم الشام التي خضعت للحكم الصليبي. وأيضا مع من كان يقيم فيها من المسيحيين الشرقيين من لأرمن والسوريان البيزنطيين (٧٩).

وقد كان من الطبيعي أن يقيم الفرنج ما اعتادوا عليه من علاقات بنساء ورجال من الشرقيين، شرعية كانت أم غير شرعية. وقد بدأ ذلك أيضا منذ دخول صليبي الحملة الأولى إلى الأراضي البيزنطية، كما حدد المؤرخ جيبرت دى نوجنت، حين روى لنا كيف أن رجال الفرنج قد سقطوا فريسة لسحر نساء بيزنطة وفضلوهم على نساء اللاتينيات، واجتمعوا بهم في المواخير البيزنطية (٨٠). كما يخبرنا ألبرت دكس بقصة راهبة من تريف كانت ضمن أفراد حملة بطرس الناسك وصادفها الفرنج في مدينة نيقية بعد أن سلمها السلاجقة إليهم، واتهمت بأنها كانت على علاقة بأحد الأتراك، وبعد أن أعفى عنها هربت من المعسكر الصليبي لتلحق بالتركي الذي هامت به حبا(٨١). وبذلك يكون الرجال والنساء من الفرنج على استعداد لإقامة علاقات مع الشرقيين والشرقيات سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين. وبعد استقرار الفرنج في الشرق كان من الطبيعي أن يرتكبوا الفواحش مع نساء غير لاتينيات، بل أنهم تعدوا ذلك الى الزواج بمسيحيات شرقيات وعربيات ارتددن عن الإسلام كما توضح لنا عبارة المؤرخ المعاصر فولشر الشارترى الشهيرة التي تعالج استقرار الفرنج فى الشرق. فقد اتخذ بعض الفرنج زوجات لهم من السوريان والأرمن وحتى من العربيات اللاتى ارتددن عن الإسلام (٨٢). وقد أقدم الفرنج من كل الطبقات على الزواج من الشرقيات. فقد تزوج قادة اللاتين من الشرقيات وشجعوا أتباعهم

علـى القيام بذلك. فقد تزوج كل من الملـك بولـدوين الأول، والملك بولدويـن الثـاني، وجـوسلين الأول كـونت الرها مـن أمـيرات أرمينيـات. كمـا تـزوج كـل مـن الملـك بـولدوين الثـالث (١١٤٣-١١٦٣م) والملـك عمـورى الأول مـن أمـيرات بيزنطيـات [٨٣].

وكان لدى الفرنج تناقض وجداني بخصوص زواج الفرنج بالمسلمين الذين بقوا على دينهم. فنجد مجلس نابلس وقد حرص على عدم ارتباط الفرنجـي أو الفرنجيـة بمسلمة أو بمسلم بأي شكل من الأشكال، سواء كان ذلك عن طريق علاقة شـرعية أم غير شرعية بين الطرفين. وقد عالجت قرارات مجلس نابلس من الثاني عشـر وحـتى السادس عشر هذه المسألة بصرامة بالغة. فإذا ثبت أن أي شخص قد نام مـع امـرأة مسلمة بإرادتها يعاقب الاثنان معا بأن يخصى الرجل ويجدع أنف المرأة[٨٤]. وإذا قـام فرنجي باغتصاب إمرأة مسلمة تنتسب الى فرنجى آخر بالقوة يعاقب نفـس العقـاب السابق [٨٦]. كما حدد المجلس أيضا عقوبة صارمة للفرنجية التي تقيم علاقة جنسية مـع رجل مسلم. فإذا جامعت إمرأة فرنجية رجلا مسلما بإرادتها، فيقع عليهما معا جـزاء الزناة. أما إذا أخذ المسلم المرأة الفرنجية عنوة، فلا تعد هي مذنبة، ويخضى المسـلم[٨٧]. وهكذا نجد أن القرارات الخمسة الأخيرة تحرم على الفرنج، رجالا ونساءا ، إقامـة أي علاقات جنسية مع المسلمين من الرجال والنساء. وهنا لابد أن نضع في اعتبارنـا أن المسلمين الذين تعايشوا مع التفرنج كانوا فئتين. الأولى وتضم المسلمين الذين لم يرغبوا في ترك مدنهم عند استيلاء الصليبيين عليها. وهؤلاء عاشوا في الإمـارات الصليبيـة أحرارا، وتركزت غالبيتهم فى المناطق الريفية وعملوا بالزراعة، ومنهم مـن عـاش فى المدن وامتهن حرفة من الحرف. ومنهم من أتى من المدن الشامية الداخلية للاتجـار في المدن التى احتلها الصليبيون. أما الفئة الثانية فتضم أسرى الحرب من المسلمين الذيـن اتخذهم الفرنج عبيدا للقيـام بـالعمل الشـاق أو للعمـل فى منـازلهم كمربيـات وطباخين[٨٨].

وإذا كـان الفرنـج قد أقبلـوا على الـزواج من مسيحيـات شرقيـات من الأرمـن والسوريـان والبيزنطيـين، ونتـج عن ذلك ظهـور شريحة جـديدة في المجتمع الصليـبي أطلـق على أفرادهـا اسم المولـدون Poulain وانتمـت إلى الفرنـج بحكـم المولـد، فأن القـادة الصليبيـن قد حرصـوا علـى عـدم ارتبـاط رعاياهم من الفرنج بالمسلمين لما قد ينتـج عن هذا الارتباط من مشاكـل لم تنتج عن الارتباط بالمسيحيـات الشرقيات. فلـم يكـن مـن السهـل مثـلا الاعتمـاد على هؤلاء الذين يولـدون نتيجـة للزواج بين المسلميـن والفرنـج في

قتال المسلمين. كما أن مشكلة العقيدة وانتماء الابن لعقيدة أبيه عند المسلمين كانت تشكل مشكلة اكبر. ومهما يكن من أمر، فلم ترد أية إشارة في المصادر التاريخية المتعلقة بتاريخ الحروب الصليبية عن زواج مسلم أو مسلمة بفرنجي أو فرنجية. وإذا كان المؤرخ فولشر الشارترى قد اخبرنا بأن الفرنج قد اتخذوا زوجات من العربيات اللائى ارتددن عن الإسلام، فمعنى ذلك أن الفرنج لم يقترنوا أبدا بمن تمسك بدينه من المسلمين والمسلمات. واذا كان قانون مملكة بيت المقدس قد منح العبد غير الميسحى حريته إذا ما ارتد عن دينه (٨٩) ، فإن الزواج من عربيات مرتدات عن دينهن لم يلق القبول من القادة الفرنج على طول الخط. لأنهم فى الأصل لم يتقبلوا فكرة تعميد العبيد ير المسحيين. وكان دافع الفرنج من وراء ذلك هو حاجتهم إليهم كعبيد. حتى أن بعض السادة من اللاتين كانوا يمنعون العبد المرتد عن دينه من حضور الطقوس الكنسية (٩٠). وقد حاول البابا جريجورى التاسع فى عام ١٢٣٧م أن يوفق بين مصالح السادة اللاتين وبين مصلحة العقيدة المسيحية وانتشلوها، بأن أصدر مرسوما ألغى به قانون المملكة الصليبية المألوف، بأن سمح للعبد غير السيحى باعتناق المسيحية دون ان تتغير صفة كعبد(٩١). إلا ان السادة اللاتين لم يضعوا قرار البابا حيز التنفيذ. واستمرت معارضتهم لقبول العبد المرتد عن دينه-حتى بعد اعتناقه للمسيحية-كعضو فى المجتمع الصليبى حتى عام ١٢٥٣، حين هددهم المندوب البابوى الذي جاء الى الشرق لحل المشكلة بالحرمان من الكنيسة إذا لم يمتثلوا لقرار البابا (٩٢).

ومهما يكن من امر، فأن قرارات مجلس نابلس، إذا كانت قد حرمت وقوع أي لقاء جنسي بين اللاتين والمسلمين، فإن الهدف من ذلك لم يكن بسبب الاتصال بجنس آخر غير الفرنج، وغنما لتحريم الارتباط بأهل عقيدة مخالفة. فلم يكن العنصر هو المانع وإنما العقيدة. لذلك كان قانون المملكة الصليبية يعطى الحرية للفرنج في الاقتران بمسيحيين شرقيين أو حتى عرب مرتدين عن دينهم، أما الزواج بالمسلمين فكان عقابه صارما (٩٣).

وحتى لا يدفع أحد من المتهمين بمعاشرة الآخر جنسيا، بأنه أتى بهذا الفعل عن جهل بهوية شريكة، فقد أصدر المجلس قرارا لمواجهة هذا الإدعاء بأن حرم على المسلمين من الرجال والنساء أن يرتدى أي منهما زيا فزنجيا، وإلا تحول إلى القنية (٩٤). وتكمن المشكلة هنا في أن القرار تعلق بالمسلمين فقط. وترك الحرية للفرنج ليرتدوا ما يشاءون من ملابس. وبذلك تكون الفرصة متوفرة للفرنجى-رجل كان او امرأة-أن

يتعلل، إذا ما قام علاقة جنسية بمسلم أو مسلمة، بأنه لم يتعرف على هوية شريكة لارتداء الأخير ملابس فرنجية. وبذلك اتسم هذا القرار بالقصور، وبقيت مخالفته قائمة، خاصة أنه كان من السهل للفرنج أن يتخفوا في زي المسلمين. وكانت الظروف الجديدة، ومناخ الشرق المختلف تماما عن مناخ الغرب، خاصة فصل الصيف الحار (٩٥).فاضطروا الى اتخاذ ما يخالف ما كان مألوفا لهم من الملابس. فارتدى الرجال منهم العباءات والكوفيات العربية. أما النساء فقد اتبعن الزي الشرقي التقليدي لنساء الشرق وخاصة عند الخروج من منازلهن حيث ارتدين الحجاب شأن النساء المسلمات، وتعطرن بنفس عطورهن، وهذا ما دفع جاك دى فترى الى توجيه لومه الشديد إلى الفرنج لتشبههم بالمسلمين واختلاط بهم واتباع عاداتهم، دون أن يضع فى اعتباره عد استطاعة الفرنج تجنب ذلك(٩٦).أما القرارات الثامن عشر والتاسع عشر، فقد عالجا العلاقة بين الزوجين من اللاتين. فإذا تزوج شخص من زوجة شخ آخر ودخل بها دون أن يعلم بأمر زوجها، لابد أن ينفصل عنها، ويصرح له بالزواج من أخرى(٩٧). وإذا رغب شخص فى الانفصال عن زوجته ليتزوج بأخرى رغم بقاء زوجته على قيد الحياة، فعليه أن يثبت-بشهود-خيانتها له، ويعرض الأمر على رئاسة الكنيسة(٩٨). وبذلك يكون المجلس قد حرص على استقامة العلاقة الزوجية بين الفرنجى وزوجته، وشرعية هذه العلاقة، وعدم اتجاه أنى منهما إلى ارتكاب الفاحشة.وكان القراران العشرون والحادي والعشرون يخصان مخالفات رجل الدين. فإذا ما أشهر أحد رجال الدين السلاح دفاعا عن نفسه فلا يعتبر مخطئا، ولكنه إذا ما استخدم جماعة مسلحة يقومون بالاعتداء على غيرة، فعليه أن يسحب جماعته ويعترف بالأمر ثم يمثل أمام البطريرك، وإذا أخفى الأمر اكثر منذ ذلك فعليه أن يمثل أمام المجلس الاستشاري للملك والبطريرك (٩٩). وإذا ما ارتد كاهن أو رجل دين نظامي، فعما أن يعود عن ذلك أو يعود ألي وطنه (١٠٠).

أما القرارات الثلاثة الأخيرة فإنها تتصدى لجرائم السرقة. وتزخر المصادر اللاتينية التي عالجت تاريخ الصليبيين فى الشرق بروايات عن قيام الفرنج بارتكاب هذه الجريمة. فيخبرنا ريمونداجيل عن قيام كثير من الفرنج بسرقة الأطعمة الخاصة بغيرهم من الفرنج أثناء حصارهم لإنطاكية، ومعرة النعمان، وبيت المقدس عندما كانت تقل الأقوات لديهم(١٠١). كما يخبرنا فولشر الشارترى أن الصليبيين بعد استقرارهم في الشرق قد اعتادوا على سرقة المحاصيل من حقول جيرانهم من بنى جلدتهم من الفرنج ، إلى جانب سرقة أدوات الزراعة(١٠٢). وحتى يحد مجلس نابلس من انتشار هذه الجريمة

فقد تقرر أنه أدين شخص بتهمة بالسرقة أو قطع الطريق وكان ضحية فعلته ثلاثة أشخاص، يحرق بوصمة في وجهه ويضرب بالسياط، وتعاد المسروقات الى أصحابها. وإذا عاد السارق أو قاطع الطريق أي فعلته ثانية فتبتر كل أعضاء جسده أو يقتل[١٠٣]. أما إذا كان السارق قاصرا، فيلقى القبض عليه ويعرض أمره على الملك ليقرر ما يمكن اتخاذه بشأنه من إجراءات[١٠٤]. وكذلك إذا كان السارق من البارونات، وقبض عليه متلبسا بجريمة السرقة، يرسل الى الملك ليصدر حكما بشأنه[١٠٥].

وهكذا، كانت كل القرارات مجلس نابلس من الرابع وحتى الخامس والعشرين، بمثابة قوانين أصبحت جزءا من قوانين مملكة بيت المقدس الصليبية. ولما كانت كل المخالفات التي عالجتها هذه القوانين، مخالفات أخلاقية، فقد كانت تنظر أمام الحاكم الكنسية. ونلاحظ أن بعض المخالفات قد أحيلت الى محكمة الملك، وهي المخالفات التي عالجتها القرارات السادس، والعشرون، والرابع والعشرون، والخامس والعشرون. وبعد هذا الإجراء توسيعا لنطاق صلاحيات محكمة الملك[١٠٦].

أما القرار الثاني والعشرون فيؤكد على ضرورة إثبات أي تهمة يوجهها شخص الى شخص آخر، وإلا تعرض للعقاب على اتهامه الجزافي لغيره دون تقديم دليل[١٠٧].

وهكذا، إذا كان الفرنج ق اعتادوا على ارتكاب الفواحش والجرائم، وإذا كان رجال الدين والقادة اللاتين قد حاولوا الحد من هذا السلوك، فأن جموع الفرنج لم تكن تلتزم بالمحاذير التي يصدرها هؤلاء إلا حين صدورها، أي قبل القيام بحرب ضد المسلمين أو حين تحيط بهم مجاعة أو كارثة طبيعية كحدوث زلزال مدمر، أو بهجوم القوارض على أراضيهم فتأتي على الأخضر واليابس في الأقاليم التي احتلوا في بلاد الشام. وكانت هذه الإجراءات عادة تتضمن أعمال التوبة والتكفير مثل أداء الصلوات والصوم أو توزيع الصدقات[١٠٨]. وسرعان ما كان الصليبيون يعودون ما جلبوا عليه من التدني الأخلاقي. لذا تعتبر قرارات مجلس نابلس بمثابة أول تشريع صليبي ثابت يعالج هذه المشكلة. وإذا كانت عقوبات مجلس نابلس قاسية، فأن المقصود بها كان بالدرجة الأولى الزجر. إلا أنه كما رأينا فأن بعض القرارات كان يستعاض عنها بأحكام عقوبات أخرى في حالة التوبة. ولا تظهر القرارات الدرك السفل الذي وصلت إليه أخلاق الفرنج فحسب، بل تشير أيضا إلى اضطراب القانون وانعدام وحدته في المملكة الصليبية حتى انعقاد مجلس نابلس. وإذا كان هناك بعض القصور قد شاب بعض قرارات المجلس، إلى جانب ما جبل عليه الفرنج من تناقض أخلاقي لم

يقض على مخالفاتهم الدينية. وبقيت طبائع الفرنج وبقى التدني الأخلاقي يسود تصرفاتهم. فقد أباح المندوب البابوي أودو Odo of Chateauroux الذى وصل الى الشرق لمعالجة مشكلة العبيد غير المسيحيين المرتدين عن دينهم، في عام ١٢٥٣م، أباح لجوانفيل مؤرخ حملة ريتشارد عما انتابه من غضب لما لمسه من تدن في أخلاق الفرنج وأخبره بأن "لا أحد يعرف مثلي الخطايا الشائنة التي ترتكب فى عكا، ولابد سيحدث أن ينتقم الرب بغسل مدينة عكا بدماء سكانها، وحينئذ سيأتي أناس آخرون للعيش فيها"(١٠٩).

وبينما كانت القرارات الثلاثة الأولى التي اتخذها المجتمعون في مجلس نابلس والتي أنهى بها الملك بمقتضاها تحكم السلطة الزمنية في عشور الكنيسة التي دعمت موقفة الضعيف في مسالة اعتلاء العرش، فأن القرارات الباقية كلها جاءت مرتبطة أيضا بظروف الصليبيين بصفة عامة، وبظروف مملكة بيت المقدس بصفة خاصة، أي بما كان الملك بولدوين الثاني ينوى القيام به من أعمال، وما يتخذه من إجراءات. فقد كان بولدوين يسعى إلى تحسين أحوال المملكة لتتمكن من حماية الكيان الصليبي بصفة عامة، وخاصة الإمارات الصليبية في شمال الشام، بعد ازدياد خطر المسلمين بعد دحرهم لجيش إنطاكية بعد ان انفض اجتماع مجلس نابلس تلبية لاستغاثة البطريرك الأنطاكي لنيل مساعدة الملك ضد هجمات إيلغازى الأرتقي عليها فى مايو ١١٢٠م/صفر ٥١٤هـ .. وكان بولدوين يتوقع ذلك ومستعدا له كما يخبرنا وليم الصوري (١١٢). وفى صيف ١١٢١م/٥١٥هـ اضطر الملك الى مواجهة طغتكين أتابك دمشق الذى أغار على إقليم الجليل (١١٣). ثم قام فى اوائل عام ١١٢٢م/٥١٦هـ بالتوجه الى إنطاكية مرة اخرى للتصدي لإغارات بلك ابن شقيق ايلغازى الأرتقى (١١٤). وأخيرا توجه عام ١١٢٣م/٥١٧هـ (١١٥). الى جانب ذلك فهناك ما خطط بولدوين الثانى للقيام به، ويعد اهم أعماله السابقة، وهو التوسع على حساب المسلمين بعد النهوض بمهمة حماية الأمارات الصليبية الشمالية ومملكته من الخطر الإسلامي. وكان ذلك هو محاولة الاستيلاء على مدينة صور. وتم بالفعل وإن كان دون مشاركة الملك فيه لوقوعه أسيرا لدى المسلمين(١١٦). فمن نص الاتفاقية التى وقعها البطريرك جيرموند مع البنادقة الذين ساعدوا على احتلال صور، نعرف أن بولدوين كان يعد نفسه بالفعل للقيام بذلك. فنجد البطريرك يعلن للبنادقة عن

تأكيده "وعود الملك المذكور بولدوين وفقا للاقتراحات المقدمة في رسائله وكتبه التي كان نفسه قد أرسلها من قبل بواسطة رسله ألي البندقية"[١١٧]. ومهما يكن من أمر، فأن ك هذه الأعمال كانت تحتاج لترتيب أمور المملكة فكانت قرارات مجلس الخطوة الأساسية لتنفيذ ذلك.

أما عن الإجراءات التي كان بولدوين ينوى اتخاذها بعد أن ينتهي من مجلس نابلس كانت قرارات هذا المجلس تعد تحسبا لتداعيات ربما تنشأ عن اتخاذ هذه الإجراءات. فقد لاحظ بولدوين الثاني قلة عدد سكان مدينة بيت المقدس التي تقل فيها المؤن، فعمل بناء على طلب البطريرك على أن تزود المدينة بالمؤن بشكل أوفر، وعلى زيادة عدد سكانها ، ثم على إرضاء البطريرك فى ذات الوقت. فأصدر في أوائل عام ١١٢١م قرارا بإعفاء سكان المدينة من اللاتين من الضرائب المفروضة على السلع التي كانوا يتاجرون فيها. كما سمح للتجار من الأرمن والسوريان والبيزنطيين وحتى المسلمين بالتروح إلى المدينة وجلب الحبوب دون فرض أية ضرائب عليهم. كما ألغى بولدوين الضرائب المفروضة على المكاييل والموازين[١١٨]. كل ذلك لينعش الحياة الاقتصادية في المدينة، ويكون في نفس الوقت قد حرص على إرضاء البطريرك الذي لعبت مصلحته المالية، فضمن له بولدوين انتعاش خزانته[١١٩]. وبذلك تكون قرارات مجلس نابلس قد ارتبطت تماما بأحوال مملكة بيت المقدس الصليبية والصليبيين بصفة عامة، وبظروف الملك بولدوين الثاني الذي عمل في المقام الأول على شراء رضى الكنيسة.

أما عن موقف المؤرخين من مجلس نابلس وقراراته، فإن فولشر الشارترى كان من المفروض أن يرحب-مرجل دين-بهذا الحدث الذي يعتبر صلحا بين السلطتين الزمنية والدينية في المملكة الصليبية. إلا أنه لم يذكر عنه شيئا بالمرة. وربما بدا له-كقس خاص للملك-الأمر على أنه هزيمة للملك أمام البطريرك [١٢٠].

أما عن وليم الصوري الذي كرس حوليته لسرد تاريخ الصليبيين بصفة عامة ومملكة بيت المقدس بصفة خاصة، فقد أخبرنا بقصة مجلس نابلس، وكرس لها فصلا كاملا من كتابه، كما أخبرنا كيف اجتمع المشاركون في الاجتماع، وكيف ألقى البطريرك فى بداية الاجتماع عظته التحذيرية، وكيف شعر المجتمعون بأن عليهم أن يتوبوا عن آثامهم، وكيف أصدروا خمسة وعشرين قرارا. إلا أن وليم لم يأت بإشارة واحدة عن تفاصيل هذه القرارات. وكتب أنه "يمكن لأي شخص يرغب في قراءة هذه القرارات

أن يجده بسهولة في سجلات كنائس كثيرة"[١٢١]. وإذا كانت هذه العبارة تفيد بأن وليم نفسه كانت لديه نسخة، على الأقل النسخة التي كانت تخص سجلات كنيسة صور التي كان هو رئيسا لها؛ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا لم يورد وليم نصوص هذه القرارات، مع أنه أورد لنا تفاصيل قرارات اتخذها مجالس ملوك بيت المقدس الآخرين؟ أورد نص القرارات التي أصدرها التي أصدرها مجلس الملك عموري الأول في نهاية عام ١١٦٦م حين فرض ضريبة العشر على دخل رعاياه استعدادا لحملته المرتقبة على مصر في عام ١١٦٧م[١٢٢]. كما أورد وليم تفاصيل فعاليات مجلس المملكة برئاسة الملك بولدوين الرابع (١١٧٤-١١٨٥م) المنعقد في فبراير ١١٨٣م لدراسة الموقف الصليبي بعد تمكن صلاح الدين الأيوبي من تحقيق نجاحات كبيرة تهدد الكيان الصليبي [١٢٣]. ورأى المجلس أن تكاليف الدفاع المتزايدة عن المملكة تستنفد كل مواردها، لذلك تقرر فرض ضريبة عامة يخضع لها كل سكان المملكة من رجال دين وعلمانيين. كما أورد وليم النص الكامل لقرارات ذلك المجلس [١٢٤]. وإذا كان مؤرخنا معاصرا لمجلسي عموري وبولدوين الرابع، و لم يكن معاصرا لمجلس نابلس، فإنه لم يكن معاصرا أيضا لحدث وقع اجتماع مجلس نابلس بأربعة أعوام، ويقع في عهد بولدوين الثاني نفسه، وهو توقيع اتفاقية التعاون بين مملكة بيت المقدس والبنادقة التي وقعها البطريرك جيرموند نيابة عن الملك. وقد أورد وليم النص الكامل لهذه الاتفاقية، حتى أنه سجل أسماء من وقع عليها من رجال المملكة [١٢٥].

وللوقوف على حقيقة رد فعل وليم الصوري تجاه مجلس نابلس وقراراته، يجدر بنا الانتباه ألي تأثير كون وليم رجل دين، وفى نفس الوقت كونه رجل الملكية الصليبية، على كتابته التاريخية. فإذا كنا قد ذهبنا من قبل الى أن قرارات مجلس نابلس تعد تنازلا من قبل الملك بولدوين الثاني عن سلطات مارسها سابقوه ملوك بيت المقدس للكنيسة، فإن وليم الصوري كرجل دين مناصر للحرية الكنيسة libertas ecclesiae، فإنه أيضا كان مؤرخا ملكيا، ومثل فولشر الشارترى، وربما اعتقد أنه من الفطنة أن يحذف من روايته عن مجلس نابلس نص القرارات التي اتخذها المجلس حتى لا يظهر الملكية فى روايته وقد ضعفت أمام الكنيسة، وبذلك يكون وليم قد تجاذبه تأثير ارتباطه بالكنيسة، وتأثير ارتباطه بالملكية في آن واحد؛ وهذا ما دفعة إلى أن يعدل بينهما على مدى كتابه[١٢٦]. ألي جانب ذلك، إذا كانت محاولة الملك بولدوين الثاني استرضاء الكنيسة نظرا لضعف موقفه من مسألة اعتلائه العرش عند اختياره ملكا بمساندة جوسلين والبطريرك أرنولف-التي اعتبرها وليم نفسه وسيلة غير شرعية-قد بدأت في عهد

أرنولف، وأن تفاوضا بين الملك والبطريرك قد تم بشأن هذه القرارات ثمنا لتأييد البطريرك لعملية اختيار بولدوين ملكا، وأن تنفيذها-لموت أرنولف- قد بدأ في عهد خلفة البطريرك جيرموند، فإن طلب إنهاء التحكم العلماني في العشور الكنسية يعد من إنجازات أرنولف. ولما كان وليم يتخذ موقف الرفض من اعتلاء أرنولف نفسه كرسي البطريركية (١٢٧). فإنه من السهل أن نفسهم لماذا تحدث وليم عن مجلس نابلس بصفة عامة دون ذكر القضية الأساسية، وهي العلاقة بين الملك والبطريرك، ومحاولة بولدوين تحسين العلاقة بين السلطتين الزمنية والدينية في المملكة، لضعف موقفة أمام البطريرك. وربما كان إحجام وليم عن ذكر نصوص القرارات قد أوحي لكثير من المؤرخين الحديثين بعدم أهميتها الأمر الذي أدي إلى عدم شد انتباهم ألي مجلس نابلس.

وهكذا جاء مجلس نابلس اجتماعا شاملا ضم كل رجالات مملكة بيت المقدس الصليبية وعقد بسبب المحن التي أحاطت بها-وبالكيان الصليبي ككل. من قبل الطبيعة من جهة والمسلمين من جهة أخرى، لتحقيق أهداف معلنة، وهي إصلاح أحوال المملكة المتردية، ورفع المستوى الأخلاقي للفرنج والمحافظة على النظام استعدادا لمواجهة الخطر الإسلامي المحدق بهم. إلى جانب أهداف لم تعلن وهى إصلاح ذات البين الكنيسة والدولة. وشكلت قرارات المجلس-وإن شاب بعضها القصور-قانونا وضع ليفى باحتياجات المجتمع الفرنجى بالمملكة الصليبية. وارتبط ارتباطا وثيقا بظروفها وبظروف الملك بولدوين الثاني نفسه، وبظروف الكيان الصليبي ككل. وأهم ما تحقق من الأهداف التي سعي المجلس ألي تحقيقها هو التصالح بين الكنيسة والدولة، ونتج عن ذلك قيام التعاون بين الطرفين. وكانت درجة هذا التعاون، التي أدي ألي وضع هذه التشريعات، فألا حسنا لوحدة الفرنج في مواجهة المشاكل التي أحاطت بهم، تلك الوحدة التي لم يكن هناك أى دليل على قيامها منذ عام ١٠٩٩م. وظهرت قيمة هذا التعاون بين الدولة والكنيسة فى عام ١١٢٤م. فقد تفاوض البطريرك جيرموند مع البنادقة باسم الملك. ومنحهم مقابل مساعدتهم للفرنج فى الاستيلاء على صور، امتيازات أكدها الملك بعد فك أسره. وتم الاستيلاء على صور. وحفظ البطريرك المملكة من الخطر حتى يطلق سراح عاهلها. وفى كل ذلك تصرف البطريرك

كرئيس للدولة (١٢٨). وكان ثمن كل ذلك قد دفعة الملك مقدما حين تنازل عن حقوق وسلطات لم يتنازل عنها سلفه من قبل. وهذا ما دفـــع وليـــم الصـــوري، مــؤرخ المملكة،ورجل المملكة الصليبية، ورجل الكنيسة في آن واحد، إلي أن يتغـــاضى عـــن تسجيل قرارات المجلس التي وقف على نصوصها حتى يحفظ للملكية وقارها دون يمـــس وقار الكنيسة.

بيان بالمختصرات

BED	-Bulletin des Etudes Orientale.
Chron Anon Syr	-Anonymous Syriac Chronicle, ed. A.S. Triton, in Journal Royal Asiatic Society (London, 1933).
CHR	-The Catholic Historical Review.
CS	-Crusade and Settlement papers read at the First Cofirence of the Society for the study of the Crusade and the Latin East and presented to R.C. Smail, ed. P.W. Edbury (Cardiff, 1985).
JA	-Journal Asiatic.
JEH	-Journal of Ecclesiastical History.
Outermer	-Outermer. Studies in the History of the Crusading Kingdom of Jerusalem presented to Joshua Prawer eds. B.Z. Kedar, H.E. Mayer, and R.C. Smail (Jerusalem, 1982).
PPTS	- Palestine Pilgrims Text Society (london, 1896- 1907).
RHC Oc.	-Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Occidentaux. 5 vols. Paris, 1844-95.
RHC Lois	-RHC Lois. Les Assises de Jerusalem. 2 vols. Paris, 1841-3.
RHC Doc Arm	-RHC Documents armeniens. 2 vole. Paris, 1869-1906.
RRH	-Regesta Regni Hierosolymitani (1097-1291), Compiled by R. Rohricht, Insruck, 1893, Additamentum,1904.
RS	-Rolls Series: Rerum Britannicarum Medi Aevi Scriptores.(London, 1858-96).
WT	-Wiliam of Tyre. Chronicon, ed.R.B.C.Huygens, Corpus Christianorum, Continuatio Mediavalis, 63163 A, 2 vols. (Turnhout, 1986)

الــهــوامش

(١) William of Tyre, *A History of Deeds Done beyond the sea* , 2 Vols., trans. E. Babcock and A.C. Krey (New York, 1943),vol.1, pp. 535-536.

(٢) وجاء ذلك في عدة أسطر قليلة، وهناك من مر على هذا الحدث في صمت تـــام. ولم يتناوله بشكل أوسع إلا المؤرخ الألماني هانز ماير من خلال معالجته للقـــرارات الثلاثة الأولى التي تضمنها المرسوم الذي أصدره المجلس، ليوضـــح مـــدى تأثـــير الصراع بين السلطتين الزمنية والدينية في غرب أوروبا حول مشـــكلة التنصيـــب على مملكة بيت المقدس الصليبية دون التعرض لأحوال المملكة الصليبية.

وانظر :

H.E. Mayer, The Concordat of Nablus, in *JEH* 33 (1982), pp. 531-43.

(٣) WT, 563-4.

(٤) Ibid., p. 563.

(٥) Cerbanus Cerbani, Translatio mirifici martyris Isidori a chio insula in civitatem venteam in *RHC Oc*. 5, pp. 322-3.

(٦) J.C. Mansi, ed., Sacrorum Consiliorum nova et amplissima Collectio (Paris 1901-1927) xxi, p 261.

(٧) وكذلك اعتبره كل من براور وجان ريشار "برلمانا" بينما اعتبره لامونـــت اجتماعا للمحكمة العليا يرأسها الملك، ومجلسا كنسيا الـــذى كـــان يرأســـة البطريرك. أنظر

Mayer, op. Cit., p. 53; J. Prawer, Crusader Institutions (Oxford, 1980), p. 15; J. Richard, The Latin kingdom of Jerusalem , Trans. J. Shirlet, 2 vols. Europe in the Middle Ages: Selected Studies, 2 (Amsterdam, 1979), p. 68; J.L. La Monte, Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem (1100 To 1291) (Cambridge, 1932), p.9.

(٨) William of Tyre, vol. 1,pp. 535-536.

(٩) Ibid., vol. 1, p. 536.

(١٠) Fulcher of Charters, *Gesta Francorum Iherusalemt* . Frances Rita Rayan as A History of the Expedition to Jerusalem, Tennesse, 1969, p. 225; Albert d Aix, Historia Hierosolymitana, in *RHC Oc* 5, p. 706.

(١١) Fulcher of Chartres, pp. 210-218-219; William of Tyre, vol. I, p. 535.

(١٢) Fulcher of Chartres, pp. 218-219.

(١٣) Daniel, Russian abbot, «The Pilgrimage of the Russian abbot Daniel in the Holy land», trans. C.W. Willson, in PPTS., 4. (London, 1888).

وقد رجعنا للترجمة العربية لهذا الكتاب. أنظر :

-دانيال الراهب: رحلة الحاج الروسي دانيال الراهب في الديـــار المقدســة، ترجمة سعيد البشاوى وداود إسماعيل أبو هديــة، عمــان ١٩٩٢م. ص٦٨، ١٠٨. راجع أيضا :

J. Prawer, «Agricultural Conditions in the Crusader states», in *A History of the Crusades*, ed. Kenneth M. Setton, 6 vols. (Madison, 1989), 5, p. 262.

(١٤) سعيد عبد الفتاح عاشور: الحركة الصليبية صفحة مشرقة في تاريخ الجـــهاد العربي في العصور الوسطى، القاهرة، ١٩٧٥م، ص ؛ محمد محمـــد مرســى الشيخ: الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى ســـقوط الرهــا، الإســكندرية ١٩٧٤م، ص٩، ٥٥.

(١٥) Chron. Anon. Syr., p.86.

(١٦) William of Tyre, vol. 1, pp. 523-4.

(١٧) Fulcher of Chartres, pp. 225-6

(١٨) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، ١٢جـ، القاهرة ١٣٠١هـ ، جـ ١٠، ص ٢٩-٢٣٠

(١٩) ابن الأثير : المصدر السابق، جـ ١٠، ص ٢٣٥.

(٢٠) William of Tyre, Vol. I,p. 528.

(٢١) ابن القلاسى: ذيل تاريخ دمشق، بيروت (مطبعة الآباء اليسوعيين) ١٩٠٨م، ص١٩٩-٢٠٠؛ ابن العديم: زبدة الحلب من تاريخ حلب، ٣جـ، تحقيـــق سامى الدهان، دمشق ١٩٥١م، ج٢،ص١٨٧-١٨٩. راجع ايضا:

Walter the Chancellor, «Bella Antiochena, in *RHC Oc.*, Vol. 5, pp.101ff; William of Trye, vol. 1, pp. 530-1.

(٢٢) ابن العديم : المصدر السابق ، ج٢،ص١٩٢-١٩٦. راجع أيضا

Walter the Chancellor, op. cit., p. 120-122.

(٢٣) بعد موقعة ساحة الدم. اجتمع بولدوين مع نبلاء إنطاكية اللاتين وبطريـــرك كنيستها برنارد وتقرر أن يتولى الملك الوصاية على إنطاكية حـــتى وصـــول

بوهيمند الثاني من العرب . وفى هذا الاجتماع تقرر أيضا أن يبعث الفرنـــج بطلب المساعدة من الغرب. التي نتج عنها وصول الأسطول البندقي في عـــام ١١٢٣م ومساعدته للفرنج في الاستيلاء على صور فلا عام ١١٢٤م. أنظر :

Fulcher of Chartres, p. 231; CF. also J. Riley-Smith, «The Venetian Crusade of 1122-4», in *the Italian communes in the Crusading kingdom of Jerusalem* eds. G Airaldi and B.Z kedar (Genoa, 1986), p. 340; J. Phillips, «*Defenders of the Holy land*» (Oxford, 1998), p. 14.

(٢٤) William of Tyre, vol. 1, pp. 424-7. CF. also, Steven Runciman,«A History of the Crusade», 2 vols. (Cambridge, 1968), vol. 2, pp. 156-8.

(٢٥) Ibid., vol. 2, pp. 519-21.

(٢٦) Fulcher of Chartres, 226 .

(٢٧) Ibid., pp. 228-9.

(٢٨) "Le liver au roi" in *RHC Lois*, Vol. I, pp. 616-617. CF. also, kingdom P.W. Edbury, «The baronial coinage of the Latin of Jerusalem«, in Coinage in the Latin East, ed. P.W. D.M. Metcalf. (Oxford, 1980), pp. 66-9; J. Edbury and Riley-Smith, «Further Thoughts on Baldwin II's établissement on the Confisication of Fiefs», in *CS*, pp.176-180.

(٢٩) William of Tyre, Vol. I,p. 536.

(٣٠) Mansi, xxi, C. 2, 263

(٣١) Mansi, xxi, C. 1, 263

(٣٢) Mansi, xxi, C. 2, 263.

(٣٣) Mayer, op. cit., p. 539.

(٣٤) H. Mayer, «*The Crusades*» (Oxford, 1972).

وقد رجعنا للنسخة العربية لهذا الكتاب ، أنظر

هانز ماير: تاريخ الصليبية، ترجمة وتعليق، عماد الدين غانم، منشورات مجمع الفاتح للجامعات، ليبيا ١٩٩٠م، ص ٢٥١

(٣٥) Mansi, xxi, C. 1, 263

(٣٦) Mansi, xxi, CC. 2,3,263.

(٣٧) Mayer, The Concordat, op. cit., p. 534; J. Parwer, «*The Latin Kindom of Jerusalem*» (London, 1972), p. 337; B. Hamilton, *«The Latin church in the crusalder satated; the secular church»*, (London, 1980), p. 145

(٣٨) RRH, no. 40, p. 7.

(٣٩) RRH, nos. 67,74-75 pp.15,17.

(٤٠) RRH, no. 67, pp. 14-15, no. 74-75, pp.16-17, CF. Also, Mayer, op. cit., p. 541.

(٤١) J. Richard, op. cit., p. 107.

(٤٢) يقع على مسافة ٥٢,٥ كيلو متر غربي بحيرة طبرية. أنظر: دانيال الراهب، المصدر السابق، ص ١٢٠.

(٤٣) RRH. no. 36, pp. 5-6.

(٤٤) RRH, no. 51, p. 10.

تحمل الوثيقة التي تتضمن نص الاتفاقية بين بوهيمند ودير القديس سلفادور بجبل طابور تاريخ ٢٥ مارس /٣١ أغسطس ١١٠٠م. ولما كان الملك بولدوين لم يكن قد وصل من الرها بعد ليتسلم مقاليد حكم مملكة بيت المقدس الصليبية إلا في ٩ نوفمبر من نفس العام وتوج ملكاً في ١١ نوفمبر. فمن المؤكد أن تكرد قد عقد الاتفاقية مع الدير قبل وصول بولدوين. وأكد بولدوين الوثيقة بعد ذلك. في ٣١ أغسطس من عام ١١٠٦م.

راجع أيضاً: سعيد البيشاوى: الممتلكات الكنيسة في مملكة بيت المقدس الصليبية، الإسكندرية، ١٩٩٠م، ص١٨٩-١٩٠.

(٤٥) Fulcher of Chartres, pp. 222-3; William of Tyre, vol. 1, pp. 518-9; Albert d'Aix, op . cit., pp. 606-609.

(٤٦) Fulcher of Charters, pp. 225; William of Tyre, vol. 1, pp.520.

(٤٧) Fulcher of Charters, p. 232.

(٤٨) William of Tyre, vol. 1, p. 520.

(٤٩) ما من بطريرك تولى منصبه في كنيسة بيت المقدس إلا وانتهى أمره بالعزل بعد وقوع خلافات بينه وبين الملك بولدوين الأول. وكثيراً ما انتصر بولدوين. وعن علاقة الملك بالبطارقة أنظر:

Hamilton, «*The Latin Church*», pp. 55-58, 61-63, 67-68.

راجع أيضاً: سعيد البيشاوى: الممتلكات الكنيسة، ص ١٠٧-١٢٩.

(٥٠) كل النقائص التي التصقت بالبطريرك أرنولف أوردها وليم الصورى وحده. وقد اتخذ موقف الرفض والعداء من البطريرك على طول الخط. أنظر .

William of Tyre, vol. 1, pp. 489, 505-6. CF. Also; J. Richard, «*The political and Ecclesiastical Organization of the Crusader States*», in Setton, vol. 5, pp. 61, 237; P.W. Edbury and J. Row, «*William of Tyre: Historian of the Latin East*» (Cambridge, 1988), p. 112.

(٥١) William of Tyre, vol. 1, p. 520.

(٥٢) Fulcher of Charters, pp.237-8;William of Tyre, vol. 1, p. 522.

راجع أيضاً : هايتر ماير: تاريخ الحروب الصليبية ، ص ١٢١.

(٥٣) هذا ما أعلنه كل من البابا أوربان الثاني، والبابا إيوجنيوس الثالث، وسار على نهجهم كل دعاة الحروب الصليبية في الغرب واصبح تعبير reissio peccatorum «غفران الذنوب» شائعا في خطابات هؤلاء. أنظر الترجمة الإنجليزي لهذه الخطابات في :

Louise and J. Rilcy-Smith, (eds.) «*The Crusades: Idea and Reality*» (London, 1981), pp. 37-53,57-59.

(٥٤) Marshal, W. Baldwin,«*Western Attitude towards Islam*», in *CHR*, vol. xxvll, n.y, p. 405.

وعن تطور فكرة الحرب المقدسة في غرب أوروبا وارتباطها بالحروب الصليبية، راجع: قاسم عبده قاسم : الخليفة الأيديولوجية للحروب الصليبية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص ١١ وما بعدها.

(٥٥) J. Riley, Smith, «*What were the Crusades*» (New Jersey, , 1977), pp. 54-62.

وعن تتطور مفهوم الغفران عند الصليبيين راجع البحث الشامل الذي أجراه الدكتور قاسم عبده قاسم في هذا الصدد. أنظر: قاسم عبده قاسم: ماهية الحروب الصليبية، سلسلة عالم المعرفة، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت، العدد ١٤٩، الكويت ١٩٩٠م، ص ٢٨-٣٤.

(٥٦) James A. Brundage, «Prostitution, Miscegenation and sexual Purity in the First Crusade», in *CS*, p. 57-62.

(٥٧) Fulcher of Charters, p. 85.

(٥٨) «Historia et gesta ducis Godfrid», in *RHC Oc.*, Vol. 5, p. 466.

(٥٩) Guibert de Nogent, «Historia que dictur Gesta Dei per Franc-cos», *in RHC. Oc.*, vol. 1,p. 181.

(٦٠) Albert d'Aix, op. cit., pp. 370-371.

(٦١) ريموندا جيل: تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة وتعليق، حسن عطية، الاسكندرية ١٩٩٠م، ص ١٢٠؛مجهول: أعمال الرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، ١٩٨٥م، ص٨١. راجع أيضاً:

Robert Monachus, «*Historia Ecclesiastica*», ed. M. Chibnall, 6 vols. (Oxford, 1969), vol. 5, p. 98.

(٦٢) ريموناجيل: تاريخ الفرنجة، ص ١٤٣.

(٦٣) Albert d'Aix, op. cit.,p. 416.

(٦٤) Mansi, xxi, C.4,263.

(٦٥) Mansi, xxi, C. 5, 263.

(٦٦) راجع ايضاً: أسامة ابن منقذ: كتاب الاعتبار، تحقيق فيليب حتى، الولايــــات المتحدة الأمريكية، برنستون ١٩٣٠، ص ١٧٤.

(٦٧) Mansi, xxi, C.6, 264-264.

(٦٨) كانت للبطريرك هرقل علاقات غرامية مثيرة للدهشة. وخاصة مع باشــيا دى ريفيرى Pasque de Riveri زوجة فرنجـــي صــاحب حــانوت في نابلس، التي هام بها البطريرك حبا، وجعلها تأتيه الى بيت المقدس أكثر مـــن مرة وبقيت عنده أكثر من خمسة عشر يوماً في إحدى زياراتها لــــه. وبعـــد موت زوجها استقدمها البطريرك إلى بيت المقدس واشترى لها بيتاً وجعلــها تقيم بالقرب منه. أنظر:

«Estoire d'Eracles», in *RHC Oc*., vol. P. 60. CF. Also, B. Z. Kedar, «The Patriarch Eraclius», in *Outermer*, pp. 180-183.

(٦٩) وشاهد هذه البيوت مؤرخو الحملة الصليبية الثالثة.

«Itinerarium Peregrinorum et gesta regis Ricardi», ed. W. Stubbs, in *RS* (London, 1865) pp. 248,283-6; Ambroise, «*The Crusade of Richard Lion-Heart*», trans. H. J. Hubert (New Yourk, 1928), pp. 233,277-278.

(٧٠) Mansi, xxi, C.7,264.

(٧١) أنظر ما سبق ، ص١٣.

(٧٢) Guibert Nogent, op. Cit., p. 133.

(٧٣) Mansi, xxi, C. 8, 264.

(٧٤) Mansi, xxi, C. 9, 264.

(٧٥) Mansi, xxi, C. 10, 264.

(٧٦) Mansi, xxi, C. 11, 264.

(٧٧) ابن القلانسى: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٢٠، ٢٢٤-٢٢٥، ٢٣٢-٢٢٣؛ ابــن العديم: زبدة الحلب، جـــ٢، ص ١٤١، ١٤٢؛ ابن الأثير: الكامل، جـــــــ١٠، ص١١٥-١٣٥، مجهول: أعمال الفرنجة، ص١٢٠؛ ريموندداجيل: تاريخ الفرنجـــة، ص ١٦٩،٢٤٧.

(٧٨) ابن القلانسى: المصدر الســابق، ص ٢٣٦-٢٣٧، ٢٧٣، ٢٤٣، ٢٦١-٢٦٢؛ ابن الأثير: المصدر الســـابق، جــــ١٠، ص١٠١، ١٩٧-١٩٨، ٢٠٢، ٢٦٣-

٢٦٥؛ العظيمـــي: تاريخـــه، نشرة كلود كاهن (بالعربية) في الجريدة الآســـيوية.
أنظر:

Al-Azimi, «Chronique», ed., C. Cahen, in *JA*, tom. ccxxx, 1938, p. 380.

راجع أيضاً: جوزيف نسيم يوسف: معـــركة حطـــين، خلفياتها ودلالاتهـــا،
مجلة عالم الفكر، المجلد العشرون، العدد الأول، الكويت ١٩٨٩م، ص٢٤٥.

(٧٩) H. Mayer, *«Latins, Muslims and Greeks in the Latin Kingdom of Jerusalem»*, in History, vol. 63 (1978), pp. 175-92P J. Prawer, *«Social classes in the Latin Kingdom of Jerusalem: the Minorities»*, in Setton, vol. 5, pp. 61-66.

(٨٠) Guibert de Nogent, op. cit.,p.133.

(٨١) Albert d'Aix, op. cit.,pp.327-328.

(٨٢) Fulcher of Charters, p. 271.

(٨٣) Albert d'Aix, op. cit., p. 361.
William of Tyre, vol. 1, pp. 415-16, 522; vol. 2, pp. 344-5. CF. also,Runciman, op. cit., vol. 1, pp. 208-9; vol. 2, pp. 36,292, 377.

(٨٤) Mansi, xxi, C. 12,264. CF. also, J. Brundage, op. cit., p. 60.

(٨٥) Mansi, xxi, C. 13, 264. CF. also, J. Brundage, op. cit., p. 61.

(٨٦) Mansi, xxi, C. 14, 264.

(٨٧) Mansi, xxi, C. 15, 264. CF. also, J. Brundage, op. cit., p. 60.

(٨٨) أسامة ابن منقذ: كتاب الاعتبار، ص١٨٠، ابن جبـــير: الرحلـــة، بـــيروت ١٩٨١م، ص٢٤٧-٢٤٨، ٢٥١-٢٥٣، راجع أيضاً:

J. Parwer, *«Social Classes»*, pp. 61 FF.

(٨٩) B.Z. Kedar, *«Ecclesiastical Legislation in the Kingdom of Jerusalem» in CS.*, p. 226.

(٩٠) B.Z. Kedar, op. cit., p. 226.

(٩١) B.Z. Kedar, *«Crusade and Mission, European Approaches toward the Muslims»* (Princeton, 1984), pp. 76-8, 146-51, 212-15.

(٩٢) B.Z. Kedar, *«Ecclesiastical legislation»*, p. 226.

(٩٣) J. Brundage, *«prostitution»*, p. 61.

(٩٤) Mansi, xxi, C.16,264.

(٩٥) Runciman, op. cit., vol.2,317-18

(٩٦) Jaques de Vitry, *«History of Jerusalem»*, ed. A. Stewart, in PPTS, vol. Xi, pp. 64-65.

(٩٧) Mansi, xxi, C.18,264.

(٩٨) Mansi, xxi, C. 19,264-265.

(٩٩) Mansi, xxi, C. 20,21,265.

(١٠٠) ريموندداجيل : تاريخ الفرنجة ، ص ٩٠-٩١، ١٦٦، ٢٣٧-٢٣٨.

(١٠١) Fulcher of Charters, p. 219

(١٠٢) Mansi, xxi, C. 23, 266.

(١٠٣) Mansi, xxim C. 24,266.

(١٠٤) Mansi, xxi, C. 25, 266.

(١٠٥) ماير: تاريخ الحروب الصليبية، ص١٢١.

(١٠٦) Mansi, xxi, C. 22, 265.

(١٠٧) مجهول: أعمال الفرنجة، ص ٩٢؛ ريموندجيل: تاريخ الفرنجة، ص ١٠٦، ١٤٣؛ راجع أيضاً:
Orderic Vitalis, *«Historia»*, vol. 5, pp. 105,164-8,178. Guibert of Nogent, *«Gesta Dei»*, p. 205.

(١٠٨) جوانفيل: القديس لويس، حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٨م، ص ٢٦٦.

(١٠٩) Fulcher of Charters, pp. 232-3, William of Tyre, vol.1, pp. 536-7;
ابن العديم: زبدة الحلب، جـ٢، ١٩٥-١٩٦؛ ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ٢٠٢.

(١١٠) Fulcher of Chartres, pp. 234-5, William of Tyre,vol. 1, pp. 538-9.

(١١١) Walter the Chancellor, *«Bella Antiochina»*,pp.131-2;Fulcher of Chartres, pp. 235-7.

(١١٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٢٠٩. راجع أيضاً :
Fulcher of Chartres, p. 240; Mathew of Edessa, *«Chronicle»*, in *RHC Doc Arm*, vo. 1, pp. 132-133.

(١١٣) وقع بولدوين أسيراً لدى بلك ابن شقيق إيلغازى الأرتقى فى ١٨ أبريل ١١٢٣م/١٩صفر ٥١٩ هـ. أنظر: ابن القلانسي : ذيل تاريخ دمشق، ص٢٠٩ . راجع أيضاً

Fulcher of Chartres, p. 240; William of Tyre, vol. 1, pp. 540-1; Mathew of Edessa, p. 132- 133.

(١١٤) William of Tyre, vol. 1, pp. 553,556

(١١٥) Fulcher of Charters, p. 232, William of Tyre, vol. 1, pp. 537-8.

(١١٦) بعد استيلاء الصليبين على مدينة بيت المقدس بفترة وجيزة، منح جودفرى حاكم مملكة بيت المقدس الصليبية، منح كنيسة القيامة إحدى وعشرين قرية في حدود المدينة إلى جانب جميع مخابز بيت المقدس عدا ثلاثة مخابز، اثنان منها للضيافة، والثالث للدير البندكتي المعروف باسم القديسة مريم St. Maria Latina . وقد قدمت هذه المنحة للكنيسة أثناء تولى أرنولف مالكورون بطريركية بيت المقدس عام ١٠٩٩م/١٩٢ هـ، قبل عزلة من منصبة بعد عدة أشهر. أنظر: سعيد البيشاوى الممتلكات الكنسية، ص ١٤٢.

(١١٧) Mayer, op. cit., 541.

(١١٨) William of Tyre, vol. 1, p. 536.

(١١٩) Ibid., vol. 2, pp. 313 ff.

وكانت هذه الحملة الثالثة التي يحاول بها عمورى الاستيلاء على مصر قبل أن تسقط فى ايدى نور الدين محمود. وكانت فى يناير ١١٦٧م/ربيع ثان ٥٦٢ هـ. عن أحداث هذه الحملة وظروفها. أنظر : ابن الأثير : الكامل فى التاريخ، جـ١١، ص١٤٥-١٤٧؛ ابو شامة: كتاب الروضتين فى اخبار الدولتين النورية والصلاحية، جزءان فى مجلد واحد، القاهرة ١٢٨٧-١٢٨٨ هـ، جـ١، ص ١٤٢-١٤٧؛ ابن واصل: مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، ٣جـ، تحقيق جمال الدين الشيال، القاهرة، ١٩٦٠م، ص ١٤٨-١٥٢.

(١٢٠) كان صلاح الدين قد حقق نجاحات كبيرة في إقليم الجزيرة، حيث أخضع لسلطته مدن الرها ولرقة وسروج ونصيبين وسنجار تمهيدا لإخضاع الزنكيين في حلب والموصل حتى يتفرغ للصليبيين تمام بعد أن يحيط بأملاكهم من كل

جانب، وفتح صلاح الدين حلب ليكمل حصاره لهم وذلك في ١١٨٢م/٥٧٩ هـ. أنظر ، ابن العديم زبدة الحلب ، جـ٢، ص ٦٢-٦٣؛ مؤرخ مجهول: البستان الجامع تواريخ الزمان نشره كلود كاهن: C. Cahen,"Un chronique Syrien de VI[e] siecle" in *BEO*, vol. 8, p. 144.

(١٢١) William of Tyre, vol. 2, pp. 486-489.

راجع أيضا: حسين عطية: عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية فى غرب أوروبا ومملكة بيت المقدس الصليبية، مجلة المؤرخ المصري، يصدرها قسم التاريخ-جامعة القاهرة-العدد السادس ١٩٨٩، ص١٢٣ وما بعدها.

(١٢٢) William of Tyre, vol. 1, pp. 525-6.

(١٢٣) Edbury and J. Row, "*William of Tyre*", pp. 105-6.

(١٢٤) Mayer, op. cit., p. 542.

(١٢٥) Hamilton, "The Latin Church", p. 65.

الأشرف خليل بن قلاوون وفتح قلعة الروم
(١٦ يونيو سنة ١٢٩٢م/١١ رجب سنة ٦٩١هـ)

د. / فايز نجيب اسكندر

كليـــة الآداب-جامعـــة بنـــها

كانت مملكة أرمينية الكبرى بمثابة دولة حـــاجزة ETAT TAMPON، أي دولة واقعة بين دولتين متصارعتين تحول دون تصادمهما، وقد أدى الجبليون الأرمــــن هذا الدور أحسن أداء. وكان لمصلحة الإمبراطورية البيزنطية الحفاظ على كيان تلـــك الدولة الحاجزة، خاصة بعد نجاحها في صد هجمات الأتراك الســـلاجقة في مراحلـــها المبكرة وكبح جماح تلك القبائل الطموحة إلا أن سياسة الإمبراطورية البيزنطية العقيمـة واستراتيجيتها الخاطئة حطمت ذلك الحاجز الواقي وذلـــك بغزوهـــا أرمينيـــة ســـنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ[١]، فكان هذا التحطيم باهظ الثمن، إذ تمكن الســـلاجقة في ١٦ أغسطس سنة ١٠٦٤م/٢٩ شعبان سنة ٤٥٦هـ[٢] من الاستيلاء علـــى "آني" Ani عاصمة مملكة أرمينية الكبرى، ثم تقويض بنيان الإمبراطوريـــة البيزنطيـــة فى معركـــة ملاذكرد سنة ١٠٧١م/٤٦٣هـ ونجاح السلاجقة فى ابتلاع آسيا الصغرى وتأســيس سلطنة سلاجقة الروم بعاصمتها قونية[٣].

ولقد ترتب على الأحداث السالفة الذكـــر هجرة الأرمن نحو الجنـــوب الى "الرها" الواقعة في إقليم الجزيرة الغربي، بالقرب من الطريق التجاري الكبير الذي يمتـــد علـــى الفرات. كما اتجه الأرمن من قبل إلى قبادوقيا وذلك أوائل القـــرن العاشـــر الميلادي/أوائل القرن الرابع الهجري؛ وكذا الى إقليم قيليقيا والذي كـــان البـــيزنطيون قـــد هجـــروا إليـــه من قبل كثير من الأرمن وذلك عقب غزوهـــم أرمينيـــة ســـنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ؛ وكان من بين هؤلاء بطريرك الأرمن الذي كان قد ترك العاصمـة "آني" Ani منذ سنة ١٠٥٤م/٤٤٦ هـ وأخـــذ مقـــره يتنقـــل حـــتى استقـــر ١١٥٠م/٥٤٥ هـ بقلعـــة الروم على نهر الفرات[٤].

---

(١) للتفاصيل أنظر : فايز نجيب اسكندر : غزو الإمبراطورية البيزنطية الأرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ الإســكندرية ١٩٨٨م.

(٢) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية "آنى" سنة ١٠٦٤م/٤٥٦هـ-الإســكندرية ١٩٨٧.

(٣) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر: البيزنطيون والأتراك السلاجقة في معركة ملاذكرد-الإسكندرية، ١٩٨٤.

(٤) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب إسكندر : مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة الممـــاليك الأولى (١٢٥٠-١٣٧٥م/ ٦٤٨-٧٧٦ هـ) الإسكندرية ١٩٨٠.

ولقد قامت «مملكة أرمينية الصغرى» LE ROYAUME DE LA PETITE ARMENIE فى المنطقة التى عرفت قديما باسم «قيليقيا» [1] . CILICIE، وتقع تلك المملكة فى الجنوب الشرقى من آسيا الصغرى. وتكاد تكون حدودها طبيعية [2] . فمن لشرق يحدها جبال الأمانوس [3]. ومن الشمال والشرق جبال طوروس؛ أما في الجنوب ، فالبحر المتوسط تمتد سواحله من مدينة طرسوس [4] إلي جنوب

---

(١) كان من بين نتائج فتوحات الأتراك السلاجقة للأقاليم الواقعة شرقي آسيا الصغرى هجرة جموع غفيرة من الأرمن من بلادهم الأصلية في أرمينية الكبرى إلى الأقاليم الواقعة غرب وشمال نهر الفرات، ليستقروا جنبا إلى جنب مع إخوانهم الأرمن المستقرين من قبل في تلك المواضع. وعقب معركة ملاذكرد سنة ١٠٧١م/٤٦٤هـ إلتجأ الكثير من الأرمن إلى جبال طوروس وإقليم قيليقيا وشمال بلاد الشام. علماً بأن جميع المواضع السابقة تواجد بها زعماء من الأرمن كانوا قد سبقوا إليها واستقروا فيها. وهكذا غدا الأرمن في قيليقيا قوة عظيمة وكبيرة حتى أطلق المؤرخ الفرنسي المحدث رينية جروسية RENE GROUSSET على «قيليقيا» آنذاك اسم «أرمينية الجديدة» LA NOUVELLE ARMENIE للتفاصيل أنظر

CH. 65, P.78, Dans R.H.C., Doc.. ARM., 1; Matthieu D'EDESSE, EXTRAITS,: NERSES DE Lambron, DANS R.H.C., Doc.. ARM., 1, P. 576. CF. Grousset, HISTOIRE DE L'ARMENIE, PARIS, 1947, P. 522; IDEM, L'EMPIRE DU LEVANT, PARIS, 1946, PP. 175, 385; IORGA, BREVE HISTOIRE DE LA PETITE ARMENIE, PP. 87-88; CAM. MED HIST., VOL. IV, P. 638; PASDERMADJIAN, HISTOIRE DE L'ARMENIE, P. 198.

(٢) RECUEIL DES HISTORIENS DES CROISADES, Doc. UMENTS ARMENIENS, PARIS, 1869-1806, T.I,P. XIX.

× وسنشير إلى « مجموعة مؤرخي الحروب الصليبية» اختصاراً بـ: R.H.C., Doc. ARM.,

(٣) «جبال الأمانوس» هي شعبة من جبال طوروس، تتصل بقيليقيا من جهة الشرق وتفصلها عن بلاد الشام. وما اشتهرت به جبال الأمانوس من الدروب إنما يرجع إلى أن جميع الغزاة اجتازوها، فمنها فتح المسلمون قيليقيا وما يليها من جهات آسيا الصغرى، وكان لابد للإمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس NICEPHORE PHOCAS أن يجتازها ليهاجم سيف الدولة الحمداني في صميم دولته. (انظر: R.H.C., Doc. ARM., T. 1, PP. XXVI-XXVIII. CF. SCHLUMBERGER, UN EMPEREUR BYZANTIN AU DIXIEME SIECLE, NICEPHORE PHOCAS, PARIS, 1870, P. 207.) والجدير بالذكر أن ممرات الأمانوس كانت دائما الممر البرى الجنوبي لكل الحملات المصرية نحو قيليقيا–أي أرمينية الصغرى–وبذلك تشابهت أهميتها الاستراتيجية بشبه جزيرة سيناء بالنسبة لمصر، فقد كانت شبة سينا المعبر البرى الشرقي لغزو مصر طوال العصور.

(٤) «طرسوس» من المدن القديمة، وبها قبر المأمون عبد الله بن هارون الرشيد، لأنه كان قد وفد عليها غازيا مرة بعد أخرى، فمات بموضع يعرف بالبذندون، وقريب من طرسوس في سنة ثمان عشرة ومائتين هجرية . (أنظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر–تحقيق عبد العزيز الخويطر–الرياض ١٩٧٦–ص ٤٣٨–٤٣٩؛ النويرى: نهاية الأرب من نهاية الأدب–مخطوط بدار الكتب المصرية– رقم ٥٤٩ معارف عامة – جـ ٢٨، ورقة

الإسكندرية [1]. وتبلغ مساحتها حوالي أربعين ألف كيلو متر مربع بطول ٤٠٠ كيلو متر من الشرق الى الغرب، وعرض مائة كيلو متر من الشمال الى الجنوب. كان ذلـك في اوائل القرن الثالث عشر الميلادي/أوائل القرن السابع الهجري [2].

وقد أطلقت المصادر الإسلامية على هذا الأقليم اسم "الدرب" [3]، أي الطريق الذي يسلك ما بين طوروس والإمبراطورية البيزنطية؛ لذا لقب "ابن الأثـير" (ت ٦٣٠ هــ/ ١٢٣٣م) في مصدرية "التاريخ الباهر" و "الكامل في التاريخ" أمير أرمينية باســم "صاحب بلاد الدروب [4]".

---

١٠٧ أ؛ ابن ابى الفضائل: النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد-تحقيق بلوشـيه – BLOCHET باريس ١٩١١-١٩٣٢-ص ٣٩٢) وتقع تلك المدينة الأرمينية على الساحل الشمالي للبحر المتوسط، بالقرب مـن حلب غربا . وهى مدينة مسورة وفى غاية الخصب، بناها الرشيد في سنة ١٧٠هــــ/٧٨٦م وأكملـها فى سـنة ١٧٢هــ/ ٧٨٨م. ولها خمسة أبواب: باب الجهاد، وباب الصفصاف، وباب الشام ، وبـــاب البحـر والبــاب المسدود. والنهر يشق فى وسطها وعليه قنطرتان داخل البلد. وبينها وبين حد الروم جبال هي الحاجز بين الــروم والمسلمين. أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الانشا- القاهرة ١٩١٣-١٩٢٠- جـــــ ٤، ص ١٣٣؛ البغدادي: مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع – تحقيق على محمد البحاوى – القاهرة ١٩٥٤م جـــــ٣، ص٨٨٣. أنظر أيضا: .R.H.D., Doc. ARM., T.I., P. XL وكذلك: فايز نجيب إسكندر: موقعة ملاذكـرد وصداها فى القسطنطينية – القاهرة ١٩٨٨-ص ١٩، حاشية رقم ٥٩.

(١) "الإسكندرية" مدينة في شرقي إنطاكية، عل ساحل بحر الشام، بينها وبين بغراس أربعة فراسخ، وبينها وبـين إنطاكية على ساحل بحر الشام ثمانية فراسخ. (أنظر: البغدادى: مراصـــد الاصـــلاع، جــــ١، ص٧٦) وتعـد الاسكندرية "أول حدود بلاد سيس" (أنظر: الشجاعى: تاريخ الملك الناصر محمد بن قلاوون الصـــالحى وأولاده- تحقيق بربارة شيفر-القاهرة ١٩٧٨-ص٨؛ المقريزى: السلوك، ج٢، ص٤٢٨.) وهو الممر الوحيد الذى يصل بـين قيليقيا وإنطاكية. أنظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص٣٩.

(٢) R.H.C., DOC. RAM., T.I, PP. II-III, XVIII-XIX. CF. TOURNEBIZE, HISTOIRE POLITIQUE ET RELIGIEUSE DE L'ARMENIE, PARIS, 1910, P.6; IORGA, BREVE HISTOIRE DE LA PETITE ARMENIE PARIS 1930, PP. 9-10: BASMADIIAN QUELLES ETAIENT LES FRONTIERES DE L'ARMENIE? PP. 21-25 DANS LA VOIE DE L'ARMENIE, PARIS, 1919; KHERUMIAN, INTRODUCTION A L'ANTHROPOLOGIE DU CAUCASE-LES ARMENIENS, PARIS, 1943, PP. 11-12; ERMONI, L'ARMENIE, DANS R.O.C., PARIS, 1896, T.I, P. 318; VEOU, LA PASSION DE LA CILICIE, PARIS, 1954, P.47.

(٣) هناك أكثر من مكان عرف باسم " الدرب" ذكر بعضها "ياقوت الحموى" فى "معجم البلدان". ولكنــه قــال إذا ذكر الــدرب وحــده دون أن يضــاف إليه اســم موضــع يحــدده، يكــون المقصــود بــه مــابين

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ-القاهرة ١٢٩٠هــ - جــ١١، ص ١٤٥؛ التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بــالموصل- تحقيق عبد القادر احمد طليمات – القاهرة ١٩٦٣-ص ٣٠٧.

لقد ناصبت مملكة أرمينية الصغرى [1] سلطنة المماليك العداء، إذ ساعدت بفاعلية المستعمرات الصليبية في بلاد الشام، وتحالفت مع تتار فارس لغزو بلاد الشام ومصر، هذا إلى جانب مساهمتها بفاعلية في فرض الحصار الاقتصادي على سلطنة المماليك بمنعها تصدير الأخشاب والحديد وكافة أنواع السلع الاستراتيجية من آسيا الصغرى الى مصر والشام. فقد سار الصراع العسكري بين مملكة أرمينية الصغرى وسلطنة المماليك جنبا من الصراع التجارى، إذ وقف ثغر الاسكندرية شامخا في وجه ثغر اياس، كما كانت حلب واقفة بالمرصاد في وجه العاصمة الأرمينية سيس SIS.

وكان من الطبيعى -نتيجة تلك السياسة العدائية - أن يتبع سلاطين المماليك مع مملكة أرمينية الصغرى سياسة قائمة على العنف والقسوة ومحاولة الإبادة، كحال السياسة التى اتبعوها مع المستعمرات الصليبية فى بلاد الشام ومع التتار. لذا توالت إغارات جيوش المماليك على مملكة أرمينية الصغرى طوال عهد السلطان الظاهر بيبرس البندقارى [2] (٦٥٧-٦٧٦ هـ / ١٢٦٠-١٢٧٧م)، وقلاوون الألفى [3] (٦٧٨-

---

(١) سميت باسم "أرمينية الصغرى" للتمييز بينها وبين "أرمينية القديمة" المعروفة باسم "أرمينية الكبرى" و "أرمينية القديمة" هى أواسط أجزاء آسيا الصغرى وأكثرها ارتفاعا. وهى محصورة بين سلسلتين من الجبال هما: سلسلة جبال بنطس شمالا وسلسلة طوروس جنوبا؛ وتمتد ما بين آسيا الصغرى الى الغرب من نهر الفرات، وبين أذربيجان والإقليم الجنوبي الغربي من بحر الخزر، في اتجاه ملتقى نهر الكر ونهر الرس شرقا، وبين إقليم بنطس إلى الشمال الغربي والقوقاز، ومن ثم يفصلها خط نهري ريونة والكر شمالا، وبين سهل الجزيرة أى ما بين النهرين جنوبا، وهى منطقة دجلة الأعلى. أنظر : فايز نجيب أسكندر. مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى-الإسكندرية ١٩٨٠-ص ب.

(٢) للتفاصيل أنظر : فايز نجيب إسكندر: المشرق الإسلامي فى مواجهة تحالف المغول والارمن-مجلة الثقافة اليمنية-العدد ١٩-سبتمبر ١٩٩٥.

(٣) بعد الهزائم المتلاحقة التى منى بها الجيش الارمنى ووصول المنصور قلاوون ألي ابواب الاسكندرية "أول حدود بلادسيس"، واعتناق تتار فارس الاسلام، أدرك الملك الارمنى ليون الثالث (١٢٧-١٢٨٩م/٦٦٩-٦٨٨ هـ) ضرورة عقد صلح مع مماليك مصر. فعقدت هدنة لمدة عشر سنوات اشهر وعشرة أيام وعشر ساعات أولها يوم الخميس ثاني شهر ربيع الاخر سنة ٦٨٤هـ/٧ يونيو ١٢٨٥م (راجع نص الهدنة في ابن عبد الظاهر : شريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور-تحقيق مراد كامل-القاهرة ١٩٦١-ص٩٣ وما بعدها ؛ المقريزى : السلوك، جـ١، ق٣ ، ص ٩٨٥ وما بعدها ؛ ابن الفرات، جـ٧، ص ٢٧٠ وما بعدها . أنظر أيضا LANGLOIS, LE TRESOR DES CHARTES D'ARMENIE, VENISE, 1863, PP. 217 SQQ;IDEM, ESSAI HISTORIQUE ET CRITIQUE SUR LA CONSTITUTION SOCIALE ET POLITIQUE DE L'ARMENIE, ST PETERSBOURG, 1860, P. 15; REINAUD, EXTRAITS DES HISTORIENS ARABES, PARIS, 1829, PP. 552-558; TOUR NEBIZE, PP. 217-218)

وكانت شروط الهدنة قاسية بالنسبة للأرمن، إذ كان عليهم أن يدفعوا جزية سنوية قدرها ألف ألف درهم من الفضة. وأن يخلى الملك الأرمني سبيل جميع التجار والمواطنين المسلمين المعتقلين في قيليقيا ويعيد إليهم أملاكهم.

٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م) وابنه الأشرف خليل (٦٨٩-٦٩٢هـ / ١٢٩٠-١٢٩٢م) واستمر حال الإغارات تهدأ حينا لتزداد أحيانا إلى أن تمكن السلطان الملك الأشرف شعبان بن حسين (٧٦٤-٧٧٨هـ /١٣٦٣-١٣٧٦م) من فتح مملكة ارمينية الصغرى، وضمها نهائيا لسلطنة المماليك وذلك سنة ١٣٧٥م/٧٧٦هـ[1].

والذى يهمنا في هذا الموضوع هو تتبع كيفية تمكن السلطان الأشرف خليل بن قلاوون من الاستيلاء على "قلعة الروم" [2]. HOROMKLAY . ومما يذكر أن الأشرف خليل[3] سار على نفس سياسة والدة العدائية تجاه الصليبيين والأرمن والتتار. ففي مملكة عكا الصليبية، والتي تمثل البقية من المستعمرات الصليبية في بلاد الشام آنذاك. فنزل عليها يوم الخميس الخامس من أبريل سنة ١٢٩١ م/الثالث من ربيع الآخر سنة ٦٩٠هـ، فنصب عليها أثنين وتسعين منجنيقا، محكما بذلك حصارها. وقد بذلت حامية عكا جهودا مضنية فى سبيل الدفاع عن المدينة؛ إلا أن مماليك الأشرف خليل نجحوا في اقتحام أسوارها وذلك يوم الجمعة الثامن من عشر من مايو سنة ١٢٩١م/السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٠هـ بعد حصار دام أربعة وأربعين يوما؛ كما نجح الأشرف خليل في فتح صور، وحيفا، وصيدا، بيروت، وعثليث وأنطرطوس.

ومقابل ذلك يطلق السلطان قلاوون سراح جميع الأسرى الأرمن، ولكن لا تعاد إليهم أملاكهم. وعلى الملكين المتعاهدين أن يسلما الهاربين من الطرفين كل إلى الآخر، على أن يبقى في مصر الأرمن الذين اعتنقوا الإسلام. وللمماليك حق شراء الرقيق من مملكة أرمينية الصغرى. ووقع ليون الثالث على هذه المعاهدة مرغما، ولكنه منع بيع الرقيق للمماليك، حتى لا تقوى بهم عليه . أنظر : TOURNEBIZE, P. 218.

(١) للتفاصيل أنظر: فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى ، ص٩٩-٢٥٠.

(٢) تحدث العالم الجليل الأستاذ الدكتور / سعيد عبد الفتاح عاشور- أستاذ أساتذة تاريخ العصور الوسطى-عند هذا الموضوع في سبعة أسطر. أنظر : سلطنة المماليك ومملكة أرمينية الصغرى. محاضرة منشورة فى بحوث ودراسات العصور الوسطى-بيروت ١٩٧٧ ص ٢٦٠.

(٣) ولى "الأشرف خليل بن قلاوون" أمر الملك بالديار المصرية والبلاد الشامية وما مع ذلك من النواحي الإسلامية، وجلس على التخت، وركب بشعار السلطنة في ذي القعدة سنة ٦٨٩هـ/ نوفمبر ١٢٩٠م بعد وفاة والدة قلاوون الألفي. أنظر: ابن حبيب: تذكرة النبيه فى أيام المنصور وبنيه-تحقيق محمد محمد أمين-القاهرة ١٩٧٦- جـ١، ص ١٣٦؛ الكتبى : فوات الوفيات-تحقيق إحسان عباس-جـ١، ص ٤٠٦-٤١٥. أنظر أيضا GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, PARIS, 1936, III, p. 750.

وبسقوط عكا في قبضة الأشرف خليل، انتهى الفصل الختامي في تاريخ الحروب الصليبية في بلاد الشام؛ ويرجع الفضل في ذلك إلى مصر التي قامت-طوال عهد الحروب الصليبية-بدور إيجابي فعال، كحالها الى مر العصور، إذ كانت محور المقاومة الإسلامية حتى تم على يديها أخيراً "سقوط عكا" وطرد المستعمر الصليبي من بلاد الشام (1)، بعد أن زجت به مياه البحر المتوسط على حد قول المؤرخ الفرنسي المحدث "رينيه جروسيه"(2) RENE GROUSSET.

وكان من أهم نتائج سقوط عكا أن استعد المماليك لتوجيه سلاحهم صوب مملكة أرمينية الصغرى، بعد أن أضحت تلك المملكة المعقل الصليبي الأخير في قارة آسيا، وقاعدة مرتقبه لكل حملة صليبية جديدة. ومما لا شك فيه ان هذا الفتح العظيم قد أكتسب الأشرف خليل ومماليكه مجداً وعطفاً من ربوع العالم الإسلامي آنذاك، لذا رغب الأشرف في توجيه هذا الحماس المتدفق صوب مملكة أرمينية الصغرى من ناحية وأسيادهم التتار من ناحية ثانية.

وبالفعل بدأ السلطان المملوكى بالخطر الأول المتمثل في مملكة أرمينية الصغرى. بدأ المعركة بنوع من "الحرب النفسية"، إذ أرسل كتاباً الى ملك مملكة أرمينية الصغرى (3) "هيثوم الثاني (١٢٨٩-١٣٠١م/٦٨٨-٧٠١ هـ)

---

(١) للتفاصيل أنظر : GORUSSET, OP. CIT., T.III, pp. 750-776 .

(٢) GROUSSET, L'EMPIRE DU LEVANT, PARIS, 1946, P. 400.

(٣) رفض المسلمون عامة الإشارة الى حاكم "أرمينية الصغرى" بلفظ "ملك" وإنما أطلقوا عليه في أغلب الأحيان لقب "متملك" بمعنى أن الأرمن امتلكوا تلك البلاد قهراً من المسلمين أصحاب السيادة الشرعية عليها وعليهم. وقد عبر "شهاب الدين بن العمرى" عن ذلك بقوله:"... وكانت طاعتهم آخراً لبقية الملوك السلاجقة الروم، وعليهم جزية مقررة وطاعة معروفة، والعمال والشحاق على البلاد من جهة الملك السلجوقي، حتى ضعفت تلك الدولة {صاحب أرمينية الصغرى} .. واستولى على هذه البلاد وتملكها، وتحيف مواريث بني سلجوف واستهلكها" . (أنظر: التعريف بالمصلح الشريف-مصر،١٣١هـ- ص٥٥-٥٦). أما القلقشندى فقد ذكر عن أرمينية الصغرى ما نصه : "... وإنما يقال له متملك سيس دون ملك سيس لما تقدم من أنها كانت أولا بيد المسلمين، ثم وثب عليها رئيس الأرمن المقدم اللعين {صاحب أرمينية الصغرى} ... واستولى على هذه البلاد وتملكها، وتحيف مواريث بني سلجوف واستهلكها". (أنظر : التعريف بالمصطلح الشريف-مصر، ١٣١٢هـ-ص٥٥-٥٦). أما القلقشندى فقد ذكر عن أرمينية الصغرى ما نصه: "... وإنما يقال له متملك سيس دون ملك سيس لما تقدم من أنها كانت أولا بيد المسلمين، ثم وثب عليها رئيس الأرمن المقدم ذكره فتملكها من أيدي المسلمين ". (أنظر: صبح الأعشى، جـ ٨ ،

HETUM[1] اخبره فيه بفتح عكا، وذكره بقوة سلطنة المماليك وعظمة جيوشها التي احكمت الأطباق على ذلك المعقل الصليبي الأخير وفتحة؛ كما دعاه ألي سرعة أرسال القطعية المقررة، والحضور لمقابلته. وأخيراً طلب منها أن يعتبر بما حل بعكا، وإلا "تندم ندامة أهل عكا حيث لا ينفع الندم" [٢].

ونستشف من هذا الكتاب أن الشرف خليل أراد أن يؤكد ما للسلطنة المملوكية من السيطرة على مملكة أرمينية الصغرى.

أمام هذا التهديد والوعيد، طلب الملك الأرمني هيثوم الثاني مساعدة البابا نيقولا الرابع[1] (١٢٨٨-١٢٩٢م/ ٦٨٧-٦٩١هـ)

ص ٣٢.) ولقد تعددت الألقاب التي أطلقها المسلمون علة ملك مملكة أرمينية الصغرى، منها ابن لاون أو ليفون. ولاون هنا تحريف للفظ ليون LEON أول ملوك أرمينية الصغرى، فصار كل ملك من ملوكها يعرف ب "ابن لاون". ومن هذه الألقاب أيضاً "متملك سيس"-كما سبق أن أشرنا-أو "صاحب سس". كذلك أطلق عليه اسم "تكفور"، وهو لقب عام قصد به كل من جلس على عرش تلك المملكة، مثلما لقب إمبراطور الإمبراطورية البيزنطية ب"الاشكرى"، وملك الحبشة ب "الحطى" أو "النجاشى". أنظر: ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر، ص ٢٦٩، ٣٢٩،٣٣٩ وما بعدها؛ العمرى: التعريف، ص ٥٥؛ القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٨، ص ٣١.

(١) اعتلى "هيثوم الثانى" (١٢٨٩-١٣٠١م/٦٨٨-٧٠١هـ) HETUM II عرش مملكة أرمينية الصغرى بعد أبيه ليون الثالث LEON III سنة ١٢٨٩ سنة ١٢٨٩م/٦٨٨هـ، ولكنه تنازل عنه سنة ١٢٩٢م/٦٩١هـ لأخيه طوروس THOROS ودخل أحد أديرة الفرنشسكان. ولكن طوروس والبارونات كانوا يذهبون إليه فى الدير ويستشرونه فى مهام الأمور، وأضطره أخيراً بإلحاحهم عليه أن يعود إلى الحكم سنة ١٢٩٥م/ ٦٩٤ هـ. وفى سنة ١٢٩٧م/٦٩٦هـ ذهب هيثوم الثاني إلى القسطنطينية واصطحب معه طوروس وترك أخاه الأصغر سمباد SEMBAD لإدارة شئون المملكة، فاغتصب سمباد العرش. لكن البارونات الأرمن اضطروا هيثوم الثاني إلى اعتلاء عرش مملكة أرمينية الصغرى وذلك للمرة الثالثة. وبذلك تشبه هيثوم الثاني بالناصر محمد بن قلاوون في ولاياته الثلاث. للتفاصيل أنظر : LE ORI HETHOUM II, PP. 541-545; SEMPAD, PP.655-657; MARDIROS DE CRIMEE, LISTE RIMEE DES ORIS DE LA PETITE ARMENIE, P. 685; TABLE CHRONOLGIQUE DE HETOUM DE HETOUM, P. 490. CF. TOURNEBIZE, PP. 220-228; GROUSSET, L'EMPIRE DU LEVANT, P. 400.

(٢) أنظر : "ذكر مكاتبة السلطان الأشرف صلاح الدين الى صاحب سيس عند فتح عكا" فى : مؤلف مجهول: تاريخ سلاطين المماليك-نشر.ف. زترستين-لندن ١٩١٩ م-ص٨. وكذلك: سعيد عبد الفتاح عاشور: سلطنة المماليك والأرمن، ص ٢٦٠؛ الحركة الصليبية، جـ ٢، ص ١٢١٦. وعن تفاصيل سقوط عكا أنظر: ابن إياس: بدائع الزهور فى وقائع الدهور، جـ١، ص ١٢٣، ابن تغرى بردى: مورد اللطافة-تحقيق كارليل CARLYLE ١٧٩٢م-ص١٤٥؛ ابن حبيب: درة الأسلاك فى دولة الأتراك-مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦١٧٠ج-جـ١، ورقة ١٦٣أ-١٦٦أ. أنظر أيضا SCHILUMBERGER, PRISE DE SAINT JEAN D'ACRE EN L'AN 1291 PAR L'ARMEE DU SOUDAN D'EGYPTE, PARIS, 1914; STUBBS.

NICOLAS IV، الـذي استـاء إستيـاءاً بالغـا لسقـوط "طرابلـس" ثم "عكـا" فـي قبضـة المماليك، لـذا حرص-كعادة البابوات عقب كل كارثـة صليبيـة-على إثـارة الرأي العـام الأوروبي ضد سلطنـة المماليك. إلا أن جهـود البابا في استثـارة الغرب لإرسـال حمـلة صليبيـة الى الشـرق الأدنـى الإسلامـي باءت بالفشـل الـذريع. وكـان قـد خـطط لـدعوة ملـوك أوروبا الى التحـالف والتعـاون مـع التتـار والأرمـن[2] والكـرج[3] للقضـاء علـى سلطنـة الممـاليك، لكنه مـات فـي إبريـل سنـة ١٢٩٢م/ ربيـع الثـاني سنة ٦٩١هـ أثنـاء الإعـداد للحمـلة. وعقـب وفاتـه، توقـف مشـروع التحـالف ضـد سلطنـة الممـاليـك، لخلـو السـدة الرسـولية لمـدة عامـين[4] ، وقعـت فيهما أحداث جسام أثرت تأثيراً مباشراً على العلاقـات المملوكية الأرمينية.

---

(١) أعتلي "نيقولا الرابع" NICOLAS IV السدة الرسولية في ٢٠ فبراير سنة ١٢٨٨م. وكان سلفة هونوريوس الرابع HONORIUS IV قد توفى في ٣ إبريل سنة ١٢٨٧م، فظل الكرسي البابوي شاغراً طوال الفترة مـن ٣ إبريل سنة ١٢٨٧م إلى ٢٠ فبراير سنة ١٢٨٨م. أنظر: GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, T. III, P. 716

(٢) اشتهر الأرمن بنشاطهم البناء في المجتمع الإسلامي، ويؤكد ذلك أن أسامة بن منقذ ذكر أخبار كثـيرين مـن الأرمن اشتهروا بالمهارة والرماية، واستعان بهم آل منقذ في الصيد والحرب على السواء. أنظـر الاعتبـار-ليـدن ١٨٨٤-١٠٦.

(٣) "الكرج" هم جيل من الناس نصارى، كانوا يسكنون في جبال القبق وقويت شوكتهم حتى ملكـوا مدينـة "تفليس" (أنظر: ابن العبري: تاريخ مختصر الدول، ص ٣٥٠ حاشية رقم ٢). وتقع بلاد "الكرج" على السـفوح الجنوبية الغربية لجبال القوقاز. فحدودها الشمالية تسير بمحاذاة سلسلة جبال القوقاز؛ أما حدودها الشرقية، فـهي تتاخم بلاد داغستان الجبلية وسهول اذربيجان؛ وتحدها جنوبا أرمينية ومقاطعة قرص KARS؛ أمـا حدودهـا الغربية، فتطل على البحر الأسود. للتفاصيل أنظر : فايز نجيب اسكندر: الفتوحات الإسلامية لبلاد الكرج-القـاهرة ١٩٨٨م-ص٧-١٨؛ أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة في عهد داود الثاني- العدد الأول من مجلة المـورخ العربي-مارس ١٩٩٣-ص٢٥٢-٢٥٣؛ استيلاء السلاجقة على عاصمة أرمينية "آني" الإسكندرية ١٩٨٧-ص٣٤، حاشية رقم ٤٧؛ مملكة أرمينية الصغرى، ص١٣٧، حاشية رقم ٢.

(٤) للتفاصيـل أنظـر: LE ROIHETHOUM II, P. 542, CF. GROUSSET, HISTOIRE DES CROISADES, T. III, PP. 716-747; DEDEYAN ET THIERRY, LE TEMPS DE LA CROISADE, DANS HISTOIRE DES ARMENIENS, TOULOUSE, 1982 P. 311; LODGE, THE CLOSE OF THE MIDDLE AGES, PP. 29, 51-54; KING, THE KNIGHTS HOSPITALLERS, PP. 75-79; MOWAT, THE LATER MIDDLE AGES, PP. 75-79; ATIYA, THE CRUSADES IN THE LATER MIDDLE AGES, P.45.

وكان من الطبيعي أن ينعكس فشل مشروع التحالف ضد سلطنة المماليك على مصير مملكة أرمينية الصغرى خاصة وان السلطان الأشرف خليل كان قد علم باستنجادات الملك الأرمني هيثوم الثاني.

ومما زاد الطين بلة أن وصل كتاب إلى القاهرة أرسله نائب حلب يفيد أن ملك مملكة أرمينية الصغرى تعرض لبعض تجار المسلمين، وألقى القبض عليهم بعد أن استولى على أموالهم، ونهب ما يحملونه من بضائع؛ وان نائب حلب أرسل يطلب منه إطلاق سراح الأسرى وإعادة أموالهم وبضائعهم المستولى عليها، وإلا فليستعد لمواجهة جيوش المماليك. فجاء رد الملك الأرمني(١) بأن أحداً لم يتعرض لأحد من التجار المسلمين، وأنه ليس هناك أسرى وأموال(٢) . ولما وقف السلطان الأشرف خليل على ما جاء في كتاب نائب حلب، غضب غضباً شديداً، وأمر بعقد مجلس استشاري عسكري ضم كبار الأمراء لاستشارتهم في الأمر. فأشاروا على سلطانهم بغزو سيس(٣) SIS، عاصمة

---

(١) "الأرمني " وليس الأرميني، ويؤكد ذلك قول الشاعر :

ولو شهِدَتْ أمّ القديْد طِعانَنا بمرعش خَيَل الأرمني أرنّت

أنظر: ياقوت: معجم البلدان-بيروت ١٩٥٥-١٩٥٧-جـ١، ص ١٦٠؛البغدادي: مراصد الاطلاع، جـ١، ص٦٠، حاشية رقم ٤؛ ابن حوقل: صورة الأرض-بيروت ١٩٧٩-ص٢٩٤-٢٩٥؛ القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد-دار صادر بيروت-ص٥٢٤، أنظر أيضاً : فايز نجيب اسكندر : السلمون والبيزنطيون والأرمن في ضوء كتابات المؤرخ المعاصر سبيوس-بيرت ١٩٩٤-ص٦٨، حاشية رقم ١٦٢؛ الحياة الاقتصادية في أرمينية إبان الفتح الإسلامي- القاهرة ١٩٨٨-ص٨، حاشية رقم ٤؛ الفتوحات الإسلامية لأرمينية في ضوء كتابات المؤرخ الأرمني جيفوند، جـ١، ص١٠١، حاشية رقم ١٦٦؛ غزو الإمبراطورية البيزنطية لأرمينية سنة ١٠٤٥م/٤٣٧هـ-الإسكندرية ١٩٨٨- ص٢٨، حاشية رقم ١.

(٢) العيني : عقد الجمان، ق١، جـ٢١، ورقة ٥٥-٥٦.

(٣) "سيس" SIS وصحة هذا الاسم "سيسية" SISIYYA ، غير ان عامة الناس يسقطون الهاء، وقولون "سيس"، وهي عاصمة مملكة أرمينية الصغرى-أي قيليقيا ، وتقع بين إنطاكية وطرسوس. ولها قلعة حصينة عليها ثلاثة أسوار على جبل مستطيل، ولها بساتين ونهر صغير؛ - البلدان، ص٢٥٦-٢٥٧؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص١٠٦، حاشية رقم ٢؛ المقريزي: السلوك، جـ١، ق٢، ص ٥٤٩، حاشية رقم ٢؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص ١٣٩، حاشية رقم ١؛ القلقشندي: صبح الأعشى، جـ٤، ص ١٣٤-١٣٥؛ ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص٤٣٤. وقد ذكر الشجاعي أن "باب إسكندرونة هو أول حدود بلاد سيس". أنظر : تاريخ الملك الناصر محمد ، ص٨.

مملكـة أرمينيـة الصغـرى، وتأديـب ملكهـا هيثـوم الثـاني[1] .

تحقيقـا لتـلك الغـاية، رحـل السلطـان المملـوكي مـن مصـر قاصـداً بـلاد الشـام فـي يـوم السبـت ٢٨ مـارس سنـة ١٢٩٢م/ثـامـن مـن ربيـع الآخـر سنـة ٦٩١هـ[2] علـى رأس جيـش كبيـر، وبصحبتـه وزيـره الصـاحب "شمـس الـدين بـن السلعـوس" [3]، الـذي كـان قـد سبـق أن كلفـه بـأن يكتـب إلـى نـواب الشـام بالاستعـداد للغـزو وجمـع المجـانيق[4] وآلات الحصـار المتنـوعـة والمـؤن، ونـادى بالنفيـر للجهـاد، ودخل دمشق وعرض العساكر [5]. وبعد يومين، وصل نائب حلب الى دمشق، وأخبر أن رسل الملك الأرمني في طريقهم لمقابلـة السلطان المملوكي. وبالفعل دهش الرسل الأرمن عند وصولهـم دمشـق لضخامـة

---

(١) العيني : عقد الجمان، ق١، جـ١٢ ، ورقة ٥٦.

(٢) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٢٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٠ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، جـ٨، ص١٣٦؛ مؤلف مجهول: كتاب نزهـة الإنسان في ذكر الملوك والأعيان -مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس-رقم FONDS ARABE 1769-ورقـة ٢١ب.

(٣) اشتغل "شمس الدين بن السلعوس" فى أول أمره بالتجارة في دمشق، ثم تنقل في عديد من الوظـائف إلى أن ولى الحسبة والنظر فى ديوان الملك الأشرف في بلاد الشام. وتمكن من جمع الأموال الطائلة لقيامة باستحجار ضيـاع لحسابه الخاص. ثم قدم ألي مصر في عهد السلطان قلاوون الألفي، فعين ناظرا للديوان، لكنه عـزل لابـتزازه أموال بعض المقطعين، وعين قلاوون بدلاً منه فخر الدين بن الخليلى. عقب ذلك توجه ابـن السـلعوس الى الحجاز وعاد الى مصر بعد أن تولى الملك الأشرف خليل سلطنة المماليك وكان قد كتب إليه بخطه "ياشقير يـا وجه الخير، تعجل بحضورك لتتسلم وزارة الديار المصرية والشامية". أنظر: النويرى: نهاية الأرب، جـ٢٩، ورقة ٢٩٤أ-٢٩٤ب؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، ورقة ١٦٧ب-١٦٨ أ؛ ابن كثير: البدايـة والنهايـة، جـ١٣، ص٣٣٢؛ ابن ايبك الصفدى: الوافي بالوفيات، جـ٤، ص٨٦، ترجمة رقم ١٥٥٥؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٩٠ ب؛ القيسراني. النور اللائح والدر الصادح فى اصطفا مولانا السلطان الملك الصـالح - مخطوط بالمكتبة الوطنية بتاريخ رقم FONDS ARABE 1708 ورقة ٥٣ أ، ٥٤ ب، الصقاعى: تالى كتاب وفيات الأعيان، ورقة ٧١ أ-٧٢ أ.

(٤) "المجانيق": جمع "منجنيق"، وهو آله من خشب، لها دفتان قائمتان، بينهما سهم طويل رأسه ثقيل وذنبه خفيف وفيه كفة المنجنيق الذي يجعل فيها الحجر، يجذب حتى أسافله على أعاليه، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه فما أصاب شيئا إلا أهلكه.

(٥) العيني : جـ٢١، ورقة ٥٦؛ الكتبي : عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ مؤلف مجهول: كتاب نزهـة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٧٢.

استعدادات الأشرف خليل؛ ودخلوا ألي حضرته، وقبلوا الأرض بين يديه، واخرجوا كتاب ملكهم، فإذا فيه: إن ما نُقِلَ عنه ألي السلطان غير صحيح، وأنه ما تعرض لأحد من التجار؛ وإذا ثبت خلاف ذلك، فأنه مستعد لدفع أضعاف ما نسب إليه من اخذ أموال التجار وبضائعهم. وأكد الملك الأرمني في كتابه أيضا أنه سيطلق سراح جميع الأسرى المسلمين المتواجدين في مملكته، وأنه على استعداد لمضاعفة الجزية المقررة عليه كسباً لود السلطان، وأن مملكة أرمينية الصغرى تعد بلاد ملاه الأشرف خليل، وهو نائب عنه فيها. وقد تقدم الرسل الأرمن بالهدايا الثيمنة من الأواني الذهبية والفضية والأواني المرصعة بالفصوص والبللور الفاخر، وغير ذلك من التحف النادرة[1].

ورغم الموافقة على مضاعفة القطعية[2]، والهدايا الثمينه، وفروض الولاء والطاعة، والاعتراف بالتبعية الكاملة لسلطنة المماليك؛ إلا أن الأشرف خليل صمم على المضي قدما فى حملته، وكان قد سبق له أن رحل من مصر قاصداً بلاد الشام فى يوم السبت ٢٨ مارس ١٢٩٢م/ثامن ربيع الآخر سنة ٦٩١هـ[3]، ودخل دمشق وعرض العساكر ومضى منها في يوم الاثنين ٥ مايو ١٢٩٢م/١٦ جمادى الأولى ٦٩١هـ[4]، فسار منها ألي حلب فدخلها في ١٧ مايو ١٢٩٢م/الثامن والعشرين من جمادى الأولى، ثم غادرها في ٢٣ مايو ١٢٩٢م/ السرابع من جمادى الآخر سنة ٦٩١[5] لمحاصرة "قلعة الروم" فنزل عليها يوم الثلاثاء ٢٧ مايو سنة ١٢٩٢م/ ٨ جمادى الآخر سنة ٦٩١هـ[1].

---

(١) العيني: جـ٢١، ورقة ٥٥-٥٦؛ ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص ٥٥٩.

(٢) "القطعية" هي إتاوة سنوية، تعهد ملك مملكة أرمينية الصغرى بدفعها لسلطنة المماليك. وقد ذكر القلقشندى نقلا عن العمرى أن القطعية المقررة على مملكة أرمينية الصغرى بلغت "ألف ألف ومائتي درهم، مع أصناف". أنظر : صبح الأعشى، جـ٨، ص٣٠؛ العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٥٦.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٨ ، ورقة ٢٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٠؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن الفرات: تاريخ الدول والملوك، جـ٨، ص١٣٦؛ مؤلف مجهول: كتاب نزهة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٤، ص٢٦.

(٤) العيني: عقد الجمان، جـ٢١ ، ورقة ٥٦؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ مؤلف مجهول: نزهة الإنسان، ورقة ٢١ب؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور، ص٢٧٢.

(٥) ابن الجوزي: جواهر السلوك، ورقة ١٠٩؛ محمد بن أبي بكر الصديق: نزهة الأبصار، ورقة ١٠٦ ب؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن ايبك: كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٢٨٤؛ المقريزى: السلوك،

لقـــد عـــول السلطان الشـــرف خليـــل علـــى ضـــم "قلعـــة الـــروم" الى حـــوزته حيـــن علـــم أن أهلـــها يوادعـــون التتـــــار، ويمـــــدونهم بالـــهدايا، ويمالئـــونهم علـــى المـــماليك، ويكثـــرون مـــن الإغـــــارة علـــى الأطـــراف الشامية. ولا أدل على المصاعـــب التي كـــان يثيـــرها أهـــالي هـــذه القلعـــة ضـــد سلطنـــة المـــماليك أكثـــر مما ورد فى الكتاب الذي أرســـله "علـم الدين سنجر الشجاعى"[٢] نائب السلطنة[٣] بدمشق الى شهاب الدين [٤] بن الخويّـــى"

جـــ١، ق٣، ص٧٧٨. أنظر أيضاً : LE ROI HETHOUM II, DANS. R.H..G., ARM., T.I, P. 542.

(١) الكتبى : جـــ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ ابن أيبك: جـــ٨، ورقة ٢٨٤؛ المقريزى: جـــ١، ق٣، ص٧٧٨؛ تـــاريخ الفرات، جـــ٨، ص١٣٦-١٣٩؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـــ٩، روقه ٢٩٦-٢٩٧؛ ابـــن عبـــد الظـــاهر: تشريف الأيام والعصور، ص ٢٧٢؛ ابن الجوزى: جواهر السلوك، روقه ١٠٩؛ محمد بن ابى بكر الصديـــق : نزهة الأبصار، ورقة ١٠٦ ب. أنظر أيضاً LE ROI HETHOUM II, PP. 542-543; MAKRIZI, HISTORIE DES SULTANS MAMLOUKS DE L'EGYPTE, TRAD. M. QUATREMERE, PARIS, 1845, T. II, 1 RE PARIS., P. 141.

(٢) هو "سنجر بن عبد الله الشجاعى المنصورى" ينسب الى "عز الدين الشجاعى" مشد الديـــوان. قتـــل ســـنة ٦٩٣هـــ/١٢٩٢م وكان من مماليك المنصور قلاوون. ترقى حتى ولى شد الدواوين، ثم الوزارة بالديار المصرية فى أوائل دولة الناصر محمد، وساءت سيرته وكثر ظلمه. ثم ولى نيابة دمشق فتلطف بأهلها وقل شره، ودام بهـا سنين ألي أن عزل بالأمير عز الدين أيبك الحموى، وقدم ألي القاهرة. وكان موكبه يضـــاهي الســـلطان مـــن التحميل. أنظر : أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـــ٨، ص٥١-٥٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر، جـــ٨، ورقه ٣٥٣ وما بعدها؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٢٠؛ تذكرة النبيه، جـــ١، ص١٧٢؛ الصقاعى: تالي كتـــاب وفيات الأعيان، ورقة ٤٣ب- ٤٤ أ. أنظر أيضا: فايز نجيب اسكندر: مملكة أرمينية الصغرى، الملحق الثـــاني، ص٢٦١، حاشية رقم ١.

(٣) "نائب السلطة" وظيفة ابتدعها الأيوبيون وأحياها السلطان "الظاهر بيبرس" مع ما أحياه من الوظائف الأيوبية. كان نائب السلطنة في ذلك العهد-كما يقول القلقشندى-"سلطانا مختصرا بل هو السلطان الثاني" ويعد نـائب السلطنة أكبر أمراء المئين، ويضعه "الخالدى" على رأس أرباب الوظائف بالعاصمة للتفاصيل بالعاصمة أنظـــر: القلقشندى: جـــ٤، ص١٦-١٧.

(٤) هو" شهاب الدين" ابن قاضى القضاء " شمس الدين الخوى الشافعي" قاضى قضاة دمشق وابن قاضيها. ولد في سنة ست وعشرين وستمائة (١٢٢٨م) وتوفى سنة ثلاث وتسعين وستمائة (١٢٩٣م). أنظر: الكتبى: فوات الوفيـــات-تحقيـــق إحسان عباس-جـــ٣، ص٣١٣-٣١٤، ترجمة رقم ٤٣٤؛ الصفدى: الوافي بالوفيات، جـــ٢، ص ١٣٧؛ ابن كثـــير: البداية والنهاية، جـــ١٣، ص٣٢٧؛ ابن العماد: شذرات الذهب، جـــ٥، ص٤٣٣؛ ابن خلدون: العبر، جـــ٥، ص ٣٧٩؛ السيوطى: حسن المحاضرة، جـــ١، ص٥٤٣؛ المقدسى: الأنس الجليل، جـــ٢، ص ٤٦٦.

(1) قاضى القضاه لهذه المدينة على أثر نجاح الأشرف خليل فى الاستيلاء عليـــــها. إذ جاء في هذا الكتاب(2):

"...... وكانت هذه القلعة المذكـــورة
للثغور الاسلامية بمنزلة الشجًا
فى الحلـــق والغلـــة فى الصـــــدر،
والخسوف الطارئ على طلعة البدر،
لا تخلو من غِلّ تُضمــــره، فى لــين
تظهره، وغدر تستره،
فى غدر تورده وتصدره. وقد سكن أهلها
الى مخادعة الجــــار، وموادعـــة التتـــار،
وممالأتهم على الاسلام بالنفس والمـــــال،
ومساواتهم لهم حتى فى الـــزى والحـــال،
ويمدونهم بالهدايا والألطاف، ويدلونهـــــم
على عورات الأطراف وهم يقفون بمسالمة
الأيام، ويدعـــون أن قلعتـــهم لم تـــزل
الحوادث فى ذمام ......"(3)

---

(1) نسبة إلى "خوى"، وهى مدينة بأذربيحان. (أنظر: القلقشندى: جـــ٤، ص ٣٥٩). وفى ياقوت "خوى، بلد مشهور من أذربيحان، حصين كثير الخير". أنظر: معجم البلدان، جـــ٢، ص ٤٠٨؛ البغدادي: جـــ١، ص ٤٩٣. أنظر أيضاً: فـــايز نجيب اسكندر: الحياة الاقتصادية فى أرمينية إبان الفتح الإسلامي، ص٧٩. وكذلك : خريطة رقم ١، ص٧٧، وخريطـــة رقم ٢، ص٨١..

(2) يوجد نص الخطاب فى كل من ابن أيبك: كنز الدرر، جـــ٨، ورقة ٣٢٧-٣٣٣؛ ابن الفرات: جـــــ٨، ص ١٣٩،١٤١؛ النويرى: نهاية الأرب، جـــ٢٦، ورقة ١٠٣ ب-١٠٧ أ؛ وملاحق السلوك. ص ١٢-١٦؛ ابن حبيب: تذكره النبيه، جـــ١، ص١٥١-١٥٢؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص١٤؛ اليونيني: ذيل مرآة الزمان، جـــ٣، ورقة ١١ب -١٣ب. انظر ايضا:

DANIEL DE THAURISIO FRATIS DANIELIS ADERRORES IMPOSITOS HERMENIS, P. 648, NOTE A; GESTES DES CHIPROIS, P. 839, NOTE C; R.H.C., DOC. ARM, T. I, P. LII; SEMPAD, P. 654. CF. REY, LES COLONIES FRANQUES, P. 318. وقد ذكر ابن الفرات أن هذا الكتاب من إنشاء الفاضل شرف الدين القدسي. أنظر : تاريخ ابن الفرات، جـــ٨، ص١٣٩.

(3) زترستين : ص١٤؛ النويرى : جـــ٢٩، ورقة ١٠١؛ اليافعي: مرآة الجنان، جـــ٤، ص ٢١٩؛ تـــاريخ ابـــن الفرات، جـــ٨، ص١٣٩-١٤٠.

وعقب ذلك، تحدث "علم الدين سنجر الشجاعى" عن حصانة قلعة الـــروم مما جعل سكانها يعيشون فى أمن وأمان، إذ يصعب على أي عدو الوصول إليها تنعـــم بحماية طبيعية، فيحيط بها الجبال الشاهقة، بل أن نهر الفرات ساهم بفاعلية فى حمايتـــها من أي عدوان آت من الشرق وزاد من مناعتها أن استدار نهر حولها الغرب "فـلنعطف معها كالسور"؛ إضافة إلى أن الخنادق تحيط بأوديتها. وقد أدرك السلطان الأشـــرف خليل مدى حصانتها [1]، ففي كتابة إلى قاضي القضاة "شهـــاب الـــدين الخـــويي" قـــارون بين قلعـــة الـــروم ومدينـــة عكـــا فقـــال: "كـــانت أحصـــن مـــن عكـــا"[2]. أمـــا بيبرس الـــدوادار[3] المنصـــورى[4] (ت ٧٢٥هـــ/١٣٢٥م)- الـــذي شـــارك بشخصـــه في حملـــة الأشـــرف خليـــل علـــى قلعـــة الـــروم - فقـــد ذكـــر أنـــها :

"... مـــن أحصـــن[5] القـــلاع
وأعظمهـــــا في الارتفـــــاع
والامتنـــاع ولا تتوصل إليها إلا مـــن
طـــريق صعبـــه المرتقـــى[6] كثيرة

(١) نزل السلطان الأشرف خليل بجيشه على قلعة الروم في يوم الثلاثاء ٨ من جمادى الآخر سنة ٦٩١هـــــ/٢٧ مايو ١٢٩٢. أنظر : تاريخ ابن الفرات، جـــ ٨، ص ١٣٦؛ المقريزى: السلوك، جـــ١ ق٣، ص٧٧٨؛ ابـــن أيبك: كنز الدرر، جـــ٨، ورقة ٣٢٣.

(٢) زترستين : ص١١.

(٣) "الدوادار" أي ممسك الداوة، والوظيفة اسمها "الداوادرية" وصاحبها يحمل دواة السلطان أو الأمـــير ، ويقـــوم بإبلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى إليه. أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـــ٥، ص ٢٦٢.

(٤) عن ترجمته أنظر: بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة في تاريخ الهجر-تحقيق زبيدة محمد عطا-ص٢١-٢٩؛ التحفـــة المملوكية في الدولة التركية-نشر عبد الحميد صالح حمدان-لبنان ١٩٨٧-ص٥-١٣؛ فايز نجيب اســـــكندر: مملكة أرمينية الصغرى، ص٢٣-٢٥.

(٥) في الكتبى "من أحسن"، والصحيح ما أثبتناه. أنظر: عيون التواريخ، ق١،جـــــــ١٢، ورقـــة ٦٤. والجديـــر بالملاحظة أن الكتبى نقل نقلا يكاد يكون حرفيا عن بيبرس الدوادار، مع حذف القليل من الجمل القصيرة الـــتي لا تخل من المعنى؛ حتى أن مخطوط "عيون التواريخ" قد ساعدنا على فك بعض طلاسم مخطوط "زبدة الفكـــرة"، إذ كان بمثابة نسخة ثانية له.

(٦)في الكتبى "المرتقا". عيون التواريخ، ق١،جـــ١٢، ورقة ٦٤..

العقاب والصوى[1] ، لا يستطيع الفارس سلوكها إلا راجلا
لوعورة[2] مسالكها
وصعوبتها على سالكها، وبحر الفرات
يجرى من تحتها ولا مترلة لمن ينازلها
إلا في لحفها...[3]"

في حين كان "أبو الفدا" في مصدره "المختصر في أخبار البشر" شديد الإيجاز في وصف حصانة قلعة الروم، إذ أورد

:"... وهى حصن على جانب الفرات
في غاية الحصانة ... [4] "

وكان حريصا أيضا على إظهار دوره[5] ودور عسكر حماة على وجه الخصوص في فتح قلعة الروم فقد ذكر في مصدرة أن

:"... هذا الحصار أيضا من جملة
الحصارات التى شاهدتها،
وكانت مترله الحمويين على
رأس الجبل المطل على القلعة من
شرقها[6] ، فكنا نشاهد
أحوال أهلها في مشيهم وسعيهم

---

(١) هكذا في بيبرس الدوادار، وجملة "كثيرة العقاب والصوى" ساقطة من الكتبى.

(٢) "لغور مسالكها" في عيون التواريخ، ق١، جـ١٢، ورقة ٦٤.

(٣) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة ، جـ٩ ورقة ٢٩٧؛ الكتبى: عيون التواريخ، ق١، جـ١٢، ورقة ٦٤؛ بيبرس الدوادار: تحقيق زبيدة عطا، ص٢٦٧؛ التحفة المملوكية، ص ١٣٠-١٣١. ويلاحظ اختلاف أسلوب بيبرس الدوادار في مصدره الثاني عن مصدره الأول، إذ أورد: "... وهى أحصن القلاع وأشهرها بالامتناع لأنها مرتفعة غاية الارتفاع، موضوعة في جبال صعبة المسالك ممتنعة عن السالك، لا يتخلص إليها الراجل إلا بعد التعب الشديد والجهد الأكيد، وليس حولها فسحة لترول العساكر وبحر الفرات يمر من تحتها ملاحفا ولمن يحاولها مزاحفا". قارن: زبدة الفكرة جـ٩، ورقة ٢٩٧ مع النص السابق ذكره والوارد في: التحفة المملوكية ، ص١٣٠-١٣١.

(٤) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، جـ٤، ص ٢٧.

(٥) أبو الفدا : جـ٤، ص٢٦. وقد أشار إلى ذلك اليونينى: ذيل مرآة الزمان، جـ٣، ورقة ١٠ب؛ المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص ٧٧٨.

(٦) في المقريزى: "كان منجنيق صاحب حماة على رأس الجبل". أنظر : السلوك: جـ١، ق٣، ص ٧٧٨.

في القتال وغير ذلك ... وكان منجنيق الحمويين على رأس الجبـــل المطل على القلعة. فتقـــدم مرســوم السلطان إلى صاحب حماة أن يرمـــي عليهم المنجنيق. فلما وترناه لـــنرمي عليهم طلبوا الأمان من السلطان.."[1]

ولقلعة الروم أهمية خاصة من الناحيتين الحربية والاستراتيجية، لتحكمـــها في الطريق البرى ألي بلاد الشام من جهة الشرق؛ ولذلك كانت تسمى "مفتـــاح بـــلاد الشام"[2] ، وهي ذات موضع حصين، وتقع في البر الغربي الجنوبي للفرات، شمال غـــربي حلب، على خمس مراحل منها، على مرحلة غربي البيرة[3]، ويمر بها نهـــر المرزيـــان[4] الذي يصب في الفرات. وتقع بين البيرة وبين سميساط[5].

وكان يسكن قلعة الروم أخلاط من الأرمن والتتار [6]. وكانت الكونتيســـة "بياتريس" BEATRICE قد أنعمت على بطريرك الأرمـــن[7] – أي الكـــاثوليكوس

---

(١) أبو الفداء: ج-٤، ص ٢٧؛ اليونيني : ج-٣، ورقة ١٠ب.

(٢) LE ROIHETHOUM II, DANS R.H.C., DOC. ARM., T. I, P. 543.

(٣) "البيرة" بلد قرب سميساط، بين حلب ومنطقة الثغور الرومية، وهي قلعة حصينة ولها رستاق واسع. (أنظـــر: ياقوت: جـــ٢، ص٣٣؛ البغدادي: جـــ١، ص٢٤). وفي الكامل أنها قلعة منيعة على الفرات مـــن الجـــانب الجزرى. أنظر: ابن الأثير: جـــ٩، ص ١٥٦. أنظر أيضاً :
DUSSAUD, TOPOGRAPHIE HISTORQUE DE LA SYRIE ANTIQUE ET MEDIEVALE, PARIS, 1924, P. 461.

(٤) "مرزبان" عرف هذا اللفظ "أبو الفدا" في "تقويم البلدان" في الكلام عن قلعة الروم، فقال بأنه نهر يجـــئ مـــن ناحية الجبل ويصب في الفرات تحت قلعة الروم. أنظر: أبو الفدا: تقويم البلدان، ص ٢٦٩.

(٥) "سميساط" بضم أوله، وفتح ثانية، وياء مثناه ساكنه وسين أخرى، ثم بعد الألف طاء مهملة: مدينة على شاطئ الفرات في طرف الروم، على غربي الفرات؛ ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن. أنظر: فايز إسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك والسلاجقة، ص٢١٥، حاشية رقم ٤٦٣؛ وص ٢٣؛ حاشية رقم ٥٤٨.

(٦) WIET, HISTORIE DE LA NATION EGYPTIENNE, PARIS, 1937, T. IV, P. 461

(٧) يسمى بطريرك الرمن "كاثوليكوس" CATHOLOCOS ، وهو الرئيس الأعلى لطائفة الأرمـــن. ويطلـــق الأرمن عليه "الكاتا غيكوس" . أما المصادر الإسلامية فتارة تلقبه "بترك الأرمن (أنظر: السلوك، جـــ١، ق٣، ص٧٧٨؛ ابـــن الفـــرات : جـــ٨، ص١٣٧)؛ وتـــارة ثانيـــة "بطـــرك الأرمـــن" أنظـــر: النويـــرى: جـــ٢٩، ورقـــة ١٠١ أ؛ عيـــون التواريـــخ، ق١، جـــ١٢، ورقـــة ٦٥؛ ابـــن أيبك : زبـــدة ، زبـــدة عطـــا، ص ٢٦٨)؛ وتـــارة ثالثـــة "كيتـــا غيكوس" أخـــذا مـــن الأرمـــن (أنظـــر: زترمـــستين، ص١٥، ١٧)، وتارة رابعـــة "الكـــاغيكوس" (أنظـــر: ابـــن شـــداد: النـــوادر السلطـــــانية، ص ١٢٤-١٢٥؛

CATHOLICOS-بهذا الموضع الحصين ليتخذه مقـــراً لـــه، كـــان ذلـــك ســـنة ١١٥٠م/٥٤٥هـ[1]. ومن هنا كان اهتمام الأشرف خليل بقلعة الروم ليجعل منـــها حصناً لصد غارات التتار على سلطنته وأن دل ذلك على شئ فإنما يدل علـــى عمـــق الخبرة لذلك العاهل المملوكي.

على أية حال، عندما علو الملك الأرمني "هيثوم الثاني" بمغادرة جيوش الســلطان المملوكي حلب في طريقها لمحاصرة "قلعة الروم" أســـرع بـــاحتلال ممـــرات جبـــال الأمانوس، وهي مفتاح الدخول ألي مملكة أرمينية الصغرى[2]، كذلـــك أردف ذلـــك التصرف الإستراتيجي بالإلحاح في طلب النجدات من خلفائه التتار، ولكنهم تـــأخروا عن إسعافه في الوقت المناسب. ففي هـــذا الصـــدد يذكـــر "رشـــيد الديـــن" (ت ٧١٨هـ/١٣١٨م) في مصدرة "جامع التواريخ" أنه

" ..وصلت الأنباء من الروم تفيد
إن جيش العداء قد وصل من الشام،
وأن الملك الأشرف قد حاصر قلعة
الروم. وفى شهر رجب توجه
"تايجو أغول بن منكوتيمور" و "طعارجار"
و"يوقدانى الاقتاجى" و "تماجى ايناق"
مع جيش مجهز للقضاء على هؤلاء الأعداء.
وفى نفس شهر شعبان توجه المير
"سوكاى" والأمير "تيمور بوقا"
و "قراجة" الى قلعة الروم عن طريق

ابـــن واصـــل: مفـــرج الكـــروب، جـــ٢، ص ٣٢٠)؛ وتـــارة خامســـة "كينا غيلـــــوس" (أنظـــــر: أبـــو الفـــدا: جـــ٤، ص٢٧)؛ وتـــارة سادســـة "خليفـــة الأرمـــن" أنظـــر : زترستيـــن، ص١٧.

(١) SMBAT, LA CHRONIQUE ATTRIBUEE AU CONNETABLE SMBAT, TRAD. GERARD DEDEYAN, PARIS, 1980, P. 55, N 34. VAHRAM DEDESSE, CHRONIQUE RIMEE DES ROIS DE LA PETITE ARMENIE, DANS R.H.C., DOC. ARM., I, P. 518; VARTAN LE GRAND, DANS R.H.C., DOS. RAM., I, P. 435.

(٢) LE ROIHETHOUM II, P 542.

أخلاط[1] وأرجيش[2]. ولكن الملك الأشرف استولى على قلعة الروم فى
أواخر رجب، وقتل بعض سكانها، واسر
البعض، وسلم القلعة ألي حراس من قبله ،
ثم عاد[3]..."

هذا بينما تحدث المؤرخ بيبرس الدوادار في مصدرية "زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة" و "التحفة المملوكية في الدولة التركية"[4] عن تلك النجدة التترية، إذ قال إن هدفها مفاجئة جيوش المماليك، وإكراههم على فك حصارهم لقلعة الروم؛ وارجع سبب انسحاب التتار الى ضخامة جيوش المماليك، إذ جرد السلطان الأشرف خليل أربعة من مقدمي الألوف، وانخرط

(١) " أخلاط" أو "خلاط" هى قصبة أرمينية الوسطى، وتقع الشاطئ الشمالى لبحيرة وان VAN، جنوب غرب ملاذكرد.
للتفاصيل أنظر : BRYENNIOS TR. GAUTIER, I, CH. XIV P. 108, N.2;
CONSTANTINE PORPHORIGENITUS, VOL. II, COMMENTARY, PP. 167-168. CF. CANARD, HISTOIRE DE LA DYNASTIE DES HAMDANIDES, PARIS, 1953, 184
أنظر ا ايضاً : فايز نجيب اسكندر: الفتوحات العربية الأرمينية – دراسة تاريخية مع عرض وتحليل ودراسة مقترنة للمصادر والمراجع-مجلة سيرتا-العدد ٨/٩-الجزائر ١٩٨٣-ص٣٨؛ البيزنطيين والأتراك السلاجقة فى معركة ملازكرد-الإسكندرية ١٩٨٤-ص٧١-٧٤، حاشية رقم ٧٢؛ الحياو الاقتصادية فى أرمينية إبان أرمينية إبان الفتح الإسلامي، ص ٤٠-٤١.

(٢) "أرجيش" مدينة من نواحى أرمينية الكبرى، قرب خلاط، وتقع على الشواطئ الشمالية لبحيرة وان VAN ، وأكثر سكانها من الأرمن. للتفاصيل أنظر: فايز نجيب اسكندر: أرمينية بين البيزنطيين والأتراك السلاجقة، ص٢١١، حاشية رقم ٤٤٦.

(٣) رشيد الدين : جامع التواريخ، تاريخ المغول، المجلد الثانى-نقلة عن الفارسية فؤاد عبد المعطى الصياد-القاهرة ١٩٦٠-جـ٢، م٢، ص ١٧٨-١٧٩.

(٤) "التحفة المملوكية" ما هو إلا موجز المخطوط زبدة الفكرة، إلا أن بيبرس الدوادار توقف فيه عن أحداث سنة ٧١١هـ/١٣١١م. وبمقارنة المصدرين نلاحظ أن "التحفة المملوكية" فيه تفسير وتوضيح لبعض موضوعات "زبدة الفكرة" الموجزة؛ وخير مثال على ذلك، تناول المصدرين لثورة المماليك السلطانية الأشرفية سنة ٦٩٤هـ/١٢٩٤م؛ إذ جنح الدوادار الى سرد أحداثها بإيجاز فى "زبدة الفكرة" في حين زودنا بتفاصيلها في "التحفة المملوكية" .

المؤرخ بيبرس الدوادار المنصوري في تلك التجريدة[1] ، وكان من مضافى الأمير بدر الدين بكتاش[2] أمير سلاح[3] .

هكذا حاصرت جيوش الشرف خليل قلعة الروم، واستمر حصارها حوالي ثلاثة وثلاثين يوما، وضربت أسوارها بعشرين منجنيقا. وقد عين "النويرى" (ت ٧٣٢هـ- ١٣٣٢م) في مخطوطة "نهاية الأرب في فنون الأدب" أنواع هذه المجانيق فقال أن

"... خمسة منها فرنجية وخمسة عشر قرابغا{صحتها "قرابغرى". أنظر: أرنبغا الزردكاش: الأنيق فى المنلجيق، ص٣،٧،٨} وشيطانية...[4]"

---

(١) "التجريدة" جمعها "تجاريد" بمعنى الحملة الحربية. أنظر: خليل بن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك-باريس ١٨٩٤- ص ١٣٦.

(٢) هو "بكتاش بن عبد الله الفخري"، الأمير بدر الدين، المتوفى سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م. وقد اتصف بالشجاعة والعقل والخير وكان مقدما على الجيوش. أصله من مماليك الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، ثم نقل الى ملك الملك الصالح نجم الدين، فترقى فى الخدمة حتى صار من أكابر الأمراء، وغزا غير مرة. ولما قتل الملك المنصور لاجين أجمعوا على سلطنته فامتنع وأشار بعود السلطان الناصر محمد ابن قلاوون. للتفاصيل أنظر: المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافي-تحقيق نبيل عبد العزيز-القاهرة ١٩٨٥-جـ٣، ص٣٨٥، ترجمة رقم ٦٧٥؛ ابن حجر العسقلاني: الدرر الكامنة، جـ٢، ص١٤، ترجمة رقم ١٣٠١؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٧٢؛ الصقاعى: تالى كتاب وفيات الأعيان-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 2061 – ورقة ٥٦، ترجمة رقم ٨٦؛ المقريزى: المقفى الكبير-مخطوط بالمركز القومي للأبحاث العلمية بباريس CNRS رقم 2832 – ورقة ٢٥٤ أ -٢٥٥ ب؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص ٢٢٤؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١، ص٢٧٧.

(٣) يلي الأتابكية فى المكانة وظيفة "أمير سلاح"، وصاحبها هو رئيس السلاحدارية من المماليك السلطانية، ووظيفته حمل سلاح السلطان فى المواكب العامة والأشراف على السلاح خاناه. ويأتي بعده "أمير مجلس" ثم "الدوادار الكبير" الذي يتولى تبليغ الرسائل للسلطان، ورفع القصص، وتقديم البريد إليه؛ كما يحصل على تصديق السلطان على المناشير والتواقيع. أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص١٨-١٩.

(٤) النويرى : جـ ٢٩، ورقة ١٠٠ ب. أنظر أيضا: ابن الفرات: جـ ٨، ص٣٦ أ؛ ابن الجوزى: جواهر السلوك، ورقة ١١٩؛ ابن أبى الفضائل: ص ٢٨٩؛ الباعونى: أرجوزة لطيفة فى التاريخ-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1615 – ورقة ٢٣؛ الذهبى: العبر فى أخبار من عبر مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1680 – جـ٢، ورقة ٢٢٤ب، الصديقى: نزهة الأبصار وجهينة الأخبار-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 1561 ورقة ١٠٦ب-١٠٧ب؛ محمد بن

هذا وقد زودنا "المفضل بن أبي الفضـــائل"[1] (توفي في منتصـــف القـــرن الثـــامن الهجري/منتصف القرن الرابع عشر الميلادي) في مصدره "النهج السديد والدر الفريـــد فيما بعد تاريخ ابن العمد" بتفاصيل عن مواضع تلك المجانيق، إذ جاء في مصدره :"... وحكى الأمير سيف الديـــن بـــن المحفدار، قال إن مدة المقام على حصـــار قلعة الروم ثلاثة وثلاثون يوما، وعدة مـــا نصب عليها من المجانيق تســـعة عشـــر، فرنجية خمسة، وقا بغايية {هكذا فى الصل وصحتها كما وردت فى معظم المصـــادر: قرابغرى} وشيطانية أربعة عشر، خارجـــا عن منجنيق صاحب حمـــاة علـــى رأس الجبل[2] ، ومن الجهة البحريـــة الفراتيـــة الأفرام إثنان، والسلطان واحد فرنجـــى، ومن الجهة الشرقية وعلى جانب الفـــوات بيبسرى واحـــد، ومـــن الجهـــة الغربية

أبي السعادات: تاج المعارف وتاريخ الخلايق، ورقة ٦٤ ب، اليافعي: غربال الزمان، ورقة ١٦٧ب؛ المقدسـي: نزهة الناظرين، ورقة ٤١ أ. والفرنجية، والقرابغا، والشيطانية ضرب من السلاح وهو نوع من المجانيق. (أنظـر: ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور، ص ٧٨، حاشية رقم ٢). وقد تحدث "أرنبغـــا الزردكـــاش" فى مصدره "الأنيق في المناجيق"-الـــذي يعـــد أهـــم المصـــادر الإسلاميـــة علـــى الإطلاق عن تلـــك الآلـــة المنجنيق المختلفة فقال: "... ومنه الكبير والصغير: فمنه المنجنيق الحربى "القرابغرى" ، وهو عبارة عن آله مـــن خشب جيد لها دقتان قائمتان، تقع فوق كل واحد منهما جتيرة من خشب وثيق، وبينهما سهم-عريـــض، فثقيل من جهة الذنب، نحيف، فخفيف من ناحية الرأس-قـــد زود بـــأصبع (ص٣)... والمنجنيـــق الحـــربى "القرابغرى" على شاكله المنجنيق الفارسى أو التركى، إلا أن هذا الأخير بدفة وجتيرة واحـــدة (ص٧-٨) ... ومنه أيضا "الفرنجى"، وهو على ثلاثة أنواع: الأول بصندوقين وسهم يدور من أى جهة يريد الإنســـان (ص٣) ... والمنجنيق الفرنجى مماثل للمنجنيق السلطانى (ص٧) للتفاصيل أنظر : الأنيق فى المناجيق-تحقيق نبيل محمـــد عبد العزيز-ص٣ وما بعدها .

(١) عن ترجمة "مفضل بن أبي الفضائل" وتحليل مصدره أنظر : فايز نجيب إسكندر : مملكة أرمينيـــة الصغـــرى، ص٣٦-٤٠.

(٢) فى أبي الفداء :"... وكان منجنيق الحمويين على راس الجبل المطل على القلعة..." أنظر: المختصر فى أخبـــار البشر، جـــ٤، ص٢٧.

خمس قوا بغاييه {صحتها: قرابغرى} وشيطانية فى الوادى خمسة عشر.[1]"

وقد سلط "ابن الجوى"فى مخطوطة "جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك" الأضواء على الصعوبات التي لاقاها جيش المماليك أثناء حصارة لقلعة الروم إذ أورد

:"...حكى لى الأمير سيف الدين بن المحفدار أمير جاندار[2] قال : ومما جرى لنا من العجايب على قلعة الروم فى شهر أبيب وهو تموز والعسكر نازل عليها قال: فبينما نحن عليها وإذ لقد هبت رياح مزعجة قوية جدا وشرار وشعب الى أن رمت ساير الخيام وباتت الناس على وجل، وأصبح فى الغد رعدت السماء رعدا قويا الى أن ظنوا أن السماء تقع على الأرض، وزلت صاعقة أحرقت ثلاثة أنفس أحدهم مات والآخر احترق نصفه والآخر من الخوف انخلع قلبه ومات[3]"

على أية حال، ضرب الأشرف خليل الحصار حول "قلعة الروم" ، وأخذت المنجنيقات ترميها بالأحجار. وقام الأمير "علم الدين سنجر الشجاعى" نائب دمشق بعمل برج خشبى تعلوه قبة، وغطاه باللبود، وحصنه من كل جانب، وأدخل فيه جنودا يقاتلون وهم بداخله. واستمرت الجيوش المملوكية عشرين يوما في حصارها للقلعة، ولكنها لم تنل منها منالا. فأجمع الأمراء على توصيل النقابين [4] ألي سور الحصن، وأدخلوا من

---

(١) ابن أبي الفضائل: النهج السديد، ص٣٨٩، أنظر أيضا: المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص ٧٧٨؛ زنرستين: ص١٦.

(٢) "أمير جاندار" هو الأمير الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامهم فى الديوان، ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر. أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص٢٠؛ جـ٥، ص ٤٥٩.

(٣) ابن الجوزى: جواهر السلوك فى الخلفاء والملوك-مخطوط بالمكتبة الوطنية بباريس رقم FONDS ARABE 7639 - ورقة ١١٩-١٢٠ . أنظر أيضا: اليونينى : ذيل مرآة الزمان، ورقة ١٣ ب - ١٤ أ.

(٤) طريقة "نقب الأسوار" من الطرق المعتادة التي أستخدمها الجيش الأيوبي والمملوكي. وكانت قائمة على نقب أسوار الحصن نقبا حيث تصبح محمولا على قوائم من الخشب المدهون بالنفط يتم دقها بواسطة النقابين عقب ذلك، تملأ المسافة بين القوائم بمواد سريعة الاشتعال كالقش والحطب ونشارة الخشب، ثم تشعل فيها النيران التي بدورها تلتهم القوائم الخشبية، فيسقط السور، ويجد المهاجرون طريقهم إلى الحصن. وحفاظا على أرواح النقابين وخوفا من وقوع السور عليهم، وحماية لهم من التعرض لسهام المدافعين عن الحصن ونيرانهم فى محاولة منهم لوضع حد لعملية النقب، كان يتقدم النقابون ستار واق أطلق عليه

الزحافات[1] نحواً من ثمانين حجاراً بمعاولهم، وتقدم الجنود نحو الأسوار. كما قام فريق آخر من الجند برمى السهام ألي القلعة حتى يشغلوا الأرمن عن النقابين. وأخذ النقابون يعملون بمعاولهم في الأسوار، ولكنهم لم يستطيعوا نقبها لصلابة أحجارها [2].

وأتفق في ذلك الوقت أن وصل المعسكر السلطاني نفر من "آل مهنا[3]" وأخبروا السلطان أنهم رأوا جيشا تتريا ثان في طريقة إلى قلعة الروم. فجمع خليل الأمراء للتشاور في الأمر. وفى نفس الوقت أسّرت ألي بيدارا[4] أن يشير على الأمراء بالرحيل وترك القلعة على أن يرجعوا إليها في العام القادم وذلك لشدة البرد وغزارة الأمطار والثلوج هذا العام، بالإضافة ألي خطر التتار الذي يهدد الجيش السلطاني المحاصر للقلعة. فلما سمع الأمراء كلام بيدار سكتوا؛ فقال لهم خليل:

- ماذا تقولون في كلام بيدار ؟

الصليبيون اسم "تستودو" TESTUDO ؛ بينما عرف فى المصادر الإسلامية بعديد من الأسماء منها: المتراسة والجنوية، والطورق والدبابة، والأبراج الخشبية المجلدة الخ.. راجع فى ذلك: فايز نجيب اسكندر: فن الحرب والقتال، ص ١٠١، حاشية رقم ٤. وأيضا: OMAN, ART OF WAR, II, P. 50; ARCHER & KINGSFORD, THE CRUSADES, P. 352.

(١) "الزحافات" مفردها "زحافة" وهى آلة من آلات الحرب والحصار. أنظر : سعيد عبد الفتاح عاشور: العصر المماليكى في مصر والشام، ص٤٢٢.

(٢) العيني: جـ٢١، ق١، ورقة ٤١-٤٢؛ السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨.

(٣) "آل مهنا" من عشائر البدو المنتشرة في بادية الشام. (للتفاصيل أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص ٢٠٣-٢٠٨). وكان عرب آل مهنا وعرب آل فضل من أبرز من جلبوا للسلطان الناصر محمد الخيول من بلاد الشام، فأصبحوا أصحاب خطوة لديه، وأقطعهم عدة ضياع بأرض حماه وحلب. أنظر: المقريزى : الخطط، جـ ٢، ص ٢٢٤؛ السلوك، جـ٢، ق٢، ص ٥٢٦-٥٢٧. وأيضا: حلمي محمد سالم: اقتصاد مصر الداخلي وأنظمة في العصر المماليكي، ص ٢٢٣؛ سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام، ص٢٠٦.

(٤) هو "بيدار بن عبد الله المنصورى" نائب السلطنة فى الدولة الأشرفية، وهو الذي خرج على الأشرف خليل وقتله سنة ٦٩٢هـ/١٢٩٢م وتسلطن بعده وتسمى بالملك الأوحد لمدة يوم واحد تقريبا حتى قتله خاصكية خليل وعلى رأسهم زين الدين كتبغا الذي تسلطن بعد سلطنة الناصر الأولى. للتفاصيل أنظر: ابن الفرات: جـ٨، ص١٧٧-١٨٨؛ المقريزى: السلوك جـ١، ق٣، ص٧٨٢-٧٩٢؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ٩٨؛ الإسحاقى: لطائف أخبار الأول، ورقة ١٥٨أ؛ مؤلف مجهول: كتاب في تاريخ العالم من آدم ألي الغزو العثماني، ورقة ٨٩ب؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص١٩؛ المقريزى، المقفى، ورقة ٢٧٦أ-٢٧٧أ؛ التلمسانى: سكردان السلطان، ورقة ٩٥ب؛ الطولونى: النزهة السنية فى ذكر الخلفاء والملوك المصرية، ورقة ٩٨أ.

- فقال الأمراء إنهم مصممون على البقاء حتى تسقط قلعة الروم، لأن رجوعه بدون أخذها بعد ذلك الجهد والحصار الطويل فيه خدش ومهانة لكرامة السلطان وجيشه. ثم قال خليل :
- وما العمل مع التتار الذين عبروا الفرات ؟
- فقال الأمير سنقر الأشقر[1]، السلطان يأمرنا وأنا مستعد أن اركب مع بعض الأمراء لنقابل التتار، على أن يستمر السلطان في حصار القلعة حتى لا يشمت فينا الأعداء[2] .

---

(١) كان "سنقر الأشقر" مقيما بصهيون منذ سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، وقد انتهى ما بينه وبين السلطان قلاوون من الجفاء والصلح منذ شهر صفر سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م؛ واعتقد السلطان وهو بالمرقب أن سنقر الأشقر سيسير إيه وهو بها، أداء لواجب التابع نحو المتبوع، لكنه لم يفعل شيئا منذ ذلك. وعاد السلطان ألي مصر حانقا على سنقر، لما ظهر منه من قلة الوفاء وكثرة الجفاء. وجدير بالذكر أن السلطان قلاوون كان قد ولاه نيابة السلطنة في دمشق في سنة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م. وتوفى سنقر مقتولا في سنة ٦٩١هـ/١٢٩١م. للتفاصيل عن خروج سنقر الأشقر على الملك المنصور قلاوون، راجع: ابن حبيب: تذكرة النبيه ، جـ١، ص١٥٧؛ نهاية الأرب، جـ٢٩، ورقة ٦٩-٧٠، ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١١٢؛ كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٣٤٠؛ السلوك، جـ١، ق٣ ص ٧٨١-٧٨٢؛ تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص ١٥١؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، ورقة ١٤٩-١٥٠؛ الصقاعي: تالي كتاب وفيات الأعيان، ورقة ٨٥، ترجمة رقم ١٢٧؛ ابن الوردي: تتمة المختصر، جـ٤، ص١٣؛ ابن خلدون: العبر، جـ٥، ص٣٩٦؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٢٩٨-٢٩٩؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، جـ٣، ورقة ١١٠-١١٣. أنظر أيضاً : DARDEL, CHRONIQUE D'ARMENIE, DANS R.H.C., DOC. ARM., T.H. PP. 14-15, NOTE 2.

(٢) العيني: عقد الجمان، جـ٢١، ق١، ورقة ٤١-٤٢. ونستخلص مما أورده العيني أ، بيبرس الدوادار لم يكن شاهد عيان إلا في التجريدة التي أرسلها الأشرف خليل لمواجهة النجدة التترية، وكان من مضافي الأمير بدر الدين بكتاس-كما أوردنا في المتن-أما أوائل عمليات الحصار لقلعة الروم، فلم يكن شاهد عيان لها. أضف الى ذلك أنه لم يكن على علم بكتابات البشرى بفتح تلك القلعة، ومنها كتاب أرسله الأمير علم الدين الشجاعي (جاء في ابن الفرات والنويري أن هذا الكتاب كان من انشاء الفاضل "شرف الدين القدسي". أنظر: تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص١٣٩؛ نهاية الرب، جـ٢٩، ورقة ١٠١ أ) الى قاضي قضاة دمشق (ورد ذكر هذا الكتاب في تاريخ سلاطين المماليك-تحقيق زترستين-ص١٢-١٦، اليونيني : ذيل مرآة الزمان ، جـ٣، ورقة ١١ب-١٣ب؛ النويري: جـ٢٩، ورقة ١٠١ أ-١٠١ب؛ ابن أيبك كنز الدرر، ورقة ٢٨٧-٢٩٢؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه ، جـ١، ص١٥٠-١٥١؛ درة الأسلاك، ورقة ١١٠-١١١؛ ابن الجوزي: جواهر السلوك في الخلفاء والملوك، ورقة ١١٣-١١٩؛ ابن الفرات: جـ٨، ص١٣٧-١٣٨) وكذلك الخطاب الذي أرسله السلطان الأشرف خليل الى نفس القاضي؛ (عنه أنظر: زترستين، ص١٠-١٢؛ ابن أيبك: كنز الدرر، ورقة ٢٨٤-

وبالفعل، رسم السلطان لسنقر الأشقر وبدر الدين بكتاش الفخري أمير سلاح للزحف لملاقاة التتار. وكان عدد ذلك الجيش ألفى فارس، انضم إليهم جنود من البدو من آل مهنا، وآل فضل(١)، وآل مرا (٢)، وبنى كلاب(٣)، وأمراء التركمان(٤). وجد الجيش في المسير نحو الفرات وغيره، وسار إلى البر الشرقي نحو يوم وليلة فلم يجد أثراً للتتار الذين ولوا مدبرين بعد تلك المجابهة الثانية(٥).

١٨٧؛ النويرى: جـ٢٩، ورقة ١٠٠ب-١٠١أ) وأخيرا الكتاب الذي كتبه الأمام شهاب الدين عبد العزيز بن كمال الدين أحمد بن العجمي. (أنظر: ابن حبيب: تذكره النبيه، جـ١، ص١٥٢-١٥٣؛ درة الأسلاك، ورقة ١١١). - ففي الكتب الثلاثة إشارات مختصرة عن المجهودات الأولية التي قام بها الجيش المملوكي في سبيل الاستيلاء على قلعة الروم ، والتي أغفل المؤرخ بيبرس الدوادار ذكر تفاصيلها رغم كونه شاهد عيان لها .

(١) "آل فضل" هم بنو "فضل بن ربيعه"، ومنازلهم من حمص ألي قلعة جعبر ألي الرحبة آخذين على شقى الفرات وأطراف العراق حتى ينتهي حدهم قبله بشرق ألي الوشم آخذين يساراً إلى البصرة. أنر: القلقشندى: قلائد الجمان في قبائل الزمان ، ص٧٦؛ صبح الأعشى، جـ٤ ، ص٢٠٤-٢٠٨. بمعنى أنهم انتشروا بين العراق والشام على جانبى الفرات.

(٢) "آل مرا" نسبة إلى "مرا بن ربيعه"، وهو أخو "فضل بن ربيعه" ومنازلهم فى حوران. للتفاصيل أنظر: القلقشندى: صبح الأعشى، جـ٤، ٢٠٨-٢١٠؛ ابن طولون: مفاكهة الخلان فى حوادث الزمان-تحقيق محمد مصطفى-القاهرة ١٩٦٢-١٩٦٤- جـ١، ص٩٨، ١٠٤، ١٩٦. ويدعى آل فضل وآل مرا وآل مهنا وآل على أنهم من ولد جعفر بن يحى البرمكى من العباسة بنت المهدى، واتباعهم من أشتات العرب، ودونهم عربان بنى مهدى بالبقاء وزيد بحوران وبنو خالد بحمص. أنظر: العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٧٩؛ ابن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك، ص١٠٥؛ العمرى: مسالك الأبصار، جـ٣، ورقة ٢٣، ٣٤.

(٣) "بنو كلاب" من أعراب حلب، وكانوا بشمال الشام. للتفاصيل أنظر: ابن ميسر: أخبار مصر-نشر هنرى ماسيه-القاهرة ١٩١٩-جـ٢، ص٤٠؛ القلقشندى ك جـ٤، ص ٢٣١-٢٣٢.

(٤) كان "التركمان" ينتشرون فى معظم أنحاء بلاد الشام، وبخاصة مناطق الفرات. "وكانوا طوائف كثيرة وجماعة كبيرة". ويعدد القلقشندى عشر طوائف من تركمان الشام . (للتفاصيل أنظر: القلقشندى: جـ٧، ص١٩٠،٢٨٢؛ ابن شاهين الظاهرى: ص١٠٤-١٠٥)، وقد استعانت سلطنة المماليك ببعض قبائل التركمان، ووفرت لهم الإقطاعيات نظير قيامهم على حماية أطرافها من الأعداء التاخمين وهو. الصليبيون والتتار والأرمن، هذا فضلا عن مهمة إخضاع القبائل التركمانية الأخرى التي كانت كثيرة الإغارة على بلاد سلطنة المماليك. واستقرت الأمرة على التركمان في الأطراف الشمالية في بيت "دلغادر" تارة وبيت "ابن رمضان" تارة أخرى. وهؤلاء اشهر طوائف التركمان. (للتفاصيل أنظر: القرمانى : أخبار الدول، ص٣٢٩-٣٤٠. أنظر: حلمي محمد سالم: علاقات مصر الخارجية في عهد السلطان الظاهر برقوق، ص٥-١٩). و لم تكن أملاك الإمارات التركمانية مستقرة بصفة مستديمة بسبب النزاع المستمر بينهما، والذي كان ينتج عنه زيادة ونقصانا في بعض هذه الأملاك . أنظر: حلمي محمد سالم : المرجع السابق ، ص٩-١٩.

(٥) الدوادار : جـ٩، ورقة ٢٩٨-٢٩٩؛ العيني: جـ٢١، ق١، ورقة ٤٢.

ولما بلغ السلطان المملوكي خبر فرار التتار ، زاد في عزمه وفى عزم جيشه على مواصلة حصار القلعة. ومما ساعد جيوش خليل على النصر أن الأمير "علم الدين سنجر الشجاعى" -الذي كان له النصيب الأوفى في فتح قلعة الروم- تحيل في عمل سلسلة عظيمة علقها بأسوار بواسطة هذه السلسلة حتى تمكنوا من دخول القلعة، وبذلك نجحوا في تخريبها، ورفعوا أعلام السلطان عليها [١].

"... ثم تتابعت العساكر فملكوا
القلعة ولعت السناجق [٢] بسرعة وقتل
من وجد فيها من المقاتلة [٣]..."

وكانوا من الأرمن والتتار، وأسروا مائتي رجل وطف وامرأة، وأحرقوا قصر البطريرك الأرمني وكنيسة، كما أسروا بطريرك الأرمن ستيفانوس الرابع [٤] (١٢٩٠-١٢٩٣م) STEPHANOS IV وأرسل الى المقدس حيث صلب. أما القساوسة وباقي الأسرى فد أرسلوا إلى القاهرة [٥].

---

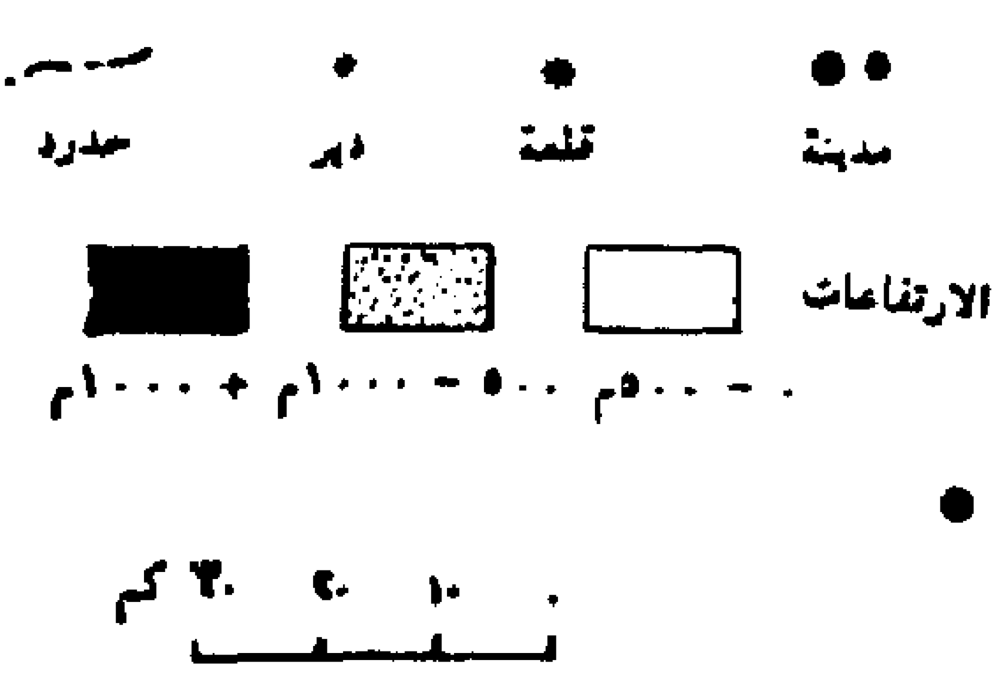
(١) ابن الفرات: جـ٨، ص١٣٦؛ الكتبي: عيون التواريخ، جـ١، ق١٢، ورقة ٦٤؛ المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ الدوادار: زبدة الفكرة، جـ٩، ورقة ٢٩٨-٢٩٩.

(٢) "السناجق" مفردها "سنجق"، وهو لفظ تركي كان يطلق أصلا على الرمح، ثم أطلق على الرايات الصفر الصغار التي تربط بطرف الرمح ويحملها السنجقدار. وكانت السناجق تحمل بين يدي السلطان في مواكبة. أنظر: القلقشندى: جـ٤، ص ٨؛ جـ٥، ص ٤٥٦-٤٥٨؛ ابن واصل: مفرج الكروب، جـ١، ص١٩٠، حاشية رقم ٢.

(٣) الكتبى : جـ١، ق١٢، ورقة ٦٥.

(٤) يدعى "ستيفانوس الرابع كلايتسى" KLAIETSI أي من "قلعة الروم" تولى كرسي بطريركية الأرمن خلال الفترة من ١٢٩٠م إلى أن توفى سنة ١٢٩٣م. للتفاصيل أنظر : BAR HEBRAUS , CHRONICON SYRIACUM, PARIS, 1789, P. 579, TOURNEBIZE, P. 221; HONIGMANN, RUMQAL'A ENC. ISLAM, P. 1258.

(٥) الصديقى : نزهة الأبصار ، ورقة ١٠٧ أ؛ أبن الجوزى: جواهر السلوك ، ورقة ١٢١؛ المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٩؛ ابن الفرات: جـ٨، ص١٣٧؛ ابن حبيب: تذكرة النبيه، جـ١، ص١٤٩؛ زترستين؛ تاريخ سلاطين المماليك، ص١٧. والجدير بالذكر أن المورخ الفرنسي المحدث رينيه جروسيه ذكر أن البطريرك الأرمنى ستيفانوس الرابع اقتيد أسيرا الى دمشق حيث توفى في العام التالي. أنظر .L'EMPIRE DU LEVANT, P. 412 وبسقوط قلعة الروم ، انتقل مقر بطريرك الأرمن الجديد ألا هو جريجور السابع (١٢٩٣-١٣٠٧م) GRIGOR VII إلي "سيس" عاصمة مملكة أرمينية الصغرى. وظلت سيس عاصمة لبطاركة الأرمن حتى سنة ١٤٤١م. أنظر: ;TOURNEBIZE, P.221 GROUSSET, P. 412.



مملكة قيليقية الأرمنية
في منتصف القرن الثالث عشر
مدينة
قلعة
دير
حدود
الارتفاعات
٠ - ٥٠٠م ٥٠٠ - ١٠٠٠م + ١٠٠٠م
١٠ ٢٠ ٣٠ كم
شمال
قونية
إمارة حلب
إمارة أنطاكية
حلب
أنطاكية
الأثارب
ارمناز
حارم
ارتاح
رأس الخنزير
بحيرة العمق
أرسوز
الاسكندرونة
خليج الاسكندرونة
اياس
المصيصة
أضنة
طرسوس
سيس
تل حمدون
أمرتاي
نهر جيحان
نهر سيحان
نهر كيدنوس
أبواب قيليقية
مرسين
سلوقية
الكانا
آنامور
أنداوسك
باباترل
منبج
تل باشر
البيرة
كيسون
بهسنا
فاليا
الأنهر الأسود
نهر الأسود
فايز نجيب إسكندر

واتفق بعد ذلك وصول الأمير "سيف الدين جنكلى[١]" الى القاهرة، فذكر أنه كان فى تلك السرية، وكان عدد التتار حوالى عشرة آلا ف فارس بقيادة أحد الأمـراء ويدعى "بيتمش" وكان هدف التتار مباغتة الجيش المملوكي وأخذه على غـرة أثنـاء حصاره لقلعة الروم. ولكن لما رأى الجيش التترى كثرة عدد جيش المماليك قفـل راجعا. وفى غضون ذلك، أصاب الجمال مرض مميت فأباد أكثرهـا، فاضطر الجيـش المملوكى الى حمل الأثقال على البغال[٢].

وعقب سقوط قلعة الروم يوم السبت ١٦ يونيو سنة ١٢٩٢م/١١ رجب سنة ٦٩١[٣]هـ أمر السلطان بأن يمحها عنها سمة الرومية وأن تسمى "قلعـة المسـلمين"، ورتب الأمير " علم الدين سنجر الشجاعى" نائب الشام لعمارتها. فعمر مـا هدمتـه المجانيق والثقوب وخرب ربضها[٤] . كما عين الأمير " جمال الدين أتشي" نائبا علـى "قلعة المسلمين[٥]".

---

(١) هـو الأمير "سيف الدين جنكلـى بن محمـد بن البابا بن جنكلـى بن خليـل بن عبـد الله" المعـروف بـ"أبن الباب العجلى" أتابك العساكر. وكان أصله من بلاد الروم. طلبه الملك الأشرف خليل وكتب له منشـورا بالإقطاع الذي عينه عليه فلم يتفق حضوره إلا فى أيام الملك الناصر محمد فى سنة أربع وسبعمائة. فأمره وأكرمة ولا يزال يرقيه حتى صار نائب الكرك. وتوفى سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م. للتفاصيل ـنظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهـرة، جـ١٠، ص١٤٣-١٤٤.

(٢) الدوادار: زبدة الفكرة ، ص٢٦٨؛ التحفة المملوكية، ص١٣١. أنظر أيضا HOWORTH, HISTORY OF THE MONGOLS, LONDON, 1876, T.III, P. 336 .

(٣) أدرج رينيه جروسيه سقوط قلعة الروم ع ٢٩ يونيو ١٢٩٢م، أنظـر L'EMPIRE DU LEVANT, P.412 وصحة ذلك ما أثبتناه فى المتن استنادا إلى إجماع كافة المصادر الإسلامية على ذلك. أنظر: الدوادار : زبدة الفكرة، ص٢٦٧؛ التحفة المملوكية، ص١٣١؛ ابو الفداء: جـ٤، ص٢٧؛ النويرى: جـ٢٩، ورقـة ١٠٠ب؛ السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ اليونينى : ذيل مرآة الزمان، جـ٣، ورقة ١٠ب؛ النجـوم الزاهـرة، جـ٨، ص١٢؛ ابن الفرات: جـ٢، ص٢٨؛ العينى : جـ٢١، ورقة ٥٦ أنظر أيضاً : SEMPAD P. 654; LE ROI HETHOUM II, P. 543; SAMUEL D'ANI, P. 463

(٤) "الربض" سوق القلعة أو المدينة وما حولها من بيوت ومساكن. أنظر : ابن واصل: مفرج الكروب، جـ٤، ص١٩٠ حاشية رقم ٢.

(٥) أبو الفداء : جـ٤، ص٢٧؛ الدوادار : زبدة الكرة ، ص٢٦٨؛ التحفة المملوكية، ص١٣١؛ الذهـبى : كتـاب دول الإسلام ـتحقيق فهيم محمد شلتوت-القاهرة، ١٩٧٤-جـ١، ص١٣٩؛ اليونينى : ذيل مرآة الزمان، جـ٣، ورقـة ١٤أ؛ تاريخ ابن الفرات، جـ٨، ص١٣٧؛ كتاب تاج المعارف وتاريخ الخلايف، ورقة ٦٤ب؛ قلماز: العـبر، ورقـة ٢٢٤ب؛ اليافعى: غربال الزمان، ورقة ١٦٧ب؛ نزهة الأبصار، ورقة ١٠٧أ؛ الكتبى : عيون التواريخ، ورقة ٦٥.

هكذا سقطت قلعة الروم في قبضة المماليك بفضل الحيلة الحربية الماكرة التي ابتدعها "علم الدين سنجر الشجاعى" نائب دمشق. وكان السلطان قد رحل ألي حلب فأقام بها بقية رجب وشعبان. ومالبث أن عاد ألي دمشق فرحب به أهلها، وبسطوا شقق الحرير التى لم تجر العادة بأعدادها إلا عند قدومة من مصر. ولكن وزيرة "شمس الدين بن السلعوس" اشار بوضعها فى طريقة احتفاء بفتحة قلعة الروم. وأمضى الأشرف خليل فى دمشق شهر رمضان المبارك وعيد الفطر، ثم عاد الى مصر فدخل "قلعة الجبل" فى يوم الأربعاء ١٥ أكتوبر سنة ١٢٩٢م/ ثانى ذى القعدة سنة ٦٩١هـ[1] . وتحدث "النويرى" فى مخطوطة "نهاية الأرب فى فنون الأدب" عن أعداد الأسرى الأرمن بعد استيلاء المماليك على قلعة الروم قائلا:

"... ووصل الى الزردخاناه {أى بيت
السلاح} السلطانية من الأسرى ألف أسير
ومائتا أسير ..."[2]

كان هذا درسا لمملكة أرمينية الصغرى وعقابا على مواقفها المعادية لمماليك مصر؛ كما كان فى ذات الوقت أنذارا لها بالمصير الذي ينتظرها وكان وشيك الوقوع بعد أن فرغ المماليك فى تصفيه الوجود الصليبى فى بلاد الشام، وإضعاف شوكة التتار بعد الهزائم المتلاحقة التي لحقت بهم على يد المماليك.

وبعد أن تم للسلطان الأشرف خليل الاستيلاء على قلعة الروم ، بعث الى "شهاب الدين بن الخويي" قاضى القضاة بدمشق كتابا جاء فيه.

"... فإنه بفتح هذه القلعة وحيازة ثغرها
ومعلقها تحقق من بسيحون
وجيحون[3] أنهم بعد فتح باب

---

(١) ابن أبى الفضائل : النهج السديد، ص٣٨٩-٣٩٠؛ السلوك، جـ١، ق٣، ص٧٧٨؛ ابن الفرات : جـ٨، ص١٣٧.

(٢) النويرى: نهاية الأرب ، جـ ٢٩، ورقة ١٠١أ-١٠١ب.

(٣) أطلق المسلمون على نهرى سارس SAROS وبيرامس PYRAMUS اسم سيحون وجيحون. وكانا فى صدر الإسلام حدا مائيا بين الخلافة الإسلامية والدولة البيزنطية. للتفاصيل أنظر: البغدادى جـ٣، ص ١٢٢٣؛ ابن خرداذبة: المسالك والممالك ص١٧٦-١٧٧؛ ابن رسته: الأعلاق النفسية، المجلد السابع ، ص٩١، " فنهر جيحون يمر ببلاد الأرمن حتى يتجاوز الدروب، ثم يمر بطرطوس فالمصيصة ، ثم ينعطف هابطا الى الشمال ومغربا حتى يصب فى البحر المتوسط جنوب سلوقية. (أنظر: ابن خلدون : المقدمة، ص٦٣؛ القلقشندى، جـ٤، ص٨٢؛ أبو الفداء: ص٥٠؛ العبر فى أنباء من غبر ، حاشية رقم ٦؛ سهراب: كتاب عجائب الأقاليم السبعة إلى نهاية المعمورة ، ص

الفـــرات بكسر أقفال هذه القلعة لا يرجون انهم ينجون، وما يكـــون
بعد هذا الفتح إن شاء الله إلا فتح المشرق
والروم والعراق[1] وملك البـــلاد مـــن
مغرب الشمس الى مطلع الإشراق..."[2]

يتضح لنا من الخطاب السابق الذي أرسله السلطان الشرف خليل الى قـــاضى قضاة دمشق بعد سقوط سنة ١٢٩١م/٦٩٠هـــ وبعد استيلائه على قلعة الـــروم[3] فى السنة التالية والذى يبشره فيه بالنصر، أن سلطنة المماليك-وقد خلالها الجو بعد الهزائـم المتلاحقة التى أنزلتها بالتتار وبعد تخلصها من الصليبيين-بدأت فى التوسع شرقا علـــى الحساب ايلخانات فارس. وهى لم تنس بعد مواقفهم السابقة ضدها، وتعاونهم الواضح مع مملكة أرمينية الصغرى فى سبيل أضعـــاف شـــوكتهم. ويؤيـــد هـــذا القـــول أن "كيخايتو"[4] (١٢٩١-١٢٩٤م/ ٦٩٠-٦٩٣هـــ).

١٤٣-١٤٤). وهو نهر بيراس القديم. (أنظر: ابن عبد الظاهر : الروضى الزاهر، ص١٥٠). وقد أطلـــق الأرمـــن عليه نهر الفرات، لأنه نهر كبير. (أنظر: ابن عبد الظاهر: الروضى الزاهر، ص٢٧٠) ونهـــر "ســـيحون" دون "نهـــر جيحون" فى الكبر ، وعليه قنطرة حجارة عجيبة البناء طويلة جدا. أنظر: الاصطخـــرى: المســـالك والممـــاليك ، ص٤٤٧؛ ابن حوقل : صورة الأرض، ص١٨٣.

(١) أوضح مؤلف مجهول فى مخطوطة أطماع السلطان الأشرف خليل فى التوسع على حساب تتار فارس إذ يقـول: "... ولو طالت أيامة لافتتح غالب بلاد العراق". أنظر : كتاب الجوهر الثمين فى اخبار الخلفاء والســـلاطين، ورقة ٧٢أ . كذلك لم يخف الكتبى الاتجاه التوسعي للأشرف خليل وذلك عند ترجمته له إذ يقول: " ... ولـــو طالت مدته ملك العراق وغيرها" أنظر : الكتبى : فوات الوفيات -تحقيق إحسان عباس، جـــ١، ص٤٠٦.

(٢) زترستين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص١١-١٢؛ النويرى : نهاية الأرب، جـــ٢٩، ورقة ١٠٠ ب -١٠١أ؛ ابن الفرات: جـــ٨، ص١٣٨.

(٣) امتدح الشهاب محمود السلطان الشرف خليل على فتحة قلعة الروم بقصيدة طويلة أوردها البرزلى فى تاريخـــه. أنظر المقفى لتاريخ أبى شامة، ورقة ٤٥٨أ-٤٥٩أ. أنظر أيضا: ابن حبيب : درة الأســـلاك، ورقـــة ١٧٤أ-١٧٥ب؛ زترستين : تاريخ سلاطين المماليك ، ص ١٧-٢٠.

(٤) لم تكن حالة دولة تتار فارس فى أواخر القرن الثالث عشر الميلادى / اواخر القرن السابع الهجرى تسمح لهـــا بمتابعـــة سياسة الغزو والإغارة على بلاد الإسلام، ذلك لأسباب منها الصراع الداخلى بين ملوك فارس حول الاســـتيلاء علـــى العرش. وكان "كيخايتو" خان التتار الذى خلف أخاه "أرغون" سنة ١٢٩١م/٦٩٠هـــ وقد أنفق الأموال الكثيرة على ملذاته، مما أدى الى ضعف دولته. فخرج عليه "بيدو" والتقى معه فى قتال شـــديد انتـــهى بمقتـــل "كيخـــاتو" ســـنة ١٢٩٤م/٦٩٣هـــ واستقل "بيدو" بالملك ، فخرج عليه نائب خراسان المسمى "غازان بن أرغـــون" وجمـــع الجيوش وقاتل "بيدو" حتى أخذ الملك منه. وقتل "بيدو" سنة ١٢٩٥م/٦٩٤هـــ بعد معركة حامية قرب همذان للتفاصيل انظر: ابن حبيب: درة الأسلاك ، ورقة ١٢٢-١٢٤؛ المقريزى: السلوك ، جـــ١، ق٣، ص٨١٠؛ ابن الوردى: تتمـــة

خـان(1) التتـار بعـث برسـول الى السلطـان الأشـرف خليـل يحمـل كتبـا يتضمـن المطالبـة بحلـب لأن أبـاه هـولاكو كـان قـد قـام بغـزوها من قبل ، ويهـدد-إن لم يسمـح لـه بـذلك-بغـزو بـلاد الشـام. فأجـابه السـلطان ألأشـرف بأنـه قـد

"وافـق ألقـان مـا كـان فى
نفسـى ، فأنى كنت على عزم من اخـذ
بغداد وقتل رجاله، فإنى ارجو أن اردهـا
الى "دار الأسلام" كما كانت وسـينظر
اينا يسبق الى بلاد صاحبه[٢]"

وواضـح من هـذه الرسـالة عـزم الأشـرف خليـل علـى التوسـع شرقـا على حسـاب التتـار، ومـدى القوة الـتى كـان يشعـر بهـا تجـاه خصمـه، حيـث يظهـر فيهـا روح التحـدي والمبـادرة نتيجـة للانتصـارات البـاهرة التى أحـرزها حـتى أنه – كمـا يتضـح مـن ردة السـابق–طـالب التـار بتسليـم بغـداد للإقامة بهـا ونقـل الخلافـة العباسيـة إليهـا .

ولقـد أدرك الملـك الأرمـني هيثـوم الثـانى جسـامـة الخطـر الـذي يحيـق ببـلاده مـن قبـل المماليـك عنـدما بسقـوط قلعـة الـروم فـى قبضـة السلطـان الأشـرف خليـل. ولا شـك أن الضـربات النـاجحـة الـتى وجههـا المماليـك الـى بقـايا المستعمـرات الصليبيـة فـى بـلاد الشـام وحلفائهم التقليديين قد هزته هزا عنيفا؛ وزاد الطين بلة أن أمـر

المختصر فى أخبار البشر، جـ٢، ص٢٣٩-٢٤٠. أنظـر أيضـا D 'OHSON, HISTOIRE DES MONGOLS, AMSTERDAM , 1852, T.IV, PP. 101-106, 132, 141; CHABOT RELATION DU ROI AGROUN AVEC L'OCCIDENT, DANS R.O.L., 1894, PP. 127-128; BARTHOLD, GAIKHATU, DANS ENC.ISL., T. II, P. 135; HOWORTH, T. III, PP. 387-388.

(١) "خاقان" لقب أطلقه التتار على الرئيس الأعلى لدولتهم، ومعناه "الخان العظم" و "خاقان" يختلف عن "خـان" الذى أطلقوه على رؤسائهم الذين يتولون جزءا من إمبراطورية التتار. وقد استعمل التار لقب "خان" أيضا بمعـنى "خاقان" وربما كان ذلك من بابا الرغبة في الاختصار . انظر ابن ابى الفضائل : النهج السديد ، ص ٧٣، حاشـية رقم٤١ المقريزى: السلوك ، جـ١، ص ٣٠٧، حاشية رقم ٤. أنظر أيضا: فايز نجيب إسكندر: المشرق الإسـلامي في مواجهة تحالف المغول والأرمن-مجلة الثقافة اليمنية-العدد ١٩/سبتمبر -ص١٠٧، حاشية رقم ١٢. وكذلك GESTES DES CHIPROIS, DANS R.H.C., DOC. ARM, T. II, P. 841, N.D.

(٢) المقريزى: السلوك، جـ١، ق٣، ص٨٧٦. انظر أيضا : D'OHSON, T. IV, PP. 88-90

السلطان المملوكي سنة ١٢٩٣م/٦٩٢هـ بأنقاذ حملة لاستعادة بهسنا[1] من الأرمن[2]. فلما وصلت الى "سيس"[3]، بعث الملك الأرمني برسله الى السلطان-وللمرة الثانية - طالبا العفو والأمان. فاستشار السلطان المملوكي الأمراء في ذلك، فشفعوا في صاحب سيس ، فاشترط الأشرف: "إن كان صاحب سيس يسلم هذه الثلاث قلاع - وهي قلعة البهسنا وقلعة مرعش[4] وتل

---

(١) "قلعة بهسنا" تقع شمالي حلب، على نحو أربع مراحل منها، وهي حصينة مرتفعة، بها بساتين ونهر صغير وأسواق ورستاق متسع، وبها مسجد جامع. وهي بلدة واسعة كثيرة الخير والخصب، وهي في الغرب والشمال الغرب من عينتاب، وبينهما نحو مسيرة يومين، وبينها وبين سيس نحو ستة أيام. وكان لنائبها مكانة جليلة. (أنظر : القلقشندي: جـ٤، ص١٢٠-١٢١؛ ياقوت: جـ١، ص٧٧٠؛ البغدادي، جـ١، ص٢٣٤). وقلعة "بهسنا" من اعظم قلاع "سيس" ، وهي في فم الدربندات وباب حلب. وكانت في زمن الناصر صاحب حلب في ديوانه . فلما ملك هولاكو حلب، كان في بهسنا نائب يقال له "سيف الدين العقرب" فأباعها لصاحب سيس بمائة ألف درهم ، فأعطاه ستين ألف درهم وتسلم القلعة منه ومنعه الباقي . واستمرت في أيدي الأرمن الى هذا التاريخ، وكان على المسلمين منها ضرر عظيم". أنظر: كنز الدرر، جـ٨، ورقة ٢٩٨؛ النهج السديد، ص ٣٩٣؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، المقدمة الألمانية، ص٤٥؛ الجعفري : النزهة السنية، ورقة ١٩٧أ؛ النويري : نهاية الأرب، جـ٢٨، ورقة ٨٨أ؛ أبو المحاسن: المنهل الصافي، جـ٣، ص١٠٤ ، حاشية رقم٣.

(٢) المقريزي : جـ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٣، ص٣٣٢؛ ابن أبي الفضائل: ص٣٩٣؛ ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام والعصور؛ زترستين: ص٢٢؛ ابن إياس: بدائع الزهور في وقائع الدهور، جـ١، ص١٠٥؛ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، جـ٨، ص١٤. وقد أخطأ "أبو المحاسن بن تغرى بردى" وصنفها تحت أحداث سنة ٦٩٠ هـ بدلا من سنة ٦٩٢هـ. أنظر أيضا: LE ROI HETHOUM II, P. 543; TABLE CHRONOLOGIQUE DE HETHOUM, P. 489.
CF. KURKJIAN, A HISTORY OF ARMENIA, NEW YORK, 1958, PP. 250-251.

(٣) الكتبي: جـ١، ق٢؛ ورقة ٨٢؛ اليونيني : جـ٣، ورقة ٢٧ب؛ أبو المحاسن، جـ٨، ص١٤؛ ابن إياس: جـ١، ص١٠٥؛ ابن الجوزي: جواهر السلوك ، ورقة ١٦٩؛ النويري: جـ٢٩، ورقة ١١٢ ب.

(٤) تقع "مرعش" شمال بلاد الشام، على أطراف آسيا الصغرى. يحدها غربا جبل اللكام، وتطل المدينة على الطريق المؤدي الى مدينة حلب، والثاني المتجه ناحية الجنوب الشرقي الى مدينة الرها، والآخر المتجه شمالا الى الحدث. مما تقدم، يتضح أن مرعش تقع في المنطقة التي تفصل بين بلاد الشام وآسيا الصغرى من جهة؛ وبين بلاد الشام وقيليقية من جهة أخرى. (للتفاصيل أنظر: القرماني: أخبار الدول وآثار الأول-بيروت ١٩١٩-ص٤٨٨؛ البلاذري: فتوح البلدان : ص ٢٢٤-٢٢٥؛ ابن الشحنة : الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب-بيروت ١٩٠٩-ص١٩١؛ الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار-تحقيق إحسان عباس-بيروت ١٩٧٥-ص ٥١٠؛ البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع-تحقيق مصطفى السقا-بيروت ب.د.- جـ٢، ص١٢١٥؛ البغدادي : جـ٣، ص١٢٥٩؛ ياقوت: جـ٥، ص١٠٧؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة - بغداد ١٩٨١ -ص ١٣٩. أنظر أيضا: عبد الرحمن محمد عبد الغني: الحدود البيزنطية الإسلامية وتنظيماتها الثغرية - الكويت ١٩٩٠ -ص ٣٧ وحاشية رقم ٦٣). ويذكر العيني أن املك الأرمني هيثوم الثاني طلب من السلطان الأشرف خليل أن يكون نائبا عنه في بهسنا ، فلم يلق هذا الطلب قبولا. أنظر: عقد الجمان، جـ٢١، ق، ورقة ٥٦.

حمــــدون[1]-فأعطوه الأمان، وأن لم يسلم فحاصروه[2]".

فتم الاتفاق على أن يترل الأرمن للمماليك عن بهسنا ومرعش وتل حمــــدون. ورجع العسكر المملوكي من سيس؛ فضلا من ملك مملكة أرمينية الصغرى أعلن ولاءة للسلطان، ليضع حداً لهجمات الجيوش المملوكية، وليحمى بلاده من الدمار والخـــراب. لذلك "ضاعف الحمل والجزية"؛ ففرح الناس بتسلم خاصة "لأنه كان على المســــلمين من بهسنا أذى عظيم[3]"

وقد سلط "اليونيني" الأضواء على الأهمية الاستراتيجية البالغة للقلاع الثلاث وثرواهـــا الزراعية حين قال

:"... وهذا مرعش وباهسنا {هكـــذا فى الصل ، وصحتها: بهسنا} من أحصـــــن قلاعهم وأعظمــــها، لاســـيما باهســـنا {صحتها: بهسنا} فإنها حصينـــــة وبهـــا ضياع كثيرة تزرع، وهو فـــم الدربنـــد وباب حلب...[4]"

عقب ذلك الاتفاق ، سير الشرف خليل المير "سيـــــف الـــــدين طوغـــان" ورلى دمشـــق مع رسل صـــاحب سيس حـــتى يسلـــم الملـــك الأرمـــــني القـــــلاع

---

(١) "تل حمدون" قلعة حصينة ببلاد الأرمن لها سور جيد حسنة البناء، وهى على تل عال ولها ربض وبين وبـــاتين ونمر يجرى عليها ، وهى على القرب من جيحان على بعد مرحلة من جهة الجنوب عنه، تل حمدون وبين سيس نحو مرحلتين، وبينها وبين أياس نحو مرحلة . أنظر أبو الفداء : تقويم البلـــــدان ، ص ٢٥٠؛ القلقشـــندى: جــــ٤، ص١٣٦. انظر أيضا: **SMBAT , P. 58 M. 48 CF, CA- HEN, LA SYRIE DU NORD A L'EPOQUE DES CROISADES, P. 147.**

(٢) الكتبى: جـــ١، ق١٢، ورقة ١٢، ٨٢؛ ابن أبى الفضائل : ص٣٩؛ زترستين : ص٢٢؛ السلوك جـــ١، ق٣، ص٧٨٤؛ ابن إياس: جـــ١، ص١٠٥؛ تاريخ ابن الفرات ، جـــ٨، ص١٥٦؛ النويرى: جـــــــ٢٩، ورقـــة ١١٢ب؛ ابن الجوزى : جواهر السلوك، ورقة ١٧٠.

(٣) ابن كثير : جـــ١٣، ص٣٣٢؛ النجوم الزاهرة ، جـــ٨، ص١٤-١٥؛ الكتبى : جـــ١، ق١٢، ورقـــة ٨٢-٨٣؛ البرزلى: المقفى، ورقة ٤٥٨؛ اليونينى : جـــ٣، ورقة ٢٧ب؛ ابن اياس: جـــ١، ص ١٠٥؛ تاريخ ابـــن الفرات، جـــ٨، ص ١٥٦؛ ابن حبيب: تذكره النبيه، جـــ١، ص ١٦٠. ولقد أوضح المولف المجهول صاحب كتاب "تاريخ سلاطين المماليك" أسباب خضوع الملك الأرمنى لمطالب المماليك بقوله ..." أنظر: زترســــتين: تاريخ سلاطين المماليك ، ص٢٢.

(٤) ذيل مرآة الزمان ، جـــ٨، ص١٥٦؛ ابن أيبك: كتر الدرر، جـــ٢٨ ورقة ٢٩٨؛ المقريزى : جـــــ١، ق٣ ، ٧٨٤؛ زترستين: تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٢؛ الكتبى: جـــ١، ق١٢، ورقة ٨٣.

المذكـــور . وفى ٢٦ مايـــو سنة ١٢٩٣م/أول رجب سنة ٦٩٢هـــ[(١)]، قدم الـــبريد الى دمشق بتسلم بهسنا مع القلاع المتقدم ذكرها[(٢)]، وأن نواب السلطان قد تســـلموها وحكموا فيها. فدقت البشائر بذلك "وكان فتح عظيم للمسلمين"[(٣)]. واستقر "بـــدر الدين بكتاش الزردكاش المنصورى" فى نيابة بهسنا، وعين لها قاضيا وخطيبا، واستخدم لها رجالا وحفظة كما جرت عادة القلاع[(٤)] .

وفى يوم الاثنين ١٢ يونيو ١٢٩٣م/١٨ رجب ٦٩٢هـــ، وصل دمشق الأمير " سيف الدين طوغان" وصحبته رسل صاحب سيس[(٥)]

:"... وكان من جملة القطيعة مائة ألـــف درهم جددا، ومن الخيل والبغال ثمانيـــة وخمسون رأسا بما فى ذلك من التقدمـــة وهو عشرة رؤوس..."[(٦)]

هكذا كان سقوط قلعة الروم بمثابة زلزال هز كبار مملكة أرمينية الصغـــرى. وقد احسن الأشرف خليل استغلال هذا الانتصار العظيم خير استغلال حـــين أكـــره هيثوم الثاني على التنازل عن ثـــلاث قلاع بالغة الأهمية ألا وهى بهسنا ومرعش وتـــل حمدون. وبذلك تقلصت حـــدود تلـــك المملكـــة، فكـــان فتـــح المسلميـــن لمواضـــع الأربعـــة بمثـــابة مسمـــار دق في نعش مملكة أرمينية الصغـــرى وبدايـــة النهاية لتلك المملكة التى تمخضت عنها الحروب الصليبية.

---

(١) المقريزى: السلوك، جـــ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ تاريخ ابن الفرات، جـــ٨، ص١٥٦. انظر أيضا: LE ROI HETHOUM II, 54.

(٢) ابن أبى الفضائل : ٣٩٦؛ المقريزى : جـــ١، ق٣، ص٧٨٤؛ الكتبى : جـــ١، ق١٢ ، ورقة ٨٣؛ زترســـتين: ص٢٣؛ ابن اياس: جـــ١، ص ١٠٥؛ النويرى: جـــ٢٩، ورقة ١١٢ب؛ ابن حبيب: درة الأسلاك، ورقة ١٨٠ ب.

(٣) زترستين : تاريخ سلاطين المماليك، ص٢٣؛ الكتبى: جـــ١، ق١٢، ورقة ٨٣.

(٤) زترستين : ص ٢٣؛ الكتبى : جـــ١، ق١٢، ورقة ٨٣؛ المقريزى : جـــ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ ابـــن أبى الفضـــائل: ص ٣٩٦. الفضائل:

(٥) زترستين : ص٢٣؛ الكتبى : جـــ١، ق١٢، ورقة ٨٣؛ المقريزى: جـــ١، ق٣، ص ٧٨٤؛ النويرى: جـــ٢٩، ورقـــة ١١٢ب-١١٣أ. أنظر أيضا : LE ROI HETHOUM II, P. 543

(٦) ابن عبد الظاهر: الألطاف الخفية في السيرة الشريفة السلطانية الأشرفية-تحقيق أكسل موبرج-ليـــدن ١٩٠٢-جـــ٣، ص٤٨؛ العيني: جـــ٢١، ورقة ٥٦. وجـــدير بالذكـــر ان المصادر الأرمنية جنحت إلى الاختصـــار الشـــديد عنـــد ذكـــرها أحـــداث سقوط قلعـــة الروم في قبضـــة الممـــاليك، والعـــلاقات العـــدائية

لمواضع الأربعة بمثابة مسمار دق في نعش مملكة أرمينية الصغرى وبداية النهاية لتلك المملكة التي تمخضت عنها الحروب الصليبية.

وينبغي علينا قبل طي صفحات هذا البحث تقصي أسباب تلك الانتصارات التي حققتها سلطنة المماليك، وأسباب ما لحق الأرمن من هزائم متلاحقة. فحقيقة الأمر، كان ميزان القوى يميل بشدة لصالح المماليك خاصة بعد تمكنهم من كبح جماح التتار في معركة عين جالوت، وما أحرزه بيبرس من انتصارات على الأعداء عامة من تتار وأرمن وصليبيين واستعادته إمارة إنطاكية الصليبية؛ ثم مواصلة قلاوون الألفي انتصاراته على العداء الثلاثة، وتمكنه من استعادة طرابلس من الصليبيين، وأعداده العدة لفتح عكا. وأعقب ذلك سير الأشرف خليل على درب والده ونجاحه في فتح عكا واستغلاله حماس المماليك المتدفق نتيجة ارتفاع روحهم المعنوية لفتح قلعة الروم التي أسماها "قلعة المسلمين" وتنازل هيثوم الثاني عن الثلاث قلاع السالفة الذكر مقابل سحب الجيش المملوكي. فكان الأشرف خليل يتعامل مع الأرمن بمنطق القوى الذي يملي شروطه على الضعيف .

وإذا انتقلنا الى مملكة أرمينية الصغرى، فقد كانت تمر بمرحلة ضعف واضطراب منذ أواخر القرن الثالث عشر الميلادي / أواخر القرن السابع الهجرى. علما بأن علاقة ملوك الأرمن مع المماليك لم تكن على ما يرام، فالأرمن "... اخبث عدو للإسلام" على حد قول العمرى[1]؛ إضافة الى تعلق ملوكهم بأهداب التحالف مع التتار ألد أعداء المماليك. وقد عبر كل من العمرى والقلقشندى عن ذلك بقولهما " وللملوك البيت الهولاكوهي عليهم حكم قاهر، وفيهم أمر نافذ[2]". ولم ينس المماليك أن هيثوم الأول (١٢٢٦-١٢٧٠م) HETHOUMI لعب دورا رئيسيا في إقناع خان التتار بإرسال الحملة التي قضت على الخلافة العباسية فى بغداد بقيادة هولاكو سنة ١٢٥٨م، فسطر الأرمن بذلك صفحة داكنة السواد فى علاقتهم مع

- وبين السلطان المملوكى الشرف خليل والملك الأرمنى هيثوم الثانى، وذلك عكس المصادر الإسلامية التى أفردت لهذا الانتصار الصفحات العديدة المتعددة والتى تظهر جليا فى ثنايا هذا البحث . ولعله قد ساء الأرمن أن يسجلوا تلك الهزائم التى لحقت بهم، بينما هللت المصادر الإسلامية بأخبار النصر. وكان هذا أمرا طبيعيا. عن المصادر الأرمنية أنظر :

SAMUEL D ANI, P.463; LE ROI HETHOUM II, P. 542-543 ; TABLE CHRONOLOGIQUE DE HETHOUM, P. 489; SEMPAD, PP. 653-65 .

(١) العمرى: التعريف بالمصطلح الشريف، ص٥٦.

(٢) العمرى: ص٥٦؛ القلقشندى : صبح الأعشى، جـ٨، ص٣٠.

المسلمين عامة. وكان الهم الأوحد للأرمن التحالف مع التتار ضد المماليك فى كافة المعارك الدائرة بين الطرفين؛ في حين كان التتار يمرون آنذاك بمرحلة ضعف وانحلال وانقسام، فانعكس ذلك بالتالي على مملكة أرمينية الصغرى .

أما الغرب الأوروبي الذي كان من المفروض أن يناصر الأرمن في حربهم ضد المماليك، فقد كان آنذاك في فترة تغيير وانتقال وكان يعانى من الضعف والتدهور، وأخذ ينصرف تدريجيا عن فكرة الحروب الصليبية. وبدأ الفرد الأوربي يتجه إلى مصالحة الخاصة، والدول إلى مشاكلها الداخلية.

ولقد حرصت البابوية على إصدار النداء تلو النداء طالبة مساعدة مملكة أرمينية الصغرى. إلا أن مساعيها انتهت بالفشل في تعبئة الغرب ضد سلطنة المماليك.

أما الإمبراطورية البيزنطية، فقد كانت المنازعات المذهبية الضارية مع الأرمن عائقا حال دون تقديم المساعدة لهم.

ولا ينبغي أن يغرب عن بالنا أحوال أرمينية الداخلية السيئة ومن أهمها: النزاع الديني بين الأرمن أنفسهم عقب محاولة بعض ملوكهم الاتحاد بالكنيسة الكاثوليكية وما نتج عنه من انقسام الأرمن إلى حربين متقاتلين. إضافة إلى إفلاس الخزانة العامة بسبب الأموال السنوية الطائلة المحمولة من قيليقيا إلى سلطنة المماليك في مصر. علما بأن تلك الأموال كانت تشكل موردا هاما لخزانة الأرمن، الأمر الذي عبر عنه محيي الدين بن عبد الظاهر بقوله "... وانتعشت خزانة الأموال بهذه الجملة العظيمة التى تحمل كل سنة (من مملكة أرمينية الصغرى "[(١)] . كذلك كان من نتيجة اضمحلال نشاط مملكة أرمينية الصغرى التجاري سوء أحوالها الاقتصادية بعد انصراف التجار عن مينائها اياس[(٢)] .

هكذا كان من الاستحالة على ملوك الأرمن الصمود طويلا في مواجهة التيارات المتلاطمة التي أحاطت بملكتهم. وقد أدرك ذلك بعينه الثاقية الرحالة البندقى ماركو بولو (١٢٥٤-١٣٢٤م/٦٥٢-٧٢٤هـ) MARCO POLO فتنبأ لها قبل نصف قرن من الزمان بالسقوط إذ ذكر أنها "كانت فريسة سهلة بين أسد التتار، ونمر المماليك، وذئب الأتراك، وثعبان قراصنة البحر"[(٣)].

---

(١) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام والعصور ، ٩٣.

(٢) للتفاصيل انظر: فايز نجيب اسكندر : مملكة أرمينية الصغرى ، ص٢١٤-٢٥٠.

(٣) MARCO POLO. THE VELS OF MARCO POLO THE VENITIAN. TR. BY WILLIAM MARSDON. LONDON, 1903, T.II. P. 42

الأمير فخر الدين بن الشيخ
فى محكمة التاريخ

د ./ رأفت عبد الحميد

كلية الآداب – جامعة عين شمس

فى منتصف القرن السابع الهجرى / الثالث عشر الميلادى ، أقام المؤرخ جمال الديـن بن واصل دعوى فى محكمة التاريخ ، يتهم فيها الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشـيوخ قائد الجيش المصرى ، أتابك أو مقدم العسكر ، بتعبير ذلك الزمان ، بالانسحاب مع قواتـه العسكرية ، أو الفرار بهذه القوات من ميدان المعركة وعدم التصدى للجيش الصليبى الـذى يقوده القديس لويس التاسع ملك فرنسا ، فيما عرف بالحملة الصليبية السابعة ، مما أدى إلى استيلاء الصليبيين على مدينة دمياط دون عناء ، وامتلاكهم لها "صفواً عفواً" ، وما تبع ذلك من النكبات التى حلت بمصر قبل أن ينتهى الحال بالحملة وقائدهـا إلى الفشـل والإذلال ، واتسعت قائمة الاتهام لتشمل التصريح بـ "همة الأمير التى ترقى إلى الملك" ، والتلميح بذلك إلى الرغبة الكامنة لديه فى القفز على عرش السلطنة الأيوبية والملك الصالح نجم الدين أيـوب يلملم ليالى العمر المعدودة الباقية له ليرحل عن دنيا الناس" والسعى إلى تحقيق هذا الطمـوح قبل أن يصل الوريث الشرعى ، المعظم تورانشاه ، إلى مصر ليتسلم مقاليد الأمور ويتصـدر دست السلطنة .

وعلى درب ابن واصل سار المؤرخون المعاصرون واللاحقون ، وجلهم ينقـل عـن سلفهم هذا ، ويكاد بعضهم يردد عبارات ابن واصل بنصها ، من هؤلاء المؤرخين القدامـى "ابن أيبك الدوادارى ، وأبو المحاسن بن تغرى بردى ، والمقريزى الذى كان أشـد هـؤلاء جميعا قسوة على ابن الشيخ إلى درجة تعيد إلى الأذهان صحيفة اتهامات ابن واصل ، كمـا لو أن المقريزى كان يقرأ منها ويخط بيمينه ! ولم يسلم الأمير فخر الدين كذلك من ملاحقة المؤرخين المحدثين له بهذه الاتهامات خلال تناولهم لأحداث الحملة الصليبية السابعة ، جريـا على ما قالت به سطور المصادر التاريخية المعاصرة ، دون التوقف طويلا أو حتى قليلا عنـد هذه الأقوال ومناقشتها وإخضاعها لأصول النقد التاريخى ومنهج البحث العلمـى ، حـتى تتضح الحقائق ، أو على الأقل يتبين مدى صدق ما قالت به تلك المصادر ، او بتعبـير أدق ، ما أذاعه ابن واصل وتابعه فيه دون مناقشة من جاءوا بعده ، خاصة وأن هـذه الاتهامـات

تندرج كلها تحت "الخيانة العظمى" والإخلال بواجبات "الشرف العسكرى" ، وهو ما يستوجب فى أى ناحية من نواحيه عقوبة الإعدام .

ومع الإقرار الكامل والاعتراف بالأهمية الكبيرة للكتاب جليل القدر عظيم النفع الذى خلفه لنا المؤرخ ابن واصل تحت عنوان "مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب" لما احتواه من مادة علمية ضافية وتفاصيل دقيقة وآراء سديدة فى كثير من الأحيان ، ساعده فى الوصول إليها قربه من الأحداث ووقوفه على مجريات الأمور ومعايشته إياها ، إلا أن حديثه عن الأمير فخر الدين وعلاقته بالسلطان الصالح نجم الدين أيوب وابنه المعظم تورانشاه ، استوقفنى أمامه عدد سنين أحاوره على أجد بين ثنايا أقواله شيئا يميط اللثام عن حقيقة القضية ، خاصة وأن ابن واصل كان لصيقا ببعض صناع القرار فى هذه الأحداث بالذات ، مشاركا لهم حتى فى خواطرهم ، مشيرا عليهم بما يفعلون أحيانا ، كما يخبرنا بنفسه عن ذلك فى هذا الكتاب .

والبحث فى مثل هذه القضايا يعد أمرا شائكا تعتوره الصعاب من كل ناحية ، فى ضوء تطابق المصادر التاريخية فى رواياتها ، ونقلها عن بعضها البعض ، مع الإشارة إلى ذلك حينا ، والسكوت عن ذلك أيضا أحايين كثيرة ، وتلك مشكلة قائمة تواجه الباحثين فى تاريخ العصور الوسطى فى الشرق الإسلامى أو الغرب المسيحى أو العالم البيزنطى على السواء . ومع إدراكى الكامل لمثل هذه الصعوبة منذ البداية ، إلا أننى آثرت تحريك الدعوى فى هذه القضية من جديد أمام محكمة التاريخ ، معتمدا فى ذلك على نفس صحيفة الاتهام الأساسية التى قدمها ابن واصل ، وأقوال الشهود من التابعين وتابعيهم ، مناقشا لما جاء فى تلك الدعوى وهذه الأقوال ، محللا وناقدا ، مستعينا بمجريات الأحداث وتتابعها ، وطبائع الأشخاص المشاركين فيها ، وسيرهم الذاتية ، ثم قدمت فى النهاية لمحكمة التاريخ وثيقة الشاهد العدل الرئيسى فى هذه القضية كما خطها هو نفسه بقلمه !

ومن الجدير بالذكر أن عائلة شيخ الشيوخ قد عملت كلها فى خدمة سلاطين الدولة الأيوبية منذ عهد الناصر صلاح الدين الذى عهد إلى صدر الدين محمد بتولى مشيخة الصوفية فى مصر ، بعد توليه إياها بدمشق فترة من الزمن خلفا لأبيه عماد الدين عمر بن حمويه[1] ، وكلفه أيضا بالإشراف على المدرسة الصلاحية لما لمسه فيه من سعة العلم وعمق

[1] - يعد عماد الدين عمر بن حمويه المؤسس الحقيقى لهذه الأسرة ، وكان نور الدين محمود قد ولاه مشيخة "خانقاه" دمشق ، فاكتسب بذلك لقب "شيخ الشيوخ" ، وهو اللقب الذى ذاعت به شهرة هذه الأسرة حيث تولى أفرادها جميعا هذه الوظيفة باستثناء فخر

المعرفة وشدة الصلاح والتقوى، وهذه أمور اجتمعت كلها فى أسرة "الشيخ" دون استثناء ، وهذا هو الأمر الذى حدا بالأيوبيين إلى تقريبهم إليهم والاعتماد عليهم فى معظم شئون دولتهم السياسية والعسكرية والدينية، خاصة وأن ملوك بنى أيوب كانوا هم الآخرون يتمتعون أيضا بحب شديد للمعرفة والتعمق فيها وتقدير كبير للعلم والعلماء ، ولم تحل الجهود الضخمة التى بذلوها للتصدى للصليبيين دون الاهتمام الكبير أيضا بالنواحى العلمية ، بل كان من بين هؤلاء الملوك من تعمق فى الأمور الفقهية والمسائل الكلامية وقرض الشعر والتأريخ .

وقد ترك صدر الدين محمد عند وفاته أربعة أبناء هم عماد الدين عمر ، وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن ، وفخر الدين يوسف ، وقد ذاع صيتهم جميعا أيام الملك الكامل وابنه الصالح[٢]، ويقول ابن واصل إن هؤلاء الأربعة كانوا أخص الناس بخدمة الكامل ، ونالوا فى زمانه مكانة مرموقة حيث كان يعد أخا لهم من الرضاعة عن طريق أمهم ابنة القاضى شهاب الدين ابن أبى عصرون[٣] .

ولما كان الملك الكامل "فاضلا عالما شهما مهيباً عاقلا محبا للعلماء ، وللحديث وأهله ، حريصا على حفظه ونقله ، وللعلم عنده شرف[٤] فقد اصطفى لنفسه عماد الدين عمر بن صدر الدين لسعة علمه وتنوع ثقافته حتى جمع له ، على حد قول المقريزى[٥] بين رياسة العلم والقلم سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م ولم يجتمع ذلك لأحد فى زمانه . لقد كان الرجل ، كما يحدث عنه ابن واصل[٦] تام العقل والكرم والبأس والرئاسة ، مقصدا لمن إليه ... وكان معدم المثل فى وقته ، وإلى جانب هذا كله كان فارسا ماهرا ، فحاز بذلك "فضيلتى السيف والقلم"[٧] . وقد أهلته مواهبه هذه للمشاركة بفعالية فى ترتيب أوراق البيت الأيوبى بعد وفاة الملك الكامل ، فسعى جاهدا للحفاظ على أن تظل مصر من نصيب ولده العادل الثانى ، وتصدى بكل القوة لأطماع الناصر داود فى مصر ، وحاول من بعد الحد من نفوذ الجواد

الدين يوسف . أنظر أبو شامة ، الذيل على الروضتين، ص ١٢٥ ؛ المقريزى، الخطط، جـ٢، ص ٣٣ - ٣٤ ، راجع حامد زيان ، العلماء بين الحرب والسياسة فى العصر الأيوبى ، أسرة شيخ الشيوخ ، القاهرة ١٩٧٨ .

[٢] - أبو شامة ، الذيل ص ١٢٥ .

[٣] - ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب جـ ٥ ص ١٧٠ ؛ المقريزى الخطط جـ ٢ ص ٣٤ .

[٤] - أبو المحاسن النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة جـ٦ ص ٢٢٨ - ٢٣٦ .

[٥] - الخطط جـ٢ ص ٣٤ .

[٦] - مفرج الكروب جـ ٥ ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

[٧] - أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر جـ ٣ ص ١٦١ .

مظفر الدين يونس حفيد العادل الكبير أبي بكر فى دمشق ، مما دفع هذا الجواد إلى كراهيته حتى شاع أنه استأجر جماعة من الباطنية فقتلوه[8] .

وتولى كمال الدين أحمد شأن أبيه صدر الدين وأخيه عماد الدين مشيخة الصوفية لعلمه وصلاحه وتقواه ، وعهد إليه بنيابة حران والجزيرة سنة ٦٢٧هـ / ١٢٢٩م بعد أن أخذها الملك الكامل من أخيه الأشرف موسى بمقتضى اتفاقية "تل العجول" التى تمت بينهما فى العام السابق ، ولم يلبث أن جعله وزيرا فى مصر فى أخريات العام نفسه (٦٢٧هـ / ١٢٢٩م)[9] . وازدادت مكانة كمال الدين بن شيخ الشيوخ فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ، حيث ولاه قيادة القوات المصرية المتجهة لمحاربة الناصر داود عام ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م ، وعهد إليه بقيادة الجيش المصرى المقيم بغزة بين عامى ٦٣٩ - ٦٤٠هـ / ١٢٤١ - ١٢٤٢م[10] .

وعلى الدرب نفسه سار الأخ الثالث معين الدين حسن بن شيخ الشيوخ ، فتولى مشيخة الصوفية ، وإن كان قد تميز عن اخوته بفصاحة اللسان ومقدرة بلاغية ، فأوفده الملك الكامل إلى بغداد لتقديم العزاء فى وفاة الخليفة العباسى الظاهر بأمر الله ، والتهنئة بخلافة المستنصر بالله سنة ٦٣٢هـ / ١٢٢٦م ، فألقى خطبة رائعة بين يدى الوزير مؤيد الدين ابن محمد القمى ، أورد لنا المقريزى[11] جزءا منها ، وفى عام ٦٣٠هـ / ١٢٣٢م عهد إليه الكامل بتدبير أمور السلطنة وسماه نائب الوزارة ، فلما تسلطن الملك الصالح نجم الدين على مصر استوزر معين الدين ، ثم عقد له إمارة الجيش المتجه إلى دمشق لإخراج الصالح إسماعيل منها ، بعد أن استبد بالأمر هناك وعانى أهلوها من عسفه وقساواته[12] ، وأمر قواته من الخوارزمية أن تعمل تحت إمرته ، ورسم له أن يكون نائبه بدمشق ، وحكمه فيها ، وأقامه مقام نفسه[13] . وتروى لنا المصادر[14] رواية طريفة تدل على ذكاء معين الدين

---

[8] - لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث كلها ودور عماد الدين عمر فيها ، راجع ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص٢٠٠ ؛ سبط بن الجوزى ، مرآة الزمن فى تاريخ الأعيان جـ٨ ص ٧٢١ - ٧٢٣ ؛ أبو الفدا ، المختصر جـ٣ ص ١٦٣ ؛ المقريزى ، السلوك لمعرفة دول الملوك جـ١ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ ، الخطط جـ٢ ص ٣٣ - ٣٤ .

[9] - المقريزى ، السلوك جـ١ ص ٢٣٨ - ٢٣٩ .

[10] - ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٠١ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ص٣٠٩ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب فى أخبار بنى أيوب ، وهو الجزء السابع من كتاب كنز الدرر وجامع الغرر لابن أيبك الدوادارى .

[11] - السلوك جـ١ ص ٢٢١ ، وكان من بين ما جاء فيها : "ويوالى شكر الله تعالى على إماطة لىّ العزاء ، الذى عم مصابه ، بصبح الهناء الذى تم نصابه ، حتى تزحزح شمس الهدى شفق الاشفاق ، فجعل كلمتها العليا ، وكلمة معاديها السفلى ، وزادها شرفا فى الآخر والأول" .

[12] - أبو شامة ، الذيل ص ١٧٦ .

[13] - ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٥٤ .

بن شيخ الشيوخ وفراسته وسرعة بديهته ، فتخبرنا أنه لما اشتد الحصار على دمشق ، وضيق معين الدين بقواته على الصالح إسماعيل ، أرسل هذا إلى معين الدين سجادة وعكازا وإبريقا ، وهى من الأدوات الخاصة بالزهد والانقطاع للعبادة ، وهذا الأمر يحمل فى ذاته سخرية من معين الدين وإشارة إلى أنه باعتباره شيخا للصوفية فلا يصلح لقيادة الجيوش ، وتمثل ذلك فى قول الصالح إسماعيل له "اشتغالك بهذا أولى من اشتغالك بحرب الملوك وأبناء الملوك" ! ، فلما تلقى عماد الدين هذه الأدوات والرسالة ، بعث من فوره إلى الصالح "جنكا" وزمرا وهما من أدوات الغناء والرقص ، كما بعث له "غلالة" حرير أحمر وأصفر ، وهى قميص يرتديه النساء ، وقال له : "السجادة وما معها تصلح لى ، وأنت أولى بهذا من الملك" ! وكانت هذه سخرية لاذعة تشير إلى أن الصالح إسماعيل لا يصلح للسياسة والملك بقدر ما يصلح للهو والطرب . وقد شدد معين الدين بن شيخ الشيوخ الحصار على دمشق حتى أضطر الصالح إسماعيل إلى الهروب منها ، لتصبح بذلك خاضعة لسلطان مصر الصالح نجم الدين أيوب .

وإذا كان الاخوة الثلاثة هؤلاء من أبناء شيخ الشيوخ قد تولوا مشيخة الصوفية ورثة لأبيهم صدر الدين ، ولما اشتهروا به من الورع والتقوى والتفقه فى الدين والعلم بالأصول ، إلى جانب الاشتغال بأمور السياسة والحرب للثقة المطلقة التى أولاها إياهم سلاطين بنى أيوب ، فإن الأخ الرابع فخر الدين يوسف ، رغم ما اجتمع لديه من كل ما توافر لاخوته ، إلا أن الملك الكامل رأى فيه بصيرة نافذة ورجاحة عقل ومضاء عزيمة وعلو همة ، أو كما وصفه العماد الحنبلى[١٥] "محتشما سيدا معظما ذا عقل ورأى ودهاء وشجاعة وكرم" ، هذا إلى أن فخر الدين يوسف كان متضلعا فى كثير من فروع المعرفة الإنسانية إلى جانب العلوم الدينية ، ولم يكن ابن واصل مبالغا عندما خصه دون اخوته بقوله "كان فاضلا متأدبا يشارك فى كل فن[١٦]" ، وكان من نتيجة هذا كله أن الكامل أراد أن يفيد من ذكاء هذا الرجل ، فلم يدعه يحذو حذو اخوته وأبيه فى تولى مشيخة الصوفية ، وإنما "جعله أحد الأمراء وألبسه الشربوش والقباء[١٧]" ، وأصبح من أخص ندمائه ، وهذا يدل على المكانة

[١٤] - سبط بن الجوزى مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٥٢ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب ص٣٥٤ - ٣٥٥ وحاشية ١ ص ٣٥٥ .

[١٥] - شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ،جـ٥ ،ص ٢٣٩ .

[١٦] - ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ١٦٩ .

[١٧] - المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٤ . والشربوش قلنسوة طويلة أعجمية ، وتلبس بدل العمامة ، وكانت شارة للأمراء فلا يلبسها رجال العلم كالقضاة والكتاب وغيرهم . راجع المقريزى ، السلوك ، جـ١ ص ٢٥١ ، حاشية ١ ، أما القباء فهو عبارة عن قباءين أحدهما تترى ويلبس أولا والآخر إسلامى ويلبس فوقه ، والقباء زى أرباب السيوف . راجع القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الإنشا جـ٤ ص ٣٩ - ٤٠ .

المرموقة التي احتلها الأمير فخر الدين لدى الملك الكامل ، وتمثل ذلك في الكثير من المـــهام السياسية والعسكرية والدبلوماسية التي كلفه القيام بها على امتداد عهده في السلطنة .

ففي عام ٦٢٥هـــ / ١٢٢٧م وقعت الوحشة بين الكامل وابن أخيه الناصر داود بن المعظم عيسى صاحب دمشق ، وكان ذلك بسبب رفض الناصر "التنازل لعمه عن حصـــن "الشوبك" الذى كان الكامل يعتبره قلعة متقدمة لمقاومة الصليبيين في الشام وحماية مصر من هجماتهم ، هذا إضافة إلى ما بلغ الكامل عن ظلم الناصر لأهالي دمشق ، وانصرافـــه عـــن الاهتمام بأمور الدولة إلى اللهو[18] ، ومن ثم عزم الكامل على الخروج بنفسه لتأديب الناصر ، فعهد إلى ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب بالسلطنة من بعده ، وأركبه بشعار الســـلطنة ، وأقام معه الأمير فخر الدين يوسف ليحصل الأموال ويدير أمور المملكة[19] . ولا شـــك أن هذا يفصح عن الثقة التي كان يضعها الكامل في فخر الدين ابن شيخ الشيوخ . ولم تكـــد تمضي على ذلك سنوات قلائل حتى كان فخر الدين في مكة ســـنة ٦٢٩هـــــ / ١٢٣١م لإقرار الأمور فيها بعد وفاة الملك المسعود صاحب اليمن ، وهو ابن الملك الكامل ، وذلـــك في عام ٦٢٦هـــ / ١٢٢٨م ، واستبداد راجح بن قتادة بالأمور هناك[20] .

غير أن الدور الأساسي الذى اضطلع به الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشـــيوخ في عهد الملك الكامل ، يتمثل في المهمة الدبلوماسية التي قام بها مفاوضا مـــع الإمـــبراطور فردريك الثاني Fredrick II ملك ألمانيا وإمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، بعـــد أن أدت الظروف السياسية التي تسبب فيها المعظم عيسى صاحب دمشق ، والأشرف موســـى صاحب خلاط ، بطمعهما في مُلك مصر ، ولجوء ملوك البيـــت الأيـــوبي في الشـــام إلى الاستعانة بقوى خارجية ضد بعضهم بعضا ، مثل الخوارزمية والصليبيين ، أو قوى داخليـــة مثل الباطنية الأشد فتكا ، ولتحقيق طموحاتهم الشخصية ، أدت إلى أن يوفد سلطان مصـــر الملك الكامل ، الأمير فخر الدين إلى صقلية سنة ٦٢٤هــــــ / ١٢٢٦ - ١٢٢٧م لمقابلـــة فردريك الثاني ودعوته للقدوم إلى الشرق ، ليشغل بمقدمه أخويه ويصرفهما عن أطماعهما[21]

---

[18] - ابن واصل ، مفرج الكروب، جـــ٤ ، ص ٢٢٥ – ٢٢٦ ؛ المقريزي ، السلوك ، جـــ١، ص ٢٢٤ – ٢٢٥ .

[19] - المقريزي ، السلوك، جـــ١، ص ٢٢٥ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، نشر مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة بدون تاريخ ، ص ١٥ .

[20] - ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٠٦ ؛ القلقشندي ، صبح الأعشى، جـــ٤ ،ص٢٧٣ ؛ المقريزي ، الخطط،جـــ٢، ص ٣٤ .

[21] - ابن واصل ، مفرج الكروب، جـــ٤، ص ٢٠٦ ، وقد ناقشنا هذه المسألة وما ترتب عليها تفصيلا في الفصل السابق من هذا الكتاب.

وقد جمعت بين الرجلين ، الإمبراطور والأمير ، محبتهما للمعرفة وشغفهما بمختلف العلوم ، ودارت بينهما مناقشات طويلة فى كثير من المسائل العلمية بعيدا عن المفاوضات السياسية ، ولعل هذا يوضحه وصف المؤرخ ابن واصل للرجلين ، إذ يكاد يستخدم الكلمات نفسها فى حديثه عن كل منهما ، فيقول عن فردريك الثانى : "وكان الإمبراطور – من بين ملوك الفرنج – فاضلا محبا للحكمة والمنطق والطب" ، ويقول عن الأمير :"وكان فخر الدين فاضلا متأدبا يشارك فى كل فن"[٢٢] ، ولا شك أن هذه الصفات المشتركة والمتشابهة إلى حد بعيد جدا قد قربت بين الرجلين تماما ، وازدادت هذه العلاقات توطدا بعد قدوم فردريك الثانى إلى الشام فى عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م ، وتولى الأمير فخر الدين مسألة التفاوض معه نيابة عن الملك الكامل ، حتى تم التوصل فى النهاية إلى عقد صلح يافا بين الطرفين فى الثامن عشر من فبراير ١٢٢٩م / ٦٢٦هـ[٢٣] .

وقد أنعم الإمبراطور على الأمير فخر الدين بمرتبة "فارس" ومنحه امتياز وضع الرنك الإمبراطورى على رايته ودرعه بعد موافقة السلطان الكامل على ذلك[٢٤] ، واستمرت هذه العلاقات الودية والاحترام المتبادل قائما بين الإمبراطور والأمير بعد عودة فردريك الثانى إلى أوروبا، فقد كتب الأخير رسائل إلى الملك الكامل وهو بـ "حران" سنة ٦٢٧هـ / ١٢٣٠م ، ومثلها إلى الأمير فخر الدين ، يطلعه فيها على الأحوال السياسية التى يمر بها ، وكذلك المؤامرات التى حاكتها البابوية ضده ، والانتصارات التى تحققت له على الأسقف الرومانى وأعوانه ، وهذا كله يشير إلى مدى الثقة التى يوليها فردريك الثانى لفخر الدين ، وعلو المكانة التى احتلها الأمير الدى الإمبراطور، وكذا المرتبة التى يضع فيها الإمبراطور الملك الكامل . ومن الرسالتين اللتين احتفظت لنا المصادر[٢٥] بنصيهما ، ندرك كل هذه الأمور ، حيث يتضح من خلالهما كما لو كان الإمبراطور يخاطب شخصا معنيا بالأمور السياسية

---

[٢٢] – يقول ابن واصل "وكان الامبراطور من بين ملوك الفرنج ، فاضلا ، محبا للحكمة والمنطق والطب جـ٤ ص ٢٣٤ ، جـ٥ ص١٦٩، وقارن Kantrowicz., Fredrick the Second, p. 185 وفى القصة الرائعة التى نسجها المؤلف الأمريكى جوزيف جاى ديس Joseph Jay Deiss تحت عنوان The Great Infidel معتبرا إياها مذكرات للامبراطور فردريك الثانى كتبها بالعربية ، يقول الامبراطور محدثا عن الأمير فخر الدين وكان هذا الرجل لطيفا ... على علم واسع بالفلسفة والشعر ، وعلى دراية بالأسلحة والخيل والتصقر (أى الصيد بالصقور) ، لقد كان فى الواقع خير ممثل لمليكه" . راجع الترجمة العربية التى قام بها الأستاذ أحمد نجيب هاشم لهذه القصة تحت عنوان "الزنديق الأعظم" ص ٣٥٠ – ٣٥١ .

[٢٣] – راجع الفصل السابق .

[٢٤] – جوانفيل ، القديس لويس ، ترجمة حسن حبشى، ص ١٠٨ ؛ راجع أيضا :

Runciman, *A history of the Crusades*, vol. III, p. 185 .

Setton, *A history of the Crusades*, vol. II p. 449 .

[٢٥] – الحموى ، التاريخ المنصورى ، تحقيق أبو العيد دودو ص ١٨٩ – ١٩٤ .

الداخلية للإمبراطورية ، أو بتعبير آخر ، واحدا من الذين يناط بهم المسئولية فى تلك البلاد ، وتفصح عن ذلك – على سبيل المثال – عبارة وردت فى صدر الرسالة الأولى تقول : "... وبعد ، فعلمنا أنه محب لسماع السار من أنبائنا وأخبارنا ، والحميد من آثارنا ، نشعره حسبما شرحنا بله ..." ، هذا بالطبع بعد الديباجة التى تملئ بكل العبارات المفعمة بالمودة والصداقة ، بينما يختتم الرسالة الأولى بالتأكيد على مواصلة ودوام المراسلات بينهما ، يقول : "... وبعد ، فمما نؤثر من المجلس مواصلة كتبه متضمنة شرح سعيد أحواله ومهماته وحاجاته" . أما الرسالة الثانية فهى تتناول فى جملتها جهود الإمبراطور فى التصدى لمحاولات البابوية المستمرة للنيل من الإمبراطورية . وقد فصلنا ذلك كله فى الفصل السابق .

وليس هنا معنى للقول فى حذلقة – كما قد يذهب البعض – إلى أن الإمبراطور كان يشير من طرف خفى فى رسائله إلى قوته المتزايدة وانتصاراته العديدة على البابوية ، حتى يدخل فى روع المسلمين المهابة والحذر من الإقدام على نقض شروط صلح يافا ، فهذا التأويل مردود عليه بأن المسلمين لم يقدموا مطلقا على نقض عهد قطعوه على أنفسهم ، أو التنكر لصلح أو اتفاقية وقعوا عليها مع الصليبيين منذ أيام السلطان الناصر صلاح الدين حتى دالت دولة اللاتين بالشام ، هذا بالإضافة إلى أن فردريك منذ عودته إلى أوروبا حتى وفاته عام ١٢٥٠م ، كان همه كله موجها لتدعيم سلطان دولته وإقرار حقوقه الإمبراطورية فى إيطاليا وصقلية ضد السياسة البابوية العدائية السافرة ضده ، والتى تحولت إلى عداء شخصى فى تلك المرحلة[٢٦] ، كما أن فردريك كان حريصا على ابقاء هذه الصداقة مع الصالح نجم الدين أيوب ابن الملك الكامل ، والأمير فخر الدين ، ولذلك لم يتوان مطلقا عن إخبار سلطان مصر بأنباء الاستعدادات التى كانت تجرى فى أوروبا لخروج حملة صليبية جديدة هدفها مصر ، يقودها لويس التاسع ملك فرنسا ، وهى التى عرفت بالحملة الصليبية السابعة

وإذا كان فخر الدين بن شيخ قد حاز ثقة الإمبراطور فردريك الثانى وإعجابه ، فإنه قد نال قبلها وأكثر منها لدى الملك الكامل الذى توسم فيه من البداية مظاهر الذكاء والفراسة وسعة الأفق، ومن ثم حرص على أن يظل قريبا منه عونا له فى تصريف أمور دولته السياسية والعسكرية على السواء ، إضافة إلى تقديره لعلمه وسعة ثقافته ، خاصة وأن الكامل كان يجل العلماء ويترلهم مُترلا كريما ، وقد لخص المقريزى[٢٧] ذلك كله فى عبارة

---

[٢٦] – رأفت عبد الحميد ، السمر البابوى بين النظرية والتطبيق (فى مجلة ندوة التاريخ الإسلامى والوسيط ، المجلد الثالث ص ٢١٣ – ٢١٧.

[٢٧] – الخطط جـ٢ ص ٣٤ .

مختصرة وإن كانت فى غاية البلاغة ، قال فيها : "ومازال (فخر الدين بن شيخ الشيوخ) مكرما محترما حتى مات الملك الكامل" .

ويبدو أن القلاقل والاضطرابات التى حاقت بالدولة الأيوبية بعد وفاة الملك الكامل بسبب التراع الذى نشب بين أفراد البيت الأيوبى ، قد شملت أيضا بتقلباتها الأمير فخر الدين ، فتقلبت به الأحوال خلال السنوات التالية مباشرة لرحيل الكامل ، فقد أقدم ابنه وخليفته فى مصر ، العادل الصغير ، على سجن فخر الدين نتيجة وشايات ساقها الناصر داود صاحب الكرك وابن عم العادل، وتشير المصادر إلى أن هذه الوساوس التى همس بها الناصر فى أذن العادل لم تكن قاصرة على فخر الدين فقط ن بل شملت أخاه عماد الدين أيضا[٢٨] ، ولعل ذلك يعود فى المقام الأول إلى ما أدركه الناصر من أن عائلة شيخ الشيوخ بأبنائها الأربعة هى التى قامت عليها دولة الكامل ، وأنهم يمثلون خاصة مستشاريه السياسيين وقواده العسكريين ، كما أنه لم يغفر لأولاد الشيخ حرمانه من دمشق التى كانت لأبيه المعظم عيسى ، واعطائها للجواد مظفر الدين يونس بن مودود بن العادل الكبير ، الذى كان الكامل قد جاء به إلى مصر وتعهده بالرعاية ، وعَدَّ الناصر قرار العادل الثانى بالإبقاء عليه فى الكرك ، وعدم تمكينه من دمشق والإنعام بها على الجواد أمرا زينه أولاد شيخ الشيوخ لسلطان مصر الجديد ، خاصة وأنهم كانوا - كما يصفهم ابن واصل[٢٩] آنذاك، "أرباب الدولة المشار إليهم" وأنهم يمثلون "شوكة قوية" .

و لم يطل مُكث العادل الصغير على عرش السلطنة ، إذ سرعان ما نحاه أخوه الصالح نجم الدين أيوب وسجنه ، وأصبحت بيده مقاليد الأمور فى مصر سنة ٦٣٧هـ / ١٢٣٩ ، وما أن تم له ذلك حتى ولى وجهه شطر أولاد الشيخ ؛ فاستوزر معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ ، ومكنه وفوض إليه تدبير المملكة - على حد تعبير ابن واصل[٣٠] وحفظ لكمال الدين أحمد مترلته ومكانته التى كانت له أيام الملك الكامل ، ثم لم يلبث السلطان أن أفرج عن الأمير فخر الدين وأخرجه من سجن القلعة فى سنة ٦٣٨هـ / ١٢٤٠م .

---

[٢٨] - سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٠٧ ؛ ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ١٧١ - ١٧٣ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٢٨ ؛ أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٠٣ - ٣٠٥ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٢٣ ؛ الحنبلى ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ص ٣٤٧ .

[٢٩] - ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ١٧١ - ١٧٣ .

[٣٠] - مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

وقد أسلفنا من قبل ما قام به أولاد الشيخ فى عهد الصالح نجم الدين وما أدوه للدولة من خدمات ، وما لقيوه من تكريم أيضا وثقة من جانب السلطان ، وقد اتضح ذلك تماما مما يرويه المؤرخون مثلا عند خروج معين الدين حسن مقدما للعسكر المصرى المتجه إلى دمشق فى عام ٦٤٢هـ / ١٢٤٤م ، فيقول المقريزى[٣١] "وخرج الصاحب معين الدين الحسن بن شيخ الشيوخ على العساكر من القاهرة ومعه الدهليز السلطانى والخزائن ، وأقامه السلطان مقام نفسه ، وأذن له أن يجلس على رأس السماط ، ويركب كما هى عادة الملوك ، وأن يقف الطواشي شهاب الدين رشيد أستادار السلطان فى خدمته على السماط ، ويقف أمير جاندار والحجاب بين يديه كعادتهم فى خدمة السلطان ، وكتب إلى الخوارزمية أن يسيروا فى خدمته" . وهذه العبارات لا تحتاج إلى تعليق إلا أن نورد منها ما جاء فيها دالا غاية الدلالة وهى عبارة "وأقامه السلطان مقام نفسه" .

أما ما كان من أمر فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، فإن السلطان سرعان ما أصدر قراراً بتحديد إقامته فى بيته ، ويعلل ابن واصل ذلك بقوله إن الأمير فخر الدين بعد أن أطلق الصالح نجم الدين سراحه "ركب ركبة عظيمة ، واجتمع له خلق من الرعية ودعوا له لأنه كان محببا إلى الناس لكرمه وحسن سيرته ، فبلغ الملك الصالح نجم الدين ، فاستشعر منه ولم يعجبه ذلك وأمره أن يلزم بيته"[٣٢] ، وكانت هذه المسألة من الأمور التى أودعها ابن واصل فيما بعد صحيفة اتهاماته وجعلها من بين الأسباب التى أوغرت صدر الصالح ضده وأدت إلى وقوع الوحشة بينهما ، وذلك أمر سوف نعود إلى مناقشته تفصيلا عند ذهابنا إلى محكمة التاريخ فى صحبة الأمير فخر الدين .

وقد امتدت مدة الإقامة الجبرية هذه التى حكم على ابن شيخ الشيوخ بقضائها فى داره إلى ما يقرب من أربع سنوات ، حتى عفا عنه السلطان فى عام ٦٤٣هـ / ١٢٤٦م ، والذى يدعو للانتباه أن فخر الدين خرج من معتقله إلى حيث المكانة التى تليق به كواحد من أبناء أسرة الشيوخ، ليس هذا فحسب بل لكفاءته وتعدد مواهبه ، وهو ما أدركه فيه الكامل وقدره ، وما تنبه إليه الصالح وأفاد منه ، فما أن أفرج عنه حتى "خلع عليه وأمره

[٣١] - السلوك جـ١ ص ٣١٨ - ٣١٩ وقارن ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٣٤١ ؛ ابن أيبك ، الدر المطلوب، ص ٣٥٤ . والأستادار هو أحد أرباب السيوف ويتولى الاشراف على البيوت السلطانية ، وله التصرف التام فى احضار ما يحتاجه كل من بيت السلطان من النفقات والكساوى . أما أمير جاندار فهو أيضا أحد أرباب السيوف ، ويتولى الاستئذان لدخول الأمراء لخدمة السلطان ويدخل أمامهم إلى الديوان ، وإذا أراد السلطان تعزيز أحد أو قتله كان ذلك على يد صاحب هذه الوظيفة ... وهو الذى يطوف بالزفة حول السلطان فى سفره . راجع القلقشندى ، صبح الأعشى، جـ٤ ، ص ٢٠ .

[٣٢] - ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

وقدمه وأحسن إليه إحسانا كثيرا[٣٣]، و لم يلبث أن عهد إليه بقيادة العساكر المصرية لمواجهة الملك الناصر داود صاحب الكرك الذى وطد علاقته مع الخوارزمية وسعى كلاهما لمضايقة الصالح نجم الدين ، فاستولى فخر الدين على ما كان بيد الملك الناصر داود من البلاد وهى القدس ونابلس وبيت جبريل والصلت والبلقاء، ثم اتجه بعد ذلك إلى الكرك وألقى حصاره عليها بعد أن التجأ إليها الناصر ومن معه من الخوارزمية ، وكان ذلك فى عام ٦٤٤هـ / ١٢٤٦م ، فخرب ما كان حولها ، وضيق على الناصر ومن معه حتى قل ما عند الناصر من المال والذخائر[٣٤] ، فلما اشتد عليه الأمر بعث إلى فخر الدين يستعطفه ، فتم الاتفاق بينهما على أن يسلم الناصر كل من عنده من الخوارزمية إلى ابن الشيخ ، فتسلمهم منه ورحل عنه[٣٥] .

و لم يكد فخر الدين بن شيخ الشيوخ ينجز هذه المهمة بنجاح حتى أمره السلطان الصالح بالخروج على رأس جيش كثيف للإغارة على عدد من المناطق التى يحتلها الصليبيون، فاتجه إلى عسقلان سنة ٦٤٥هـ / ١٢٤٧م وحاصرها وفتحها وهدم تحصيناتها ، ثم رحل عنها إلى طبرية فأنزل بها ما حل من قبل بعسقلان[٣٦] حتى إذا حققت هجماته أغراضها كتب إليه الصالح يأمره بالتوجه إلى دمشق بمن معه من العساكر بعد أن حملت إليه الأنباء عزم الناصر صلاح الدين صاحب حلب القفز على المدينة وضمها إلى أملاكه ، فقدم ابن الشيخ إلى دمشق وبقى مقيما بها حتى قدم الصالح نجم الدين أيوب إليها فى السنة التالية ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م ، وأقام بها جمال الدين بن يغمور نائبا للسلطنة[٣٧] ، وعهد فى الوقت نفسه إلى الأمير فخر الدين بالخروج على رأس جيشه إلى حمص لاستخلاصها من يد الحلبيين ، وقد ألقى ابن الشيخ حصاره عليها حتى إذا أمست قاب قوسين أو أدنى من الوقوع فى يديه ، وصل رسول الخليفة العباسى وعقد الصلح بين الطرفين ، وعاد الجيش المصرى إلى دمشق فأقام بها حتى نهاية هذا العام[٣٨] .

---

[٣٣] – المصدر السابق، نفسه، ص ٣٥٢ ؛ المقريزى ، السلوك، جـ١ ، ص ٣٢٢ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٣٣ – ٣٤ .

[٣٤] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ، ص ٣٦٣ – ٣٦٤ ؛ ابن أيبك، الدر المطلوب ، ص ٣٥٩ .

[٣٥] – ابن العميد ، أخبار الأيوبيين، ص ٣٥ .

[٣٦] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ،ص ٣٧٨ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص٣٦ ، العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ،جـ٥، ص ٢٣٠ .

[٣٧] – ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٣٦ .

[٣٨] – المصدر السابق نفسه والصفحة نفسها .

على هذا النحو كان الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العساكر المصرية هـو رجل المهام الصعبة وموضع ثقة السلطان الصالح ، كما كان موضع ثقة أبيه الكامل من قبل ، واستمرت هذه الثقة قائمة حيث عهد إليه بقيادة الجيش المصرى لمواجهة الحملة الصليبية السابعة التى يقودها لويس التاسع ملك فرنسا ، والتى ألقت مراسيها على الشواطئ المصرية عند دمياط سنة ٦٤٧هـ/١٢٤٩م لتبدأ بذلك محنة الأمير فخر الدين التى تمثلت فى هذه الاتهامات التى عرضناها فى صدر هذا الفصل ، والتى دفعتنا - كما ذكرنا - إلى تحريك هذه الدعوى من جديد أمام محكمة التاريخ .

ولن نخوض فى التفصيلات الخاصة بالإعداد للحملة ، وما جرى فى أوروبا ، وما فعله لويس التاسع قبل مقدمه من الاستعدادات وتوفير كل الإمكانيات التى تساعد أو تحقق لحملته النجاح ، وليعوض من خلالها ما لحق بالحملات التى سبقتها - باستثناء السادسة - من الفشل الذريع ، وهذه الأمور كلها يمكن الاطلاع عليها فى الكتب العديدة التى تناولت أحداث هذه الحملة ، ومن ثم فإننا نقول هنا مباشرة إن لويس التاسع رحل من ميناء ليماسول فى مايو ١٢٤٩م، بعد أن مكث فى قبرص ثمانية أشهر (سبتمبر ١٢٤٨ - مايو ١٢٤٩م) ، ليصل أمام دمياط فى المنطقة المعروفة بـ "جيزة دمياط" ، وليبدأ بذلك الخطوات نفسها التى سبقه إليها جان دى برين قائد الحملة الصليبية الخامسة[٣٩] .

وكان الصالح نجم الدين أيوب عندما وصلته أنباء إعداد الحملة الصليبية عن طريق فردريك الثانى ، قد أعتقد أن الصليبيين ، بمنطق الإفادة من العمليات العسكرية السابقة والأخطاء التكتيكية القاتلة التى أدت إلى فشل الحملة الخامسة ، لن يسلكوا الطريق نفسه الذى سلكته تلك الحملة حتى لا يدخلوا ثانية فى شبكات مياه النيل ، تجنبا للغوص كأسلافهم فى أوحال الدلتا ، إذا ما قطع المصريون الجسور المقامة على الفروع المختلفة للنهر ، وتوقع بالخبرة العسكرية أن يذهب لويس التاسع إلى اتباع الطريق الذى جاءت منه حملات عمورى الأول ملك بيت المقدس فى ستينيات

[٣٩] - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، القاهرة ١٩٦١ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ، الاسكندرية ١٩٦٩ ؛ سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٥٢ - ١٠٧٥ ؛ Setton, *A history of the Crusades*, II pp. 487 - 521; Runciman, *A history of the Crusades*, III pp. 255 - 292

القرن الثانى عشر ، ولذا قام بزيارة للمنصورة وتفقد حصونها ، ثم اتجه إلى أطراف محافظة الشرقية الحالية ليقيم منطقة عسكرية - جديدة لتقف فى وجه هؤلاء القادمين عن طريق الصحراء كما توقع ، وعرفت هذه المنطقة باسم الصالحية . وكان هذا الإجراء من جانب الصالح دليلا على فطنة عسكرية ، وإدراك لما كان من المفروض أن تقدم عليه الحملة الصليبية . غير أن نزول الصليبيين عند دمياط يوحى دون شك بأن تأثير التجار الإيطاليين على لويس التاسع لم يكن أقل منه على سلفه جان دى برين .

ومع كل هذه التوقعات التى تحتمها الخبرة العسكرية ، إلا أن السلطان أخذ فى الوقت نفسه يستعد حربيا لمواجهة هذا الغزو الصليبى ، فأنتقل من دمشق إلى مصر محمولا على محفة لاشتداد المرض به ، واستقر أول الأمر فى أشموم طناح التى اتخذ منها معسكرا له ومركزا لعملياته ، وأصدر أوامره بعودة القوات المصرية التى كانت على حصار حمص إلى مصر فورا، كما أنه عمل بكل ما وسعه الجهد على تحصين مدينة دمياط وتزويدها بالمؤن والذخيرة وآلات الحرب ، وليس أبلغ فى التعبير عن ذلك مما ذكره السلطان نفسه عن دمياط حيث يقول ما نصه[40] : "وأنا قويّت دمياط ، وملأها ذخائر من كل شئ ، يكفيها عشرين سنة مع ما كان عند أهلها من الذخائر ... وقويتها بجميع عسكر الديار المصرية ، من فارس وراجل ، وما خليت (هكذا) لها عذرا ، حتى بقيت وحدى فى أشموم بسبب المرض" .

وفى إطار هذه الاستعدادات العسكرية ، عهد السلطان إلى جماعة من الكنانية ، وهم الجند العرب الذين استوطنوا مصر فى المنطقة بين البرلس ومياط ، واشتهروا بالشجاعة والمثابرة فى القتال، ولعبوا دورا كبيرا فى الدفاع عن دمياط أثناء حصار الحملة الصليبية الخامسة ، عهد إليهم الملك الصالح بحماية المدينة من الداخل ، فشحنت أبراج المدينة وأسوارها بأعداد ضخمة منهم ، بينما أمر الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، القائد العام للجيش المصرى ، أن يتقدم على رأس جيشه إلى البر الغربى للنيل قبالة دمياط ، أو المنطقة التى تعرف - كما قدمنا - بـ "جيزة دمياط" ، والتى نزلت فيها الحملة الخامسة، والتى وردت التقارير إلى معسكر الصالح بأنها قصد الصليبيين الآن ، وأعطى الأوامر أيضا إلى الأمير حسام الدين ابن أبى على ، نائب السلطنة فى القاهرة ؛ بأعداد قطع الأسطول المصرى وتجهيزها بالرجال والعتاد ، وإرسالها وحدة بعد أخرى رفقة السفن التموينية إلى دمياط، لتكون مانعا ضد أية حركة صليبية تجرى فى نهر النيل[41] .

---

[40] - النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٩، ص ٣٤٣ .

[41] - زيادة ، حملة لويس التاسع، ص ١٠٣ ؛ جوزيف نسيم ، العدوان الصليبى، ص ٨٢ - ٨٣ .

ويبدو أن أخبار مرض الملك الصالح نجم الدين قد نقلت إلى الملك لويس التاسع عن طريق أعوانه من الصليبيين فى الشام ، ولابد أن يكون ملك فرنسا قد استبشر خيرا بهذه الأنباء ، ولعله أراد أن يستغل هذه الفرصة فيضرب ضربته والحديدة محماة ، أى ينتهز هذه النهزة للضغط على أعصاب السلطان المريض ، الواهن القوى ، عن طريق ما نعرفه فى زماننا هذا بـ "الحرب النفسية" ، مع أننا رأينا كيف أن الصالح وإن كان قد هدّه المرض فعلا كما تخبرنا المصادر المعاصرة، إلا أنه لم يكن أبدا خائر العزيمة ، بدليل كل ما أقدم عليه من استعدادات عسكرية فى الصالحية وأشموم طناح والمنصورة ودمياط وجيزة دمياط على المستويين البرى والبحرى على السواء . لكن لويس أراد أن يهتبل كل سانحة لإضعاف خصمه والنيل من عزيمته قبل أن تبدأ المعركة ، أو هكذا ذهب به الظنون ، ومن ثم فإنه بعث إلى سلطان مصر برسالة[42] تفيض بالتهديد والوعيد ، نقتطف منها هنا لأهميتها بعضا مما جاء فيها ، قال :

" ... (ونحن) نقتل العباد وندوس البلاد ، ونطهر الأرض من الفساد ، فإن قابلتنا بالقتال فقد أوجبت على نفسك ورعيتك النكال ، ورميتهم فى أسر الوبال ، فيكثر فيهم العويل ، ولا يرحم عزيز ولا ذليل ، ولا تجد إلى نصرهم من سبيل ، ونحن شرحنا لك ما فيه الكفاية ، وبذلنا لك غاية النصح والهداية ... فلا تكون فيك فترة ولا توان ، لتكون قلوبنا راضية عليك ، ولا تسوق حتفك إليك ، وتكون على نفسك وجيشك قد جنيت ، وتعود وتقول يا ليت .. فسيوفنا حداد ، ورماحنا مداد ، وقلوبنا شداد ، ويحكم بيننا وبينكم رب العباد" !!

والى جانب هذا التهديد الصريح والوعيد ، تضمنت الرسالة عبارات تفيض بالتبلهى والتفاخر بما تم ارتكابه من الفظائع والوحشية ضد مسلمى الأندلس خلال حرب الاسترداد الدائرة هناك ، وما تعرضت له الإسكندرية من هجمات سابقة على يد الصليبيين وملكى صقلية وبيت المقدس ، إشارة إلى ما ينتظر الصالح ومصر من سوء العاقبة إذا لم يبادر السلطان بإعلان الاستسلام واعتبار نفسه نائبا عن ملك فرنسا فى حكم مصر ، كما أفصحت سطور الرسالة !!

[42] - ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٦٦ - ٣٦٧ . وقد ناقش كل من الدكتور حسن حبشى فى كتابه ، الشرق العربى بين شقى الرحى ، ص ٣٦ - ٤١ ؛ والدكتور محمد مصطفى زيادة فى كتابه ، حملة لويس التاسع على مصر ص ١٠٨ ؛ والدكتور جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ، ص ٢٩١ - ٢٩٣ ، موضوع رسالة الملك لويس التاسع ورد السلطان الصالح نجم الدين أيوب عليها ، وموقف المصادر منها ، لمزيد من الدراسة راجع هذه المؤلفات .

ولم يحقق هذا الإنذار الفرنسى الآمال التى كان يعقدها عليه لويس ، بل على العكس زاد الملك الصالح عزيمة وإصرار على التصدى لهذه الغطرسة الصليبية ، فكتب إليه يقول :

" ... أما بعد ، فقد وصل كتابك ، وفهمنا لفظك وخطابك ، وهاأنذا قد أتيتك بالخيل والرجال ، والخزائن والأموال ، والعساكر والأثقال ، والقيود والأغلال ؛ فإن كانت لك فأنت الساعى وقد أمنت الناعى ، وإن كانت عليك فأنت الباغى لحتفك والجادع أنفك بظلفك .. وفى كتابك تهددنا بجيوشك وأبطالك وخيلك ورجلك ، أو ما تعلم أننا نحن أرباب السيوف وأبطال الحتوف ، ما نزلنا على حصن إلا هدمناه ، ولا عدم منا فارس ، إلا جددناه ، ولا طغى علينا طاغ إلا دمرناه ، فلو نظرت أيها المغرور حد قلوبنا ، وجد حروبنا، لرأيت فرسانا أسنتهم لا تمل وسيوفهم لا تكل وقلوبهم لا تذل ، ولعضيت على يدك بسن الندم ، ولأخرت تحريك قدم عن قدم ، فلا تعجبك العساكر التى بين يديك، فهو يوم أوله لنا وآخره عليك . فإذا قرأت كتابى هذا فلتكن منه على أول سورة النحل "أتى أمر الله فلا تستعجلوه" ، ولتكن منه على آخر سورة ص "ولتعلمن نبأه بعد حين"، هنالك تتطاول نحوك الأعناق وتشخص صوبك العيون ، ويشوبك الويل ، وتسوء بك الظنون، "وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون" . ونعود إلى قول الله تبارك وتعالى وهو أصدق القائلين : "كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين" ، وإلى قول الحكماء "إن الباغى له مصرع" ، وبغيك يصرعك وإلى البلاء يقلبك والسلام"[٤٣] .

وكان لابد أن تأتى رسالة الصالح أيوب على هذا النحو ردا ايجابيا على ما حوته تهديدات لويس التاسع ، مبينا أن الصليبيين هم المعتدون ، وأنهم هم الذين سعوا إلى إشعال نيران هذه الحرب ، ومن ثم فرض الجهاد على المسلمين ، وكان حتما مقضيا ، ولا تخلو الرسالة أيضا من نغمة التخويف بالقوة التى يتمتع بها الجيش المصرى متمثلة فى فرسانه ومشاته بأسلحتهم وصبرهم على القتال وشدة بأسهم فى الحروب .

ووسط هذه الأجواء من الحرب النفسية ، ظهرت السفن الصليبية أمام الشواطئ المصرية فى يوم الجمعة الرابع من يونية ١٢٤٩ / العشرين من صفر ٦٤٧هـ ، وتعرضت عند ظهورها لمناوشات من جانب بعض قطع البحرية المصرية التى أرسلت بغرض الاستكشاف ، وإن كان الأسطول الصليبى قد طوق ثلاثا من هذه القطع الأربع واستولى على من وما فيها . وفى اليوم التالى مباشرة ، السبت بدأت القوات الصليبية فى النزول إلى

---

[٤٣] – ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٦٧ – ٣٦٩ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ص ٣٣٤ – ٣٣٥ .

الشاطئ الغربي للنيل قبالة دمياط ، فى المنطقة المعروفة بجيزة دمياط ، حيث كان يعسكر الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر والقوات المرابطة معه . ولم يكن نزول فرق الجيش الصليبي يسيرا ، إذ أخذت القوات المصرية فى التعامل معها فى محاولة لمنعها من الانتشار أو إقامة معسكر لها . وفقد الجيش المصرى فى هذه المعركة الأولية واحدا من أبرز قواده هو الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، وكان من أشد المقربين إلى السلطان الصالح أيوب ، وكذلك الأمير صارم الدين أزبك الوزيرى ، واستطاع الصليبيون فى نهاية الأمر أن يكملوا عملية إنزال القوات إلى الشاطئ ، وأن ينصب الملك خيمته ، ويضرب أمراؤه خيامهم حولها .

وفجأة ودون سابق إنذار ، انتهز الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، القائد العام للجيش، دخول الليل فانسحب بكل من معه من العساكر فى هدوء ودون جلبة إلى الشاطئ الشرقى للنيل عند دمياط ، حتى أن أحدا من المعسكر الصليبي لم يعرف برحيلهم إلا فى صبيحة اليوم التالى ، ولم يتوقف فخر الدين وقواته فى دمياط ، بل ولى وجهه وجيشه معه مباشرة إلى أشموم طناح حيث يعسكر السلطان . وكان لابد أن يثير هذا التصرف الفزع والهلع فى نفوس أهل دمياط وهم يرون مقدم العسكر وعسكره يخرجون بكامل قواهم وعددهم باتجاه المعسكر السلطانى ، وزاد الأمر سوءا أن جماعات الكنانية التى وكل إليها الدفاع عن المدينة وتحصنوا بأبراجها وأسوارها ، ما أن رأوا ذلك حتى أطلقوا هم الآخرون سيقانهم للريح ، بعد أن أشعلوا النيران فى سوق المدينة ، "وخرجوا ومعهم أهل دمياط على وجوههم طول الليل ، ولم يبق بدمياط أحد ، بل تركوها صفرا من الرجال والنساء والصبيان ، ورحلوا مع العسكر هاربين إلى أشموم طناح" .

وسوف أترك المجال هنا للمؤرخ المعاصر ابن واصل ليعلق على هذه الأحداث المتلاحقة التى لم تستغرق من الليل إلا ساعات معدودات ، وترتب عليها أمور جسام كادت تقلب كفة التوازن الدولى فى المنطقة لو تم للصليبيين تحقيق حلمهم بالسيطرة على مصر، وليس هناك أقدر على وصف ما حدث من مؤرخنا هذا ابن واصل، يقول: "... كان هذا فعلا قبيحا منهم ومن فخر الدين والعساكر، فإن فخر الدين لو منع العسكر من الهرب، وأقام ، لامتنعت دمياط ، فإن دمياط فى الكرة الأولى لما نازلها الفرنج أيام الملك الكامل (الحملة الصليبية الخامسة) كانت أقل ذخائر وعددا، ولم يقدر الفرنج عليها إلا بعد سنة، فلما نوزلت سنة خمس عشرة وستمائة ، وأخذت سنة ست عشرة وستمائة، لم يتمكن العدو منها إلا بعد أن فنى أهلها بالوباء والجوع ... والكنانية وأهل دمياط لو غلقوا أبوابها

وتحصنوا بها بعد رجوع العسكر إلى أشموم طناح ، لما قدر الفرنج عليهم ، وكانت العساكر ردت إليهم ، ومنعت الفرنج عنهم ، والأقوات والآلات والعدد كانت عندهم فى غاية الكثرة ، فكانوا قدروا على حفظها سنتين أو أكثر من ذلك ، ولكن إذا أراد الله أمرا فلا مرد له"[٤٤] .

ولو قارنا هنا بين ما يذكره ابن واصل عن حصانة دمياط وشجاعة من بها الكنانية والمصريين أهل البلد ، وما فيها من الأسلحة والعتاد ، وبين ما قاله الملك الصالح عن تحصين المدينة وشحنها بالرجال والعتاد ، على النحو الذى أشرنا إليه من قبل ، وأضفنا إلى ذلك كله الاستعدادات العسكرية الضخمة التى قام بها السلطان ، سواء فيما يتعلق بالقوات البرية أو البحرية، لو جمعنا هذا كله لأدركنا أن الأمير فخر الدين - كما يبدو من ظاهر القول - لم يصدر أوامره بالانسحاب من جيزة دمياط والعودة إلى أشموم طناح ، عن ضعف فى هذه القوات أو نقص فى عتادها ، حتى أن جوانفيل ، كاتب سيرة لويس التاسع ، يقول "وصل الملك أمام دمياط، وأبصرنا أمامنا على الشاطئ كتائب السلطان ، وهى كتائب يستحب النظر إليها ، فقد كانت أسلحتها من الذهب (هكذا) إذا وقعت عليها الشمس كان لها بريق يخطف الأبصار ، وكان صوت طبولهم وأبواقهم يبعث الرهبة فى نفوس سامعيها "[٤٥] ، ومن ثم فإن هذا الانسحاب المفاجئ فى جنح الليل يمثل علامة استفهام كبيرة ، خاصة وأن كل عوامل النصر على الصليبيين الآن كانت قائمة .

وتجد علامة الاستفهام هذه إجابة لها عند مصدرين معاصرين ، أحدهما المؤرخ الصليبى جوانفيل ، شاهد العيان فى هذه الحملة ، والمؤرخ الإسلامى ابن واصل المعاصر لهذه الأحداث ، ونلتقط أول خيط فى الإجابة من قول جوانفيل "استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه بنبأ رسو المالك ، لكنهم لم يتلقوا جوابا ما عن رسائلهم لاشتداد العلة عليه فتبادر إلى أذهانهم أنه مات ، ومن ثم غادروا دمياط"[٤٦] ويعلل البغدادى[٤٧] عدم رد السلطان على الرسائل إلى أنه كان واقعا تحت تأثير المخدر الذى

---

[٤٤] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، نقلا عن الملحق رقم ١ فى كتاب دكتور محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر ، ص ٢٦٥ - ٣١٤ ، وهذا الملحق يتناول أخبار حملة الملك لويس التاسع على مصر منذ قدومها إلى الشواطئ المصرية إلى جلائها نهائيا عن دمياط ، منقول من الجزء الذى لايزال مخطوطا من كتاب ابن واصل ، مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب ، ولذا فإننا سوف نشير ابتداء من الآن فى الحواشى إلى ذلك بعبارة "الملحق المذكور" ونورد رقم الصفحة كما جاء ترقيمها فى كتاب الدكتور محمد مصطفى زيادة . راجع أيضا ، النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٣٣٤ .

[٤٥] - جوانفيل ، القديس لويس ص ٩١ .

[٤٦] - جوانفيل ، القديس لويس ص ٩٦ .

[٤٧] - الحوادث الجامعة ص ٢٤٠ (نقلا عن محمد محمد أمين ، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رسالة ماجستير بجامعة القاهرة غير منشورة ، ص ١٢٥ .

أعطاه إياه الطبيب ليخفف عنه آلامه ، ونصح فى الوقت نفسه بعدم إزعاجه . وأيا كانت الأسباب فإن الجيش المصرى المعسكر فى جيزة دمياط لم يتلق ردا على رسائله إلى الصالح أيوب . أما الخيط الثانى فنجده عند ابن واصل الذى يقول : "ولما عدى فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ والعسكر إلى البر الشرقى ، رحل العسكر طالبا أشموم طناح ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم ما يردهم ولا يردعهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح"[٤٨] .

والمصدران يتفقان على أن السبب الرئيسى فى انسحاب العسكر من الضفة الغربية للنيل وتركها خالية أمام الصليبيين ، كان اشتداد العلة على السلطان وتوقع وفاته بين لحظة وأخرى ، وهو أمر يقتضى حسب مفهوم العسكر آنذاك الوجود بالقرب من موقع الأحداث للمشاركة فيها أو التحكم فى مجرياتها وتسيير دفتها بما يتفق وطبيعة الأمور ، هذا ما يوحى به حديث المصادر . ويفهم للوهلة الأولى من رواية ابن واصل أنه يلقى بالتبعة كاملة على فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ حين يقول صراحة : "وكان هذا فعلا قبيحا منهم (يعنى الكنانية) ومن فخر الدين والعساكر ، فإن فخر الدين لو منع العسكر من الهرب وأقام لامتنعت دمياط" ، وكان اتهاما صريحا للأمير فخر الدين بالتفريط والتهاون فى المهام الملقاة على عاتقه من الناحية العسكرية ، وإخلالا بالواجب العسكرى المنوط به باعتباره القائد العام للجيش ، بل يصل الأمر إلى حد الاتهام بالخيانة العظمى حين ينسب إليه طمعه فى القفز على العرش ، وأنه ترك الجبهة وارتد إلى أشموم طناح لينتهز أول بارقة أمل فى موت السلطان ليحقق مأربه الذى يدفعه إليه طموحه الذى احتوت عليه نفسه منذ زمن بعيد يعود إلى بداية تملك الصالح نجم الدين أيوب سلطنة الديار المصرية ، على حد قول ابن واصل عنه صراحة ، "إنه كان عالى الهمة جدا ... وكانت همته تترقى إلى الملك ... وكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر"![٤٩] .

ولم يكن غريبا أن تحذو المصادر الأخرى حذو ابن واصل ، فهذا ابن أيبك[٥٠] يعتبر أن ما أقدم عليه الأمير فخر الدين يعد "رأيا ذميما وسوء تدبير" ، بينما يقول أبو المحاسن بن تغرى بردى[٥١] "إن هذا (يعنى الانسحاب) كان من قبيح رأى فخر الدين" ، فإذا ما جئنا إلى المقريزى وجدناه شديد اللوم لفخر الدين يكاد يردد عبارات ابن واصل ويقول "فعدت هذه

---

[٤٨] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٦ .
[٤٩] – المصدر السابق ، ص ٢٨٥ – ٢٩٤ .
[٥٠] – الدر المطلوب، ص ٣٦٩ .
[٥١] – النجوم الزاهرة، جـ٦ ، ص ٣٣٠ .

الفعلة من الأمير فخر الدين من أقبح ما يشنع به ... وقامت الشناعة من كل أحد على الأمير فخر الدين"[٥٢] وعلى نفس المنوال نهج المؤرخون المحدثون وكالوا الاتهامات للأمير فخر الدين واعتبروه مسئولا عن كل ما وقع من الأحداث الجسام التي صاحبت هذه الحملة السابعة على أرض مصر منذ سقوط دمياط حتى معركة المنصورة[٥٣] ولم يأخذ موقفا مغايرا

---

[٥٢] - المقريزي ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٣٥ - ٣٣٦ .

[٥٣] - يقول أستاذنا الدكتور سعيد عاشور "وربما كان السبب في تعجل فخر الدين في الفرار ، هو اعتقاده بأن السلطان المريض -الملك الصالح أيوب - قد توفي فعلا ، في الوقت الذي كان فخر الدين ذا أطماع "تترقى إلى الملك" (وهذه عبارة ابن واصل) ، مما جعله يسرع لتحقيق أطماعه تاركا دمياط لقمة سائغة للصليبيين" ، الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٠٦١ ، وافتتاح الحديث بكلمة "ربما" يفيد الشك أو الاحتمال والتحفظ في الوقت ذاته . بينما يعلنها الدكتور جوزيف نسيم يوسف حربا لا هوادة فيها ضد فخر الدين متهما إياه صراحة بالخيانة بعبارات تفوق أحيانا ما أدانته به عبارات المصادر ، ولأهمية ذلك في عرض القضية التي نحن بصددها ، فإنني آثرت أن انقل هنا نص ما كتبه أستاذنا الدكتور جوزيف نسيم يوسف رغم طول فقرات هذا النص : "... ويعلل بعض المؤرخين والكتاب المحدثين تراجع فخر الدين والعسكر بعجزهم عن ملاقاة الفرنج عندما أصبحوا أمامهم وجها لوجه ، بسبب تفوقهم عليهم في العدة والعدد ، حتى أن الرعب تملك القوات المصرية نتيجة هذا الهجوم المباغت فارتدت إلى دمياط وتركتها دون أية مقاومة إلى أشموم طناح .

"ويبدو أن هذا التعليل غير معقول (نجد بعد ذلك حديثا عن حصانة دمياط ومقاومتها إبان الحملة الخامسة وعبارات ابن واصل التي تلقي باللوم على فخر الدين لانسحابه) ... ومن الجائز أن يكون الرعب قد تسلل إلى نفوس العساكر الإسلامية عند مرآى الفرنج وأساطيلهم لكن هذا لا يمنعنا من القول بأن خوفهم من الصليبيين ليس هو السبب الحقيقي الذي دفع فخر الدين إلى الفرار بالعسكر وترك دمياط فريسة سهلة في أيدي العدو ، ويمكننا تفهم حقيقة هذا الموضوع الخطير من تحليل حياة فخر الدين نفسه وبحث المشاكل العامة المتعلقة بالدولة وقتئذ .

"لقد كان فخر الدين - كما وصفه المؤرخون - كبير المطامع عريض الآمال ، ويظهر أن هذا الأمير أيضا كان قد حدثته نفسه بالسلطنة في ذلك الوقت ، فإنه جاء في المصدر السابق (يعني ابن واصل ، مفرج الكروب) "كان قد انتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وكانت همته تترقى إلى الملك" .

"أخذ فخر الدين يتحين الفرص لبلوغ أهدافه وتحقيق مآربه ، ولقد وجد جميع الظروف مهيأة له تستدعيه لتحقيق حلمه المنشود الذي طالما كان يسعى إليه ، فعندما لم يتلق ردا على رسائله التي بعث بها إلى السلطان ، اعتقد أن السلطان المريض قد مات ، فانتهز هذه الفرصة المواتية ورحل هو والعسكر عن دمياط علّه يستولي على الملك . وقد جاء في مخطوط ابن واصل نص صريح يكشف عن حقيقة نوايا هذا الأمير المصري (!!) وعسكره يقول فيه (وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، فلم يكن لهم من يردعهم أو يردهم ، فرحل فخر الدين يوسف بن الشيخ إلى جهة أشموم طناح ، كما ذكر في موضع آخر ، ولم يبق للسلطان (!!) قدرة على ضبط جنده وقد اشتد طمعهم فيه) ، يتضح لنا مما سبق أن فرار فخر الدين والعسكر لم يكن في الواقع خوفا من كثرة عدد الفرنج أو عددهم ، لكنهم أرادوا استغلال هذه الفرصة الذهبية لتحقيق مطامعهم ، ظنا منهم أن سلطانهم قد وافته منية فتركوا المدينة مسرعين نحو العاصمة (من المعروف أنهم لم يتجهوا إلى العاصمة ، القاهرة ، بل اتجهوا إلى المعسكر السلطاني في أشموم طناح) ، علهم يحصلون على ما كانوا يأملون من الملك والسلطان ، غير ملتفتين إلى الدفاع عن دمياط ، بينما لو ثبتوا فيها لأمكن صد عدوان الصليبيين وردهم على أعقابهم" .

ويواصل الدكتور جوزيف هجومه على فخر الدين فيقول "وبالرغم من الخيانة التي اتهم بها فخر الدين عند ارتداده عن دمياط دون قتال ، فإنه كان محبوبا من الناس (!!) ولهذا فقد عهد إليه بقيادة الجيوش وتدبير شئون المملكة قبل أن يصل المعظم (تورانشاه بن الصالح) من الحصن (حصن كيفا) . ولمتسائل أن يقول : إذا كان فخر الدين طامعا في الملك حتى أنه أخلى دمياط مدفوعا بهذا السبب ، فما هو موقفه من موت الصالح ؟ وهل ظل مكتوف اليدين أم جدد محاولاته للوصول إلى كرسي السلطنة ؟ لقد عمل هذا القائد المصري على استغلال هذه الفرصة ، فأصبح فعلا صاحب الأمر والنهي بعد موت سيده ، وتصرف في الأمور تصرفا مطلقا ، وشرع في إطلاق المساجين ، وأحسن إلى الرعية ، وأبطل بعض المكوس ، وأنفق في المعسكر ، وخلع على خواص الأمراء ، وقرب إليه أولئك الذين كان قد أبعدهم الصالح أيوب مثل ابن مطروح والبهاء زهير ، كما صار له موكب عظيم بالمنصورة ، والأمراء كلهم في خدمته ، ويترجلون له كلهم عند النزول ، ويحضرون سماطه ، حتى لقد خشي حسام الدين نائب السلطنة بالقاهرة أن يستأثر فخر الدين بالملك ويستبد به لنفسه ، فسير قاصدا من قبله إلى المعظم يحثه على سرعة القدوم إلى مصر قبل أن تخرج البلاد من يده ، كذلك بعثت شجر الدر وباقي الأمراء القصاد لإحضار المعظم ، وما أمكن فخر الدين إلا الموافقة على ذلك

لذلك إلا الدكتور محمد مصطفى زيادة ، الذى تحفظ على هذه الاتهامات التى سيقت ضد الأمير فخر الدين ، بقوله : "... اعتقد الأمير فخر الدين أن باستطاعته أن ينسحب بجيشه مؤقتا من الميدان ، وأن يذهب إلى حيث يضطجع السلطان المريض حيا أو ميتا ، ليشارك أولا فى تقرير ما ينبغى تقريره من الشئون العليا فى سياسة الدولة والوراثة السلطانية "[٥٤] .

ويمضى الدكتور زيادة قائلا : "والحق ، إنه بالإضافة إلى اختلاف معايير العصور الوسطى فى الشرق والغرب عن معاييرنا فى العصر الحاضر ، لم يكن من السهل ، ولا من المنطق الشخصى فى تلك العصور الوسطى ، أن يرضى القائد فخر الدين بالبقاء بعيدا عن المعترك السياسى البلاطى، أى حول سرير المريض ، أو أن يظل مشغولا بعمل حربى يمكن الانصراف إليه فيما بعد ، أى بعد تقرير مصير السلطنة ، ثم إنه كان القائد فخر الدين شعر بأنه مبعد عمدا عن الميدان السياسى الداخلى ، بناء على إشارة من بعض المحيطين بشخص السلطان المريض ، وأنه ربما يخدم مصالح السلطان والدولة الأيوبية ، ومصالحه الشخصية الخاصة به كذلك ، بذهابه فى سرعة إلى أشموم طناح "[٥٥] .

وبعد أن يوضح الدكتور زيادة عبارة "المصالح الشخصية" هذه لدى الأمير فخر الدين وذلك من وجهة نظر المؤرخين المعاصرين أو المحدثين كما بيناها آنفا ، يختتم حديثه بقوله : "غير أن حوادث حملة الملك لويس التاسع بعد كارثة دمياط ، سوف تفند هذه الشكوك (التى سيطرت على متهمى فخر الدين) ، وسوف تبرهن على أن الأمير فخر الدين كان من المفترى عليهم فى التاريخ حسب معايير العصور الوسطى "[٥٦] .

حتى لا تحوم حوله الشبهات ، خاصة وأنه كان يستبعد وصول توارنشاه من الحصن لعلمه أن الأعداء كانوا متربصين له فى الطريق، وقد تنكر بعض الأمراء الصالحية عقب موت الصالح لفخر الدين وعزموا على قتله . ولكن بحمد هذه الفتنة استدعاهم إليه وأعلمهم أنه لا طمع له فى الملك ، وأنه إنما يحفظه للمعظم إلى أن يصل ، وواضح أن فى ذلك إشارة من طرف خفى إلى طمعه فى الملك ، وإلا لما كان هناك أى مبرر لثورة بعض الأمراء عليه ، وأن يستدعيهم ليطمئنهم بأنه لا يعمل للوصول إلى العرش ، وإنما لحفظه إلى أن يحضر ابن سيده" .

ويختتم الدكتور جوزيف دعوى الاتهام العنيف بقوله "وهكذا نرى أن سلوك فخر الدين وتصرفاته بعد موت الصالح أيوب ، كانت تدل على أنه كان يسعى سعيا حثيثا إلى الملك ، لكن القضاء لم يمهله طويلا إذ استشهد قبل وصول المعظم بقليل ، بينما لو واتته الظروف وقدر له أن يعيش لكان ربما تسلطن ولصار إليه ملك البلاد . راجع ، العدوان الصليبى على مصر ، ص ١٠٣ - ١٠٦ ، ١٤١ - ١٤٣ .

[٥٤] - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع ، ص ١١٤ .

[٥٥] - محمد مصطفى زيادة ، حملة لويس التاسع ص ١١٤ .

[٥٦] - المرجع السابق نفسه ص ١١٤ - ١١٥ ، ومن الجدير بالذكر أن الدكتور زيادة عند تحقيقه كتاب "السلوك لمعرفة ولى الملوك" للمقريزى فى عام ١٩٥٦ ، ذكر تعليقا يفيد الموافقة نسبيا على رأى ابن واصل والمقريزى فى اتهام فخر الدين ، فقد جاء فى حاشية رقم ٥ ص ٣٤٥ من الجزء الأول من كتاب السلوك للمقريزى ، قوله : " يظهر أن الأمير فخر الدين كان قد حدث نفسه بالسلطنة فى ذلك الوقت ، فإنه حسبما جاء فى ابن واصل " كان قد انتهى إلى قريب رتبة الملك الصالح ، وكانت همته تترقى إلى الملك " ، وفى عام ١٩٦١ أصدر الدكتور زيادة كتابه " حملة لويس التاسع على مصر " وذكر الآراء التى عرضنا لها فى المتن ويبدو فيها التحفظ واضحا على اتهامات المؤرخين لفخر الدين .

وبعد تلاوة صحيفة الدعوى المرفوعة ضد فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، والمفعمة بقائمة الاتهامات والشكوك ، و "الشناعات" على هذا النحو الذى رأينا ، فإنه لا مدنوحة ، سواء بشأن هذه الصحيفة ووجودها أو عدم تحريكها ، عن التسليم المطلق بداهة وبداية إن إقدام أى قائد عسكرى ، ناهيك عن القائد العام ، على الانسحاب بقواته من ميدان المعركة ، دون أن يكون هذا ضمن الخطة التكتيكية الحربية للمعركة ، بعد إخلالا بالواجبات العسكرية ، وإنما كبيرا يجب أن يواجه بأقصى عقوبة ينص عليها القانون العسكرى ، كان هذا فى العصور الوسطى أو العصر الحديث ، وهذا هو ما فعله السلطان الصالح أيوب مع الكنانية الذين تركوا مواقعهم فى أبراج مدينة دمياط وأسوارها وهربوا ، حيث أصدر أوامره بإعدام خمسين أو يزيد من زعمائهم ، وتم فعلا إعدامهم ، هذا فى الوقت الذى اكتفى فيه بتوجيه اللوم والتأنيب فقط إلى قائد جيشه ، وأبقاه فى منصبه كما هو ، قائدا عاما للجيش المصرى !! وهذه مسألة لاشك تثير الحيرة والدهشة أمام أى باحث إذ كيف يتم شنق خمسين من زعماء الكنانية لفرارهم من دمياط ، مع أن هذا جاء نتيجة لما رأوه من تخلى الأمير فخر الدين عن مواقعه فى الضفة الغربية للنيل ، ومروره بدمياط فى طريقه إلى أشموم طناح ، ومن ثم تبعوه حسبما جرت به رواية المصادر ؟! .

وقبل أن نصدر حكما فى هذه القضية الشائكة ، فإنه يتحتم علينا إعادة قراءة النصوص المعاصرة بدقة وروية ، بل والتوقف طويلا أمام كل اتهام تضمنته صحيفة الدعوى ومناقشة أصحابها ، حتى يجئ الحكم متفقا مع حيثياته .

علمنا من جوانفيل أن الانسحاب جاء نتيجة لعدم تلقى القوات المعسكرة فى جيزة دمياط ردا على الرسائل الثلاث التى بعث بها القائد العام إلى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح، وسريان شائعة احتمال موت الملك الصالح ، ولعل الذى يقفز إلى الذهن الآن مباشرة تساؤل ملح عن مضمون تلك الرسائل وما الذى كانت تحتويه . ولما كانت المصادر تخلو حتى من الإشارة إلى هذه الرسائل ، و لم يزد جوانفيل عن ذكر عددها فقط ، فليس أمامنا من سبيل إلا أن نستقرى سطورها من بين الأحداث والوقائع التى صحبتها أو تلتها . والذى لاشك فيه أن هذه الرسائل لابد أن تكون أشبه شئ بما نعرفه فى زماننا هذا بالبلاغات الحربية التى تصدرها القيادة العامة للجيش عن سير المعارك ، ومن ثم فمن المتوقع أن تكون الرسالة الأولى قد حملت إلى المعسكر السلطانى نبأ نزول القوات الصليبية إلى الشواطئ

المصرية عند جيزة دمياط ، قبالة القوات المصرية المرابطة هناك[٥٧] إضافة إلى تقرير القيادة العامة لعدد الجيش الصليبي والأسطول المصاحب له ومن المتوقع أيضا أن تكون الرسالة الثانية قد أبلغت السلطان بأخبار المناوشات التي وقعت بين طلائع القوات الغازية ومقدمة الجيش المصرى ، وهى المناوشات التي استشهد فيها الأمير نجم الدين بن شيخ الإسلام ، والأمير صارم الدين أزبك الوزيرى ، كما أسلفنا ، وكانت محاولة لوقف انتشار الجيش الصليبي ، ويبدو طبعا أنها لم تستمر طويلا ، إذ نقف على ذلك من قول الملك الصالح للعسكر بعد عودتهم إلى أشموم طناح "أما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج"[٥٨] ، وليس من المستبعد أن تكون الرسالة الثانية هذه قد تضمنت إلى جانب ذلك الإشارة إلى خطورة الموقف من جراء التفوق العددى الواضح للجيش الصليبي ، خاصة وأن المنطقة التي تعسكر فيها فرق الجيش المصرى لم تكن على قدر من الحصانة العسكرية بحيث تهيئ فرصة دفاعية أفضل من مواجهة الصليبيين ، وعليه فليس من المستبعد أيضا أن يكون القائد العام ، الأمير فخر الدين ، قد طلب المشورة من السلطان فيما يتعلق بهذا الأمر .

ولما لم يتلق مقدم العسكر ردا على رسالتيه السابقتين وبخاصة الثانية ، بادر على الفور بإرسال الثالثة والتي نرجح أن يكون قد عرض فيها على السلطان مقترحات محددة بشأن الموقف العسكرى وكيفية مواجهته ، وإدخال بعض التعديلات على الخطط الحربية السابقة التي كان السلطان قد أقرها بشأن الدخول فى معركة حاسمة مع الصليبيين عند نزولهم إلى الشواطئ المصرية فى جيزة دمياط ، وهو ما ارتآه عقب عودته مباشرة من الشام إلى مصر ، لدى سماعه بأنباء قدوم الحملة الصليبية ، ولما كان فخر الدين قد وقف الآن عن قرب على حقيقة الموقف العسكرى ، وأيقن أن الدخول فى معركة فاصلة مع الصليبيين فى جيزة دمياط غير مضمونة العواقب أمام كثافة أعداد الجيش الصليبي ، لذا رأى أن يجرى تعديلا سريعا فى الخطة الحربية السابقة بما يضمن عدم نجاح الصليبيين فى تحقيق أهدافهم .

وتؤكد رجحان كفة هذا الرأى عندنا ما أخبرتنا به المصادر عن حجم قوات لويس التاسع وكثرة أعدادها ، فابن واصل يقول : "... وصلت مراكب الفرنج وفيها جموعهم العظيمة ، وقد انضمت إليهم إفرنج الساحل جميعها ، (يقصد الصليبيين بالشام) ، فأرسوا فى البحر بازاء المسلمين"[٥٩] ، وقد أسلفنا أن هذه السفن أسرت ثلاثا من سفن الأسطول

---

[٥٧] - يقول جوانفيل " استغاث المسلمون بالسلطان ثلاث مرات عن طريق الحمام الزاجل يخبرونه بنبأ رسو الملك ، راجع القديس لويس ص ٩٦ .

[٥٨] - المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٣٦ .

[٥٩] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٥ .

المصرى بمن وما فيها ؛ أما ابن أيبك الدواداري[٦٠] فيخبرنا أن الإمبراطور فردريك الثـــانى ، الذى لم تنقطع صلته بالأيوبيين بعد وفاة السلطان الملك الكامل ، أرسل إلى السلطان الملـك الصالح بخبره بخروج هذه الحملة الصليبية قاصدة مصر ، وأنه (أى لويس التاسع) "قد وصـل فى خلق كثير" ثم يقول ابن أيبك نفسه "وصل إلى دمياط مراكب سدت البحر كثرة" ؛ هـذا على حين يردد المقريزى[٦١] عبارات ابن واصل حيث يقول : "وصلـــت مراكـــب الفرنـــج البحرية وفيها جموعهم العظيمة ... وقد انضم إليهم فرنج الساحل كله ، فأرسوا فى البحـــر بإزاء المسلمين" ؛ بينما يخبرنا أبو المحاسن[٦٢] بأن ملك فرنسا "قد خرج من بلاده فى جمـــوع عظيمة" ، ومن الملاحظ هنا أن هذه المصادر كلها تتحدث عن ضخامة الجيـــش الصليـبى وكثرة أفراده ، دون أن تحدد عددا معينا ، وقد أكمل الحنبلى[٦٣] الصورة بقوله : "جمع (ملك فرنسا) جمعه ، فكانوا نحو خمسين ألف مقاتل" ويذكر أبو الفدا[٦٤] العدد نفسه الذى ذكـــره الحنبلى . وحتى يصبح الموقف أكثر وضوحا فإننا نورد ما يذكره كاتب سيرة لويس ، نعـنى جوانفيل ، الذى يخبرنا فى سطور متفرقات عن قوة الجيش الصليبى ، فيذكر أولا عند مغادرة لويس لقبرص ، "أن البحر على امتداد البصر كان مغطى بقلاع السفن التى بلغ عددها ألفـــا وثمانمائة سفينة ما بين كبيرة وصغيرة"[٦٥] ، وعند الوصول أمام شواطئ دمياط ، يقول "دعـــا الملك باروناته للتشاور فيما يفعلون ، فأشار عليه الكثيرون بوجوب الانتظار حتى يعود جميع رجاله (وكانت العواصف قد باعدت بين كثير من سفن الأسطول الصليبى) ، خاصة وأنه لم يبق منهم حوله سوى مالا يجاوز الثلث"[٦٦] ، ومع أن جوانفيل لا يضع رقما معـــين لعـــدد جنود الحملة ، إلا أننا نستطيع أن نقف على تقدير تقريبى لضخامة الجيش من أسماء الأمـــراء الذين شاركوا لويس فى حملته طبقا للنظام العسكرى ، فى الإقطـــاع الأوروبى فى العصـــور الوسطى[٦٧] ، وكان فى مقدمة هؤلاء الأمراء إخوته الثلاثة روبرت كونت أرتوا ، وألفونـــس كونت بواتييه ، وشارل كونت أنجو[٦٨] . والرقم الوحيد الذى ذكره جوانفيل كان عن عـــدد

---

[٦٠] - الدر المطلوب، ص ٣٦٦ .

[٦١] - السلوك، حـــ١ ،ص ٣٣٣ - ٣٣٤ .

[٦٢] - النجوم الزاهرة ،حـــ٦ ،ص ٣٣٠ .

[٦٣] - شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، ص ٣٢٩ .

[٦٤] - المختصر فى أخبار البشر ،حـــ٣ ،ص ١٨٧ .

[٦٥] - جوانفيل ، القديس لويس، ص ٩٠ .

[٦٦] - المصدر السابق ، نفسه ، ص ٩١ .

[٦٧] - يقول جوانفيل " ... كما أخذ الصليب هيو دوق برجنديا ، ووليم كونت فلاندرز والكونت الباسل هيو دى سانت بـــول ، وابـــن أخيه جوشيه ... وكوانت دى لامارش ، وابنه هيولى برون ، وكونت ساربوك وأخوه جوبرت دابرمونت " . هذا إضافة إلى أخـــوة لويس الثلاثة وكثيرين غيرهم . راجع القديس لويس ص ٧٥ - ٧٦ .

[٦٨] - جوانفيل ، القديس لويس ص ٧٥ .

الفرسان المحيطين بالملك وقدره بألفين وثمانمائة[٦٩] ، ومن هذه الأسماء وهذا الرقم وطبيعة نظام الفروسية فى العصر الإقطاعى ، اقترح أستاذنا الدكتور محمد مصطفى زيادة أن يكون المجموع الكلى لقوات لويس التاسع على أقصى تقدير ثمانية وعشرين ألف مقاتل[٧٠] ، وهو لم يبعد بذلك عن المراجع الأوروبية التى ذكر بعضها أن جيش الملك لويس كان خمسة وعشرين ألف مقاتل[٧١] ، بينما راوحها بعض آخر[٧٢] ما بين هذا الرقم الأخير وخمسة عشر ألف جندى فقط .

أما القوات التى كانت يقودها الأمير فخر الدين فى جيزة دمياط ، فقد وصلت منذ قليل مع قائدها من على حصار حمص فى أعالى الشام ، بعد أن أصدر الملك الصالح أوامره بسرعة عودتها حتى تتهيأ لمواجهة الغزو الصليبى ، ولم تكن أعداد هذه القوات تقترب بأى حال من الأحوال من أعداد جيش لويس ، وهذا أمر نقف عليه من الأعداد التى يذكرها لنا المقريزى[٧٣] عند حديثه عن التنظيمات العسكرية للجيش الأيوبى ، الذى كانت أعداد عسكره تتراوح فى أحسن الأحوال دائما بين أربعة عشر ألف مقاتل وعشرة آلاف .

على هذا النحو يمكن أن نقف فعلا على محتوى الرسالة الثالثة العاجلة التى بعث بها الأمير فخر الدين مقدم العسكر إلى الملك الصالح ، والتى رجحنا أن يكون قد أشار على السلطان فيها بضرورة تعديل الخطة الحربية ، والذى كان بالضرورة - كما أكدت الأحداث، يتضمن الانتقال من الضفة الغربية للنيل فى جيزة دمياط ، إلى الضفة الشرقية حيث مدينة دمياط نفسها بحيث يمكنها الصمود ومواجهة الصليبيين ، وتلك حقيقة يعرفها الأمير فخر الدين حق المعرفة ، ويدرك مدى قدرة دمياط على التصدى لحصار الصليبيين ، فقد كان معاصرا لأحداث الحملة الصليبية الخامسة ، قريبا جدا من الملك الكامل ، عارفا بكثير من الأمور العسكرية ، مدركا أن هذا يمثل أفضل الخيارات العسكرية التى يمكن الإقدام عليها ، بدلا من

---

[٦٩] - المصدر السابق نفسه ص ٩١ .

[٧٠] - حملة لويس التاسع ص ٩٩ وحاشية (من الصفحة نفسها .

[٧١] - Runciman, *Crusades*, III p. ; Grousset, *Croisades*, III, p. 438 n.I.

[٧٢] - Strayer (J.R.), *The Crusades of Louis IX* (in Setton, Crusades, II ,pp. 493 - 494.
وراجع أيضا: ماير (هـ. إ.) تاريخ الحروب الصليبية ، ترجمة/ عماد الدين غانم ، ليبيا ، ١٩٩٠ ، ص ٣٧٦ - ٣٧٧ .

[٧٣] - الخطط ، جـ١ ، ص٨٦ .

مواجهة القوات الصليبية فى معركة مكشوفة كان التفوق العددى فيها لجيوش لويس التاسع، كما أن المناوشات الأولى - كما بينا - كانت الغلبة فيها للملك الفرنسى . من هنا نرجح أن يكون الأمير فخر الدين قد عرض ذلك على السلطان ، مبينا عدم جدوى البقاء فى جيزة دمياط ، فلما لم يتلق ردا من المعسكر السلطانى على رسائله ، بادر بتنفيذ ذلك على مسئوليته الخاصة باعتباره القائد العام للجيش المصرى ، وليس هذا ضربا من التخمين ، ولكن هو ما تؤيده الأحداث من بعد ، والتى سوف نتناولها تفصيلا ، وإن كان يأتى فى مقدمتها أن السلطان الملك الصالح لم يقدم على اتخاذ أى عقوبة عسكرية ضد الأمير فخر الدين أو هيئة أركانه أو عساكره.

ويزيد من ترجيح ما نذهب إليه أن عملية الانسحاب من البر الغربى إلى البر الشرقى تمت بصورة منظمة وسريعة استغرقت فقط جزءا من الليل ، ولم يشعر بعملية الانسحاب هذه أحد من أفراد الجيش الصليبى المعسكر بالقرب جدا من هذه القوات المنسحبة ، ولو أن المسألة كانت فرارا كما يصوره المؤرخون ، لما تم بهذا الشكل الهادئ المنظم دون جلبة أو اضطراب ، حتى أن الصليبيين فوجئوا فى صبيحة اليوم التالى بعدم وجود قوات الصالح أيوب قبالتهم فى جيزة دمياط . ولم يحدثنا المؤرخون عن وقوع فرد واحد من هذه القوات المنسحبة غريقا فى النيل بسبب الفوضى والاضطراب التى تصاحب أى عملية للفرار والهروب من ميدان المعركة ، وهذا يعد دليلا واضحا أن الانسحاب تم فى سرية تامة وهدوء كامل وترتيب دقيق أشرف عليه القائد العام وهيئة قيادته ، ولو لم يجر الأمر على هذا النحو ، وتنبه الصليبيون لما يسميه المؤرخون "فرارا" لما تركوا هذه القوات تفلت من أيديهم ولأبادوا أفرادها عن أخرهم . ومن ثم يمكن القول بكل الاطمئنان أن هذا الانسحاب الذى قام به الأمير فخر الدين كان انسحابا تكتيكيا كى يتخذ من مدينة دمياط ، وبها من الرجال والذخائر والأقوات ما بها قاعدة عسكرية لعملياته ضد الصليبيين .

ومن وجهة النظر العسكرية البحتة ، يعد هذا الانسحاب عملية عسكرية ناجحة بكل المقاييس : إذ تم عبور القوات من الضفة الغربية للنهر إلى الضفة الشرقية خلال جزء يسير من الليل، والعدو على مقربة من هذه التحركات ، دون أية خسارة فى الأرواح أو العتاد ، وليس من المنطقى ولا من المقبول أن يقدم الأمير فخر الدين على إنجاز هذه المهمة ، التى عدها الصليبيون مكيدة دبرت لهم على حد قول المصادر ، ليكون هدفه الأساسى من ورائها الهروب من ميدان المعركة ، أو الإسراع إلى أشموم طناح لهوى فى نفسه بالوثوب على العرش ، لأن "همته كانت تترقى إلى الملك" كما يقول ابن واصل ! ولكن الذى نميل إليه

ونرجحه أن هذا العبور كان تكتيكيا لاتخاذ دمياط مركزا متقدما حصينا للمقاومة ، حيث يعسكر الكنانية "الشجعان" المنوط بهم أصلا الدفاع عن المدينة .

والذى لاشك فيه أن فكر القائد العام للجيش ، الأمير فخر الدين ، كان مشغولا آنذاك، إلى جانب النواحي العسكرية ، بما يمكن أن تكون الأمور قد جرت عليه فى أشموم طناح، وزاد من هذا القلق أنه لم يتلق ردا على رسائله من السلطان ، وهو يعلم جيدا أن الملك الصالح قد نقل من دمشق إلى أشموم طناح فى محفة لما ألم به من مرض شديد ، وأن وفاته أو أى مكروه يضاعف من عجزه فى مثل هذه الظروف الحرجة من الناحية العسكرية، قد يقود البلاد بالتالى إلى متاهات لايعلم إلا الله مداها ، ومن ثم كان لزاما عليه أن يكون فى قلب الساحة السياسية لضبط الأمور وحسن إدارة البلاد فى ذلك الوقت ، وهذا ما سوف تؤكده الأحداث التالية كما ستوردها تفصيلا فيما بعد .

وهكذا كانت الأمور تقتضى أن يترك فخر الدين جزءا من قواته فى دمياط لتعزيز دفاعاتها، والإسراع ببقية العسكر إلى أشموم طناح حيث يرقد السلطان ، وهنا فقط انقلبت المسألة إلى الفوضى الكاملة التى عجز القائد العام نفسه عن السيطرة عليها ؛ ذلك أن العسكر الذين كان من المفروض أن يبقوا فى دمياط ، لم يقبلوا ذلك واستحثوا خطاهم فى إثر فخر الدين ومن معه باتجاه أشموم طناح ، وزاد الأمر سوءا أن جماعات الكنانية أطلقوا هم الآخرون سيقانهم للريح ، وتركوا مواقعهم التى وكل إليهم الدفاع عنها فى أبراج المدينة وأسوارها ، وكان طبيعيا وقد رأى أهل دمياط هذا "الفرار" الذى قام به الكنانية ، أن يغادروا بدورهم المدينة "حفاة عراة" لا يلوون على شئ ، فى محاولة للنجاة بنفسهم بعد أن رأوا مدينتهم وقد خلت تماما من القوة المكلفة بالدفاع عنها، وهذه الوقائع كلها نستقيها من المصادر المعاصرة وخاصة مؤرخنا ابن واصل .

ولنتابع معا ما جرى به قلمه حيث كتب : "ولما عدى فخر الدين والعسكر إلى البر الشرقى، رحل المعسكر طالبا أشموم طناح ، وحصل عند العسكر طمع بسبب مرض السلطان"، وهذا يعنى نصا أن العسكر هم الذين حصل عندهم طمع وليس فخر الدين ، وأنهم هم الذين غذوا السير إلى حيث العسكر السلطانى ، وهذا تؤكده عبارة ابن واصل التالية مباشرة إذ يقول "فلم يكن لهم ما يردهم ولا يردعهم"[٧٤] ، ومعنى ذلك أن الأمير فخر الدين قد فقد السيطرة عليهم، وأدرك لساعته أن الأمور على هذا النحو سوف تفلت من

---

[٧٤] - مفرج الكروب ، الملحق المذكور ، ص ٢٦٦ .

بين يديه ، أو هى هكذا بالفعل حيث يضيف ابن واصل : "فإن فخر الدين يوسف لو منع العسكر من الهرب ، وأقام ، لامتنعت دمياط"، أى لتمكنت دمياط من الصمود أمام جند لويس ، ومع أن العبارة تلمز فخر الدين من طرف خفي لمن يدقق فى كلماتها ، إلا أنها فى معناها الظاهرى تعد دليل صدق على ما تذهب إليه من أن العسكر هم الذين أحدثوا هذه الفوضى ، ولم يرتدعوا للأوامر العسكرية "بسبب ما حصل عندهم من طمع نتيجة مرض السلطان" . ولم يكن هذا أمرا جديدا على المعسكر ، بل إنهم مارسوه مع الصالح نفسه من قبل عندما كان فى الشام قبل اعتلائه عرش السلطنة فى مصر ، ومارسوه من بعد مع أميرهم فخر الدين نفسه عند وفاته على نحو ما سنبينه من بعد .

والآن .. نقدم شهادة شاهد عدل تثبت ما لا يدع مجالا للشك مطلقا صحة كل ما ذهبنا إليه عن فحوى رسائل الأمير فخر الدين وهو بعد فى جيزة دمياط ، والتعديل الذى أدخله على الخطة العسكرية السابقة وأطلع عليه السلطان قبل تنفيذه ، وعزمه على تقوية دفاعات دمياط كى تصبح قاعدة الدفاع عن الديار المصرية ، وأن الرجل لم يكن له يد مطلقا فى هذه الفوضى التى حدثت وحدثنا عنها نحن الآن ، هذه الشهادة جرت على قلم الملك الصالح نفسه فى وصيته لابنه تورانشاه ، يقول : " ... فلما أن أقبل العدو وشاهدوه وطلبوا البر بالحراريق[٧٥] انهزموا وسلموا لهم البر ، واشتغلوا بالنساء ونقلهم من دمياط ، وهربت العوام وتبعهم الأجناد ، وكان المقدم عليهم الأخ فخر الدين ، الذى ساق خلفهم وردهم ، وجعل على أبواب دمياط كل باب أمير ، فلما أصبح ما وجد فى المدينة أحدا، هربوا الكنانية فى الليل ، وكسروا الخوخ (الطاقات والنوافذ فى الحصون) ونزلوا من السور ، وتركوا أموالهم وذخائرهم ، نهبوها المسلمين (هكذا) بعضهم بعض (هكذا) وأخلوا دمياط حتى أخذها الفرنج ثانى يوم"[٧٦] . ولا تحتاج هذه الشهادة إلى تعليق ، ومن ثم فلسنا مبالغين حين قلنا إن ابن واصل كان يلمز الأمير فخر الدين فى قوله " لو منع العسكر ، وأقام ، لامتنعت دمياط " ، فقد فعل ابن شيخ الشيوخ أكثر من ذلك حين رتب الدفاعات على الأبواب ، " وساق وراء العسكر وردهم " ، ولكن فوضى جبلوا عليها ، و " طمعا " داعب هوى فى نفوسهم جعلهم يتخلون عن واجباتهم العسكرية .

---

[٧٥] - مفردها " حراقة " وهى نوع من السفن الحربية التى ترمى بالنيران ، انظر درويش النخيلى ، السفن الإسلامية على حروف المعجم ، ص ٣٢ .

[٧٦] - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٤٤ .

ولم يكن ما فعله العسكر بالأمر المستغرب وبصفة خاصة فى السنوات الأخيرة للدولة الأيوبية ، وكانوا فى معظمهم من الأكراد والأتراك والتركمان وعناصر أخرى ، ولعل هذا هو الذى دفع الملك الصالح نجم الدين أيوب إلى الاعتماد على جماعة الخوارزمية فى حروبه مع الصليبيين فى الشام أو ضد أقاربه من البيت الأيوبى هناك ، فلما تبين له عدم التزام هؤلاء الأخيرين أيضا بالانضباط العسكرى ، عمد إلى شراء هذه الأعداد الكبيرة من المماليك الذين أصبحوا خاصة عسكره ، وغدا لهم أستاذا ، وأخلصوا له وظلوا على ولائهم التام له حتى موته ، وكونوا من بعده دولة قوية حملت اسمهم . ولم تكن حقيقة أولئك العسكر غائبة عن الملك الصالح ، ويعبر ابن أيبك[٧٧] عن ذلك فى عبارات واضحة لا لبس فيها حين يقول : " اشترى (الملك الصالح) من المماليك الترك ما لم يشتر أحد من الملوك مثله من قبله ، حتى عاد أكبر جيشه مماليكه ، وذلك لكثرة ما جرب من عدد الأكراد والخوارزمية وغيرهم من الجيوش" . وما لنا نذهب بعيدا والملك الصالح نفسه كتب ذلك بقلمه فى وصيته لابنه تورانشاه حين قال : " يا ولدى ، أكثر الأجناد اليوم عامة ، وباعة وقزازين ، كل من لبس قباء وركب فرسا ، وجاء إلى أمير من هؤلاء الترك ، وقدم له فرس (هكذا) ويبرطل نقيبه وأستاذ داره[٧٨] على خبز جندى معروف بالشجاعة والحرب ، طرده أميره ، وأعطى خبزه لذلك العامى الذى لا ينفع ، وأكثرهم على هذه الحالة ، فإذا عاينوا العدو وقت الحاجة هربوا ، وينكسروا العسكر ، لأنهم ما يعرفون قتال (هكذا) ولا هو شغلهم ، فينبغى أن لايستخدم إلا من يعرف يلعب بالرمح على الفرس ، ويرمى بالنشاب والأكرة ، وتظهر فروسيته، حينئذ يستخدم "[٧٩] .

على هذه الحال وصلت العساكر والأجناد والكنانية والعوام وأهل دمياط إلى أشموم طناح حيث المعسكر السلطانى ، ومن هؤلاء الأخيرين من تفرق فى الديار المصرية ، ويصف ابن واصل الحالة من حول الملك الصالح بقوله فى إيجاز شديد : " ولما وصلت العساكر وأهل دمياط إلى السلطان ، حنق على الكنانيين حنقا شديدا ، وأمر بشنقهم ، فشنقوا جميعا ،

---

٧٧ - الدر المطلوب ص ٣٧٠ ، ويقول ابن واصل : " لما رأى الملك الصالح من غدر الأمراء به يوم أخذت دمشق ، وثبات مماليكه معه لما فر الناس عنه بقصر معين الدين بـ " الغور " ، مال إلى مماليكه ورجحهم " ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٧٤ ، وراجع تفاصيل ما كان من هؤلاء العساكر مع الملك الصالح أيوب فى ، ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ ، ٢٣٨ - ٢٣٩ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ، ص ٢٣٩ .

٧٨ - أى المتولى شئون قصر الأمير أو وكيله .

٧٩ - النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٣٤٩ . ومن الجدير بالاهتمام أن نفرق بين تعبيرى " عسكر " و " جند " . فالمقصود بالعسكر الجيش النظامى أو عسكر السلطان ، ويخدم أفراده بصفة دائمة ويتلقون إقطاعا ، ويحيطون بالسلطان لا يفارقونه أبدا . أما الجند أو الأجناد فهم جند الأمراء وغالبهم من الأكراد والأتراك ، وهم يشكلون القوات الاحتياطية أو الإقليمية ، ويخرجون إلى الحرب مقابل اقطاعاتهم . لمزيد من التفاصيل عن ذلك ، راجع للمؤلف ، الجيش المصرى فى عصر الأيوبيين ، تحت الطبع .

وتألم السلطان مما فعله فخر الدين والعسكر ، لكن الوقت كان لا يحتمل إلا الصبر والإغفاء عما فعلوه " ، أو " الصبر والتغاضى " على حد تعبير المقريزى[٨٠] .

وإذا كان الوقت لا يحتمل إلا الصبر والتغاضى عما فعله العسكر وقائدهم فخر الدين فلماذا خص السلطان قائد جيشه وعساكره فقط بصبره وتغاضيه ، ولم يتسع الصدر ليشمل هذا " الصبر والتغاضى " أيضا زعماء الكنانية ، الذين يخبرنا ابن العبرى[٨١] أن السخط عليهم بلغ بالسلطان مبلغه وأمر بشنقهم كما هم بثيابهم ومناطقهم وخفافهم " ؟! وتأتينا الإجابة عن هذا التساؤل فى عدد من المصادر[٨٢] تقول ، إن السلطان " شنق أمراء الكنانية – وكانوا نيفا وخمسين أميرا – بعد أن استفتى فى شنقهم ، لخروجهم عن الثغر بغير أمره " .

والعبارة الأخيرة توضح أمرا يختص بتكوين الجيش المصرى فى العصر الأيوبى ؛ ذلك ان الكنانية وغيرهم من العرب والعربان أو البدو والمتطوعة ، لم يكونوا ضمن الجيش الرئيسى ، أو بتعبير آخر لم يكونوا جزءا من العساكر النظامية التى تخضع للقائد العام للجيش ، مقدم العسكر ، ومن ثم كانوا يتلقون أوامرهم من السلطان مباشرة ، ورغم شجاعتهم التى عرفوا بها وتحمسهم للقتال ، بل وتهورهم أحيانا واندفاعهم فى القتال ، إلا أنهم بسبب هذا كله كانوا يسببون كثيرا من الحرج للجيش النظامى ، وخسائر جسيمة لأنفسهم فى كثير من الأحيان . ولدينا على ذلك أمثلة كثيرة وبصفة خاصة على عهد السلطان الناصر صلاح الدين ، ولذلك كان الاتهام الرئيسى الذى وجه إلى الكنانية أن انسحابهم من دمياط وترك حصونها وأسوارها دون حماية وتخليهم عن مواقعهم بغير أوامر صريحة من السلطان ، مما كان سببا أساسيا ومباشرا فى سقوط دمياط غنيمة باردة فى أيدى الصليبيين ، فى اليوم التالى مباشرة لفرارهم منها ، وكانت تلك هى الطامة الكبرى.

لم يتوان الصالح أيوب إذن عن إنزال أقصى عقوبة تفرضها القوانين العسكرية على هؤلاء الكنانية ، رغم إقرار المصادر المعاصرة واللاحقة كلها بشجاعتهم ومواقفهم السابقة تجاه الصليبيين، بينما كان نصيب فخر الدين من هذه العقوبات مجرد "تغير" السلطان و "الألم" الذى حل به وليس بالأمير فخر الدين !! ترى .. لو خامر الشك السلطان لحظة واحدة فى نية الهروب من ميدان المعركة لدى مقدم عسكره ، أو التآمر الكامن فى نفس

[٨٠] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٦٨ ؛ المقريزى ، السلوك جـ١ ص ٣٣٦ .

[٨١] – تاريخ مختصر الدول ، ص ٢٥٩ . ولابن العبرى أيضا تاريخ الزمان ، ص ٢٩٣ – ٢٩٤ ، وإن ذكر فى كل كتاب عددا يختلف عن الآخر ، إذ جعلهم فى الأول أربعة وخمسين أميرا ، وفى الثانى اثنين وستين أميرا .

[٨٢] – المقريزى ، السلوك ،جـ١ ،ص ٣٣٦ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص ٣٦ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ،جـ٢٩ ، ص ٣٣٥ .

القائد العام تجاهه ، هل كان يتركه هكذا دون عقاب ، ويترك الألم يعتصره هـــو نفســه متذرعا بالصبر ، فى ظل ظروف سياسية وعسكرية بالغة السوء ؟! والأغرب من ذلـــك أن يتركه فى منصبه قائدا عاما لجيشه ، بل ويوحى صراحة على لسان المصادر ، أن الســلطان أكد على أن يظل فخر الدين أتابكا للعسكر ، كما أخبرت عن ذلك زوجه شجر الـــدر ، وأخذت العهود والمواثيق على الأمراء باحترام ذلك حتى يحضر المعظـــم تورانشـــاه ، ابــن الصالح، من حصن كيفا بعد أن مات السلطان ، وأخفت زوجه خبر موته إلا عن الأمـــير فخر الدين نفسه ، والطواشي جمال الدين محسن ، أقرب الناس إلى السلطان ، على حد قول ابن واصل[٨٣]. هذا كله بينما لم يتورع الصالح عن الإيعاز بقتل أخيه العادل خوفـــا مـــن أن تحدثه نفسه بالقفز على عرش السلطنة أثناء توجه السلطان إلى الشـــام ســنة ٦٤٤هـــ/ ١٢٤٦م وكانت أوامره فى ذلك صريحة واضحة عندما وجهها إلى حسام الدين ابن أبي على نائب السلطنة فى القاهرة حيث قال : " إنى مسافر إلى الشام ، وأخاف أن يعرض لى موت، وأخي الملك العادل بقلعة مصر ، فيأخذ البلاد وما يجرى عليكم منه خير ، فإن عـرض لى فى سفرى هذا مرض ولو أنه وجع إصبع أو حمى يوم (تأمل !!) فاعدمه ، فإنه لاخير فيه لكـــم "[٨٤] . ولم يلبث الملك العادل أن وجد ميتا بالقلعة فى اليوم التالى مباشرة لرفضه الانصيـــاع لأوامر أخيه الصالح بالخروج إلى الشوبك ، ليكون بها معتقلا بعيدا عن القاهرة حالة وجــود السلطان فى الشام ، وتشير أصابع الاتهام إلى قيام الطواشى جمال الدين محسن بقتله خنقا[٨٥] . بل إن السلطان – على حد قول ابن واصل [٨٦] لم يأذن لابنه المعظم تورانشاه فى القدوم عليــه إلى مصر ، لكراهيته له !! مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها .

والآن .. وقد أسقطنا بالأدلة الثابتة وشهادة الشهود العدول ، الشـــق الأول مـــن الاتهامات الموجهة إلى الأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، والقائلة بـــ "هروبــه" أو "فراره" من جيزة دمياط إلى المعسكر السلطانى ، وتخليه بذلك عن واجباتـــه العســكرية ، وتفريطه وتهاونه فى الدفاع عن الديار المصرية ضد الحملة الصليبية السابعة ، نقـــول الآن .. بقى أن ننظر فى الشق الثانى من هذه الاتهامات ، وهو مكمل للأول ، باعث لـــه مـــترتب عليه!! نعنى بذلك اتهامه بالخيانة والتآمر سعيا للقفز على العرش فى ظـــل هـــذه الظـــروف السياسية والعسكرية البالغة الصعوبة والحرج، بمرض السلطان مرض الموت ، واحتلال جـــزء

---

[٨٣] – مفرج الكروب ، الملحق المذكور ٢٨١ .
[٨٤] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـــ٥ ،ص ٣٧٥ – ٣٧٦ .
[٨٥] – المصدر السابق، نفسه ،جـــ٥ ص ٣٧٥ – ٣٧٦ ؛ المقريزى ، السلوك ،جـــ١ ،ص ٣٢٧ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ص ٣٥ .
[٨٦] – مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٧٩ .

من الديار المصرية على يد الصليبيين ، وسعيهم للتوغل داخل البلاد لتملكها ، وذلك اتهام جد خطير لن تقل عقوبته - إذا صح - عما لقيته بنو كنانة منذ قليل . وإذا كان الدليل العملى الوحيد الذى يساق هنا من جانب من يتهمون فخر الدين بالخيانة ، هو انسحابه من جيزة دمياط وعودته مباشرة - على حد قولهم - إلى أشموم طناح، فإن سؤالا لابد أن يقفز إلى الذهن دون توان ، ما الذى فعله الأمير فخر الدين حالة وصوله إلى المعسكر السلطانى؟ لماذا لم يقبض على السلطان الذى لا يستطيع حراكا ؟! لماذا لم يعزله أو يجهز عليه إذا كان قد جاء أصلا لهذا الغرض ؟! لماذا لم يفعل ذلك ويعلن نفسه سلطانا بدلا منه ، خاصة وأن الملك الصالح " لم يحزن لموته إلا القليل " ، كما تقول المصادر[٨٧] ، بينما كان الأمير فخر الدين محبوبا رغم خيانته ، على حد قول المؤرخين الذين يقيمون ضده هذه الدعوى ؟![٨٨] أتراه ترك للزمن وحده أن يتكفل بذلك والنهاية قريبة محتومة ، كما يسوق متهموه ذلك أيضا ؟ وإن كنا لا ندرى كيف يجتمع الناس ، وفى مقدمتهم السلطان وزوجه والعامة ، على حب رجل اتصف بالخيانة ، وسلم جزءا من البلاد للأعداء ، مهما بلغت منحه وعطاياه .

ومن ثم، أليست هذه كلها، علامات استفهام تحتاج إلى إجابة محددة وصريحة، حتى يمكن فعلا إقامة دعوى الاتهام ضد الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ أو إسقاطها بالكلية؟

ونتساءل أولا - هل يمكن أن يكون فخر الدين قد قطع هذه المسافة -هربا- من جيزة دمياط إلى أشموم طناح ليمثل فى حضرة السلطان المسجى فى فراش المرض ، ليدخل الألم فقط على نفس السلطان عله يموت كمدا ؟! أو ليسمع بعض عبارات اللوم من جانبه ، والتى لم تزد عن قول السلطان، الذى يتسم بالشدة والحزم ، للعسكر" ما قدرتم تقفون ساعة بين يدى الفرنج"؟! هل يقبل كيل الاتهامات ضد الرجل على هذا النحو من البساطة، وليس هناك دليل واحد غير الانسحاب هذا ، والذى فصلنا فيه القول من قبل، لكن ابن واصل ومن سلك سبيله يتحدثون عما يظن انه كان طموحا فى نفس الأمير فخر الدين وتطلعا إلى السلطة وشوقا إلى العرش ! ويرتبون على ذلك حدوث الجفوة بين السلطان وابن شيخ الشيوخ ، ليس فقط بسبب ما عدوه فرارا وتخاذلا كما جاء على لسان ابن واصل: " لم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة، سيما وأنه كان متألما منه لرجوعه بالعسكر

---

٨٧ - أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ،جـ٦ ،ص ٣٣٦ .

٨٨ - جوزيف نسيم يوسف ، العدوان الصليبى على مصر ، ص ١٤١ .

من دمياط، وتهاونه بها حتى أخذها الفرنج"[89]، ويردد هذه العبارة نفسها فى موضع آخر بقوله: "إن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ما كان يقف بالأمير فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، الثقة التى توجب أن يفوض إليه الأمور بعده "ومرة أخرى لا ندرى كيف يمكن أن يقدم سلطان على اختيار شخص لا يثق فيه قائدا عاما لجيشه والحرب قائمة!!

نقول ليس هذا فقط الذى جعل الصالح يزاور عن فخر الدين فى رأى متهمية ، بل راحوا يؤصلون هذه الجفوة ويردونها إلى الأيام الأولى التى اعتلى فيها الصالح عرش سلطنة الديار المصرية، فيقول ابن واصل مكملا عبارته السابقة ، وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب "يعرف همة فخر الدين وتعاليها ، وأنه يوم ملك السلطان مصر ، وأطلق فخر الدين (من سجن القلعة كما قدمنا) ، ركب فخر الدين ركبه عظيمة ، ودعا له المصريون ، واحتفوا به ، فأوجب ذلك أن استشعر منه وألزمه داره "[90] ، يعنى أنه قد خشى جانبه فقرر تحديد إقامته فى داره كما نقول بتعبيرنا الحديث ، ويضيف ابن واصل فى موضع آخر : " إن الأمير فخر الدين رحمه الله كان عالى الهمة جدا ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر "[91] .

ومن حقنا أن نتساءل ، إذا كان السلطان قد ارتاب فى أمر الرجل منذ اليوم الأول لتملكه الديار المصرية ، بعد أن أحسن به وأخرجه من السجن ، ألم يك قادرا على أن يعيده إليه ثانية دون أية مساءلة ؟ وهو لا شك أهون عليه من أخيه العادل ، ولماذا حدد إقامته فى داره ولم يذهب أبعد من ذلك ؟ بل لعله من الطريف أن نقول إنه ذهب فعلا أبعد من ذلك ولكن فى الاتجاه الآخر، إذ أن ابن واصل كان قد أخبرنا قبلا فى موضع سابق من كتابه[92] بهذه الرواية مع اختلاف يسير وإضافات قليلة ، ولكنها تحمل دلالات بعيدة وتفسيرات لما أقدم عليه ، قال : "فلما دخل الملك الصالح قلعة الجبل أخرجه ، فركب ركبة عظيمة ، واجتمع له خلق من الرعية ودعوا له لأنه كان محبيا من الناس ، لكرمه وحسن سيرته ، فبلغ الملك الصالح نجم الدين ذلك ، فاستشعر منه ، ولم يعجبه ذلك وأمره بلزوم بيته غير مضيق عليه " ، والعبارة الأخيرة هذه " غير مضيق عليه " تشير صراحة إلى أن الأمير أصبح مطلق السراح ، يمارس حياته بصورة عادية بعد خروجه من السجن ، دون أن تقيد حريته أو يتعرض للمضايقة من جانب السلطان ، ويمضى ابن واصل فيقدم ما يمكن أن يعد توضيحا

---

[89] - مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٠ .

[90] - المصدر السابق نفسه ص ٢٨٣ ، وقارن جوزيف نسيم ، العدوان الصليبى على مصر ص ١٠٥ ، ويقول المقريزى : " كثر تردد الناس إلى فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، بعد ما أطلقه السلطان من السجن ، فكره السلطان ذلك وأمره أن يلازم داره " ، السلوك ، جـ١، ص ٣٠٩ .

[91] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ .

[92] - ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ٥ ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ .

لمكانة أولاد ابن الشيخ عند الملك الجديد الصالح أيوب ، فيقول مواصلا حديثه بعد عبارته هذه " واستوزر الملك الصالح أخاه (أخا فخر الدين) معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ، ومكنه وفوض إليه تدبير المملكة ، فقام بوزارة الملك الصالح أحسن قيام ، وأما أخوهم كمال الدين فبقى على مترلته ومكانته التى كانت له فى أيام الملك الكامل "[٩٣] .

إذن فالأخوان معين الدين وكمال الدين ابنا شيخ الشيوخ يقومان بتولى أمور السلطنة ، أولهما هو الوزير ومدبر المملكة يقوم بمهامه خير قيام إلى الحد الذى جعل الملك الصالح " يقيمه مقام نفسه "[٩٤] ، والثانى حفظت له مكانته التى كانت له أيام الكامل، وجعله الصالح على رأس جيوشه العاملة فى الشام ، وكان طبيعيا أن يقيم الأخ الثالث فخر الدين فى بيته غير مضيق عليه ، وأخواه الآخران يدبران شئون المملكة مدنيا وعسكريا، والصالح يحتاج فى السنوات الأولى من حكمه إلى تدعيم مركزه وسلطانه ضد أبناء البيت الأيوبى فى الشام ، وأنصار أخيه العادل الثانى المعزول فى القاهرة ، ولو كان الشك يخامر السلطان فى نيات وطموح فخر الدين لما أخرجه من السجن ، ولما أنزل أخويه مترلا كريما . ومن ثم فإنه ما أن مات الأخوان كمال الدين ومعين الدين على التوالى ، حتى استدعى السطان الأمير فخر الدين ، وأحله محلهما ، ويقول ابن واصل فى ذلك، " فخلع عليه وأمره وقدمه وأحسن إليه إحسانا كثيرا ، ولم يبق من أولاد شيخ الشيوخ غيره"[٩٥] ، وليس من المعقول أو المقبول أن ينعم السلطان بكل هذه النعم على رجل " استشعر منه" وخاف على نفسه من مكانته بين الناس . بل إن الصالح زاد على ذلك عندما أعطى الخلعة التى كان الخليفة العباسى المستعصم بالله قد بعث بها إلى معين الدين فوصلت بعد وفاته، إلى فخر الدين، " فلبسها الأمير فخر الدين بن الشيخ بمرسوم الملك الصالح"[٩٦] .

ولعله مما تجدر الإشارة إليه هنا أيضا ، أن علاقة السلطان بالأمير كانت تعود إلى ما قبل تولى الملك الصالح عرش مصر ، ليس هذا فحسب ، أعنى أنها لم تكن بمجرد علاقات عادية ، بل هى علاقة المودة والولاء من جانب فخر الدين للصالح ، فيخبرنا المقريزى[٩٧] أن السبب الذى دفع العادل الثانى إلى القبض على فخر الدين وسجنه بالقلعة ، أن ابن شيخ

---

[٩٣] – المصدر السابق نفسه والصفحات نفسها .
[٩٤] – ابن زيبك ، الدر المطلوب، ص ٣٥٤ .
[٩٥] – ابن واصل ، مفرج الكروب، جـ٥ ، ص ٣٥٢ ؛ المقريزى ، السلوك ،جـ١ ، ص ٣٢٢ .
[٩٦] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص ٣٥٢ ؛ ابن العميد ، أخبار الأيوبيين، ص ٣٤ .
[٩٧] – السلوك ، جـ١، ص ٢٨ .

الشيوخ كان يراسل الملك الصالح وهو بدمشق ، فى الفترة التى اشتد فيها الخلاف بين العادل وأخيه الصالح فهل هذا الأمير هو الذى يمكن أن "يستشعر منه السلطان"؟!

ولنمض مع مؤرخنا ابن واصل فى رحلة الحديث عن فخر الدين ، فنجده يقول ، فيما نحن الآن بصدده ، " فلما مات الصاحب معين الدين بن شيخ الشيوخ (أخو فخر الدين) بدمشق ، احتاج السلطان إلى الاستعانة بفخر الدين يوسف ، لشهامته ونجابته ، فأخرجه وقدمه"[٩٨] ، ونحن نسأل ابن واصل ومن سار على هديه ، هل يمكن أن يوصف بالشهامة والنجابة من يتهاون ويتخاذل أمام الأعداء ويضمر الغدر لسيده لهوى فى نفسه ؟! وهل يعقل أن يقدم حاكم مثل الصالح نجم الدين أيوب ، يصفه ابن واصل نفسه بأنه كان " ملكا مهيبا ، عزيز النفس ، حشما عفيفا ، لا يؤثر الهزل ولا العبث ، شديد الوقار ... بلغ من عظيم هيبته أنه كان إذا خرج وشاهد المماليك صورته ، يرعدون منه ، ولا يبقى أحد منهم يجسر يتحدث مع أحد"[٩٩] . نقول هل يعقل أن يقدم الصالح أيوب ، وقد اجتمعت له كل هذه الصفات ، على أن يقرب إليه رجلا يشك فى ولائه له منذ الأيام الأولى لاعتلائه العرش ، حتى لو كان فى أشد الحاجة لذكائه ونجابته وحسن مشورته ؟!

والذى يلفت الانتباه هنا أن ابن واصل عندما كان يحدثنا عن هذه الأمور ، يجئ حديثه مرسلا وكأنه خبير الوقائع بنفسه ، فإذا ما تناول فخر الدين وما يساور السلطان تجاهه ، قدم لروايته بأنه أخبر بذلك أو نما إلى علمه أو قيل له ، وكأنه يلقى بالمسئولية على غيره أو يحترز فيما يرويه ، من ذلك مثلا قوله " وعلمت من جهة قريبة أخرى ، أقوى القرائن عندى ، وهو أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ما كان يثق بالأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ[١٠٠] " ، وأيضا " بلغنى أنه كان فى نفس الملك الصالح من هذا (يعنى الانسحاب من جيزة دمياط) أمر عظيم وحنق عليه[١٠١] .

ويبدو أن هذه الجهة القريبة التى أبلغت ابن واصل وأعلمته بما كان فى كثير من هذه المسائل المتصلة بفخر الدين لم تكن إلا الوزير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، نائب السلطنة فى القاهرة[١٠٢] ، وكان هو الآخر مقربا من السلطان الصالح أيوب ، ومن ثم كان

---

[٩٨] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ .

[٩٩] – المصدر السابق ، نفسه ، ص ٢٧٥ ؛ وراجع أيضا: أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٣٢١ – ٣٢٤ .

[١٠٠] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٣ .

[١٠١] – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٤ .

[١٠٢] – جرى ذلك بقلم ابن واصل فى بعض المواضع حين يقول صراحة : " أخبرنى بهذا كله الأمير حسام الدين بن أبى على الهذبانى " ، مفرج الكروب جـ٥ ص ٣٥٥ ، بينما تتكرر كثيرا عبارة " فحكى لى حسام الدين بن أبى على " ، مفرج الكروب جـ٥ ص٣٦٢ ، ٣٦٩ ، ٣٧٥ وغير ذلك من الصفحات .

هو وفخر الدين رجلى الدولة المسئولين عن كل أمورها ، يعتمد عليهما السلطان فى تصريف أمور دولته ، وبينما كانت نفس ابن واصل تنطوى على شئ من عدم الارتياح تجاه القائد العام للجيش الأمير فخر الدين ، رغم ثنائه عليه فى أكثر من موضع ، إلا أنه هو الذى تزعم حملة الاتهامات ضده فى الوقت نفسه ، كان من ناحية أخرى يحمل كل المودة والتقدير للوزير حسام الدين ابن أبى على الهذبانى ، حيث كانت تربط بينهما صداقة وطيدة تعود إلى زمن بعيد منذ كان ابن واصل يطلب العلم فى دمشق عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٩م[١٠٣] عندما ألقى الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق القبض على حسام الدين مع جماعة من أنصار الصالح نجم الدين أيوب ، كان الملك الناصر داود صاحب الكرك قد أطلق سراحهم ، وأمر الصالح إسماعيل أن يؤخذ جميع ما كان معه (مع حسام الدين) وجعل رجله قيدا وحبسه فى حبس الخيالة بقلعة دمشق ، قال ابن واصل معلقا على ذلك " فأقام حسام الدين فى حبس الخيالة ، وكنت أصعد إلى القلعة واجتمع به فى الحبس فى أكثر الأوقات "[١٠٤]

وعندما ظهر أمر الصالح نجم الدين أيوب ، تحسب عمه الصالح إسماعيل للأمر ، فقام بنقل حسام الدين إلى قلعة بعلبك ، واعتقله فى جب وضيق عليه غاية التضييق ، على حد قول مؤرخنا الذى بعث به حسام الدين إلى القاضى بدر الدين قاضى سنجار ، وإلى محيى الدين بن الجوزى ، رسول الخليفة المستنصر بالله ، للتوسط بينه وبين الملك الصالح عماد الدين إسماعيل صاحب دمشق ليطلقه من الحبس ، غير أن هذه الوساطة لم تؤت ثمارها المرجوة ، وظل الأمير حسام الدين فى محبسه هذا حتى أطلق الصالح إسماعيل سراحه بعد ذلك فى عام ٦٤١هـ / ١٢٤٣م[١٠٥] .

و لم تلبث أواصر الصداقة بين حسام الدين بن أبى على الهذبانى وجمال الدين بن واصل أن راحت تزداد رسوخا بعد مجئ مؤرخنا إلى مصر ، وما لقيه من الحفاوة والتكريم على يد نائب السلطنة حسام الدين ، وسوف أترك القلم هنا لابن واصل ليقص علينا بنفسه كيف كان ذلك ، يقول " وكان دخولى إلى القاهرة فى المحرم من هذه السنة (٦٤١هـ / ١٢٤٣م) ، واجتمعت بالأمير حسام الدين بن أبى على ، وكان السلطان الملك الصالح (نجم

---

[١٠٣] - ابن واصل ، مفرج الكروب جـ٥ ص ١٩٤ .
[١٠٤] - المصدر السابق ،جـ٥ ، ص ٢٤٣ .
[١٠٥] - المصدر السابق ، جـ٥ ، ص ٢٤٣ ، ٣٢٨ .

الدين أيوب) قد أنزله فى الدار المعروفة بدار الملك[١٠٦] على شاطئ نيل مصر فى مدينة مصر ، وهى دار عظيمة من آدر خلفاء مصر (الفواطم) ليكون قريبا منه ، فإن السلطان كان نازلا فى قصوره بقلعة الجزيرة ، وهى القلعة التى أنشأها بالجزيرة (الروضة) ، وكان عنده (يعنى حسام الدين) فى أعظم المنازل ، وأعطاه خبزا جليلا ، فأحسن إلى وأنزلنى فى داره التى بالقاهرة ، وهى دار جليلة بدرب الديلم[١٠٧] وأدرنى إنعامه وإحسانه "[١٠٨] . وعلى هذا النحو الذى فصله مؤرخنا ندرك إلى أى مدى كان حسام الدين يطوق عنق ابن واصل بجميل نعمائه وإحسانه ، ولا غرابة أن يحاول ابن واصل رد هذا الجميل .

وقد أفصح ابن واصل تماما عن مكنون نفسه تجاه قطبى الدولة فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب ، نعنى الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر ، والأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى نائب السلطنة . وجاءت عباراته عن الرجلين واضحة كل الوضوح فى الإقرار بفضل الحسام عليه ، والتحامل على فخر الدين مما أدى إلى وقوفه أمام محكمة التاريخ ! وسوف نورد هنا بعضا مما سجله قلم ابن واصل ، يبين بما لا يدع مجالا للشك أن هوى مؤرخنا كان مع الحسام ، يقول " ولم ينص (الملك الصالح نجم الدين أيوب) على من يقوم بالأمر بعده ، ولو أوصى لما خرج الأمر عن حسام الدين محمد بن أبى على ، إذ لم يكن يعتمد على أحد غيره . وأما فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ، فلم يكن الملك الصالح نجم الدين أيوب يثق به كل الثقة "[١٠٩] . ولو أن الأمر اقتصر فى الحديث على حسام الدين فقط ، لكان من الممكن أن يمضى

---

[١٠٦] - " وهى من إنشاء الأفضل بن أمير الجيوش ن بدأ فى بنائها وإنشائها سنة ٥٠١هـ / (١١٠٧ - ١١٠٨م) ، فلما كملت تحول إليها من دار القباب بالقاهرة وسكنها وحول إليها الدواوين من القصر ، فصارت بها وجعل فيها الأسمطة ، واتخذ بها مجلسا سماه مجلس العطايا كان يجلس فيه ، فلما قتل الأفضل صارت دار الملك هذه من جملة متنزهات الخلفاء ، وكان بها بستان عظيم ، وما زالت عظيمة إلى أن انقرضت الدولة (الفاطمية) ، فجعلها الملك الكامل دار متجر ، ثم عملت فى أيام الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى دار وكالة " . راجع المقريزى ، الخطط جـ١ ص ٤٨٣ .

[١٠٧] - عرفت بهذا الاسم لنزول الديلم الواصلين مع هفتكين الشرابى حين قدم ومعه أولاد مولاه معز الدولة البويهى وجماعة من الديلم والأتراك فى سنة ٣٦٨هـ / ٩٧٨م . فسكنوا بها فعرفت بهم " راجع المقريزى الخطط جـ٢ ص ٨ - ٩ ، والديلم نسبة إلى المنطقة التى قدموا منها ، منطقة الديلم وهى جزء من بلاد فارس تقع جنوبى بحر قزوين .

[١٠٨] - ابن واصل ، مفرج الكروب ،جـ٥ ، ص ٣٣٤ .

[١٠٩] - المصدر السابق ، الملحق المذكور ص ٢٨٠ .

قول ابن واصل دون إثارة أى تساؤل ، فقد كان حسام الدين فعلا من المخلصين المقربين إلى الصالح ، أما إقحام اسم فخر الدين هنا دون داع يستدعيه الحديث ، فلابد أن يبعث عند أى باحث عوامل القلق ، إذ أن المقارنة هنا بين الرجلين من جانب ابن واصل متعمدة ومقصودة لذاتها، وليس هناك ما يستوجب الإتيان بها على هذا النحو ، وإن كان ما يقوله هذا يدفعنا إلى الدهشة مرة أخرى ، إذ كيف لا يثق الصالح بفخر الدين كل الثقة ويعهد إليه بقيادة الجيش فى أحلك الظروف ؟!

ويعود ابن واصل ليؤكد هذا المعنى مرة ثانية فى موضع آخر حين يقول : " ثم جرى من فخر الدين يوسف ، من رجوعه عن ثغر دمياط ، حتى بلغنى أنه كان فى نفس الملك الصالح من هذا أمر عظيم ، وحنق عليه ... فتحقق عندى من هذا وما أشبهه ، أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو أوصى إلى أحد بتدبير الملك بعده ، ما عدل عن حسام الدين بن أبى على "[١٠٩] .

ولعل هذه العبارات وما شابهها تكشف جانبا هاما من تحامل ابن واصل على الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، وتوضح أن ابن واصل كان بكل قلبه وجوارحه ، مع الوزير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، وكان يتمنى أن يعهد إليه السلطان بأمور البلاد من بعده أو يوصى بذلك ، بل ذهب مؤرخنا أبعد من ذلك عندما أشار صراحة إلى كراهية الملك الصالح نجم الدين أيوب لولده غياث الدين تورانشاه ، الذى عرف بالملك المعظم ، لما كان فيه على حد قول ابن واصل من "هوج واضطراب"[١١٠] ، ويمضى قائلا : " وكان الملك الصالح نجم الدين أيوب، لكراهته لابنه المعظم ، لم يأذن له فى القدوم عليه إلى مصر ، مع حاجته إلى من يقوم مقامه بها ، ويكون ولى عهده إذا مات ، وبلغ من كراهته له ما أخبرنى به الأمير حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى "[١١١] .

وقد فات على ابن واصل ما ذكره فى كتابه فى موضعين[١١٢] من أن السلطان أوصى فعلا بما يجب أن يتم حالة وفاته، وأنه ترك هذه "الوصية الشفهية" مع وزيره حسام الدين حين قال له يوما: "إذا قُضى علىّ بالموت ، فلا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله (العباسى) ليرى فيها رأيه ". وفى الموضع الثانى يقول : "وكان السطان الملك الصالح لا

---

[١٠٩] – المصدر السابق نفسه ،ص ٢٨٤ .

[١١٠] – المصدر السابق نفسه، ص ٢٧٨ .

[١١١] – المصدر السابق نفسه ،ص ٢٧٩ .

[١١٢] – المصدر السابق نفسه، ص ٢٧٩ ، ٢٨٤ .

يعتمد فى حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبى على ، حتى أنه فى السفرة الأولى (يعنى ذهابه إلى الشام) قال له (أى للحسام) إنى أسافر ، وأخاف أن يعرض لى موت، وأخى فى قلعة الجبل (يقصد العادل الثانى الذى قدمنا ما كان من أمره) ، فربما استولى على الأمر فيهلككم ، وذكر لى أشياء شتى مما لايمكننى أن أسطره " !! وقال له مرة أخرى : " إن حدث موت ، فسلم البلاد إلى الخليفة المستعصم بالله ، يرى فيها رأيه " !! هكذا - كما يخبرنا مؤرخنا - أفصح الملك الصالح لوزيره عن مكنون نفسه ، وأنه ليس فى نيته أن يعهد لأحد من بعده بالسلطنة وأنه ترك هذه المهمة الثقيلة للخليفة العباسى - هذا ما يقوله ابن واصل ، وسوف يكون لنا عود إليه ثانية لمناقشته فيما يرويه .

أما الآن فعلينا أن نشد الرحال إلى القصر السلطانى بالمنصورة بعد وفاة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، حيث كتمت زوجه شجر الدر خبر وفاته إلا عن الأمير فخر الدين مقدم العسكر ، والطواشى جمال الدين محسن ، والطيب فتح الدين . وكان أول إجراء أقدمت عليه شجر الدر ، بنص كلمات ابن واصل بالحرف الواحد : " ثم أحضرت (شجر الدر) الأمراء بالدهليز السلطانى ، وقيل لهم إن السطان قد رسم أن تحلفوا له ، ولابنه الملك المعظم (تورانشاه) بعده ، وللأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ بالتقدم على العسكر ، والقيام بالأتابكية ، وتدبير المملكة . فأجابوا كلهم إلى ذلك ، وحلفوا الأمراء والأجناد ومماليك السلطان "[١١٣] . ولم يرد هنا ذكر مطلقا للوزير حسام الدين محمد ابن أبى على الهذبانى نائب السلطنة . ولم يكن من بين من تم اختيارهم ليؤتمن على كتمان خبر موت الملك الصالح ، رغم ترشيح مؤرخنا له ليكون الأحق بتدبير أمور الدولة بعد رحيل السلطان !!

والسؤال الذى ألحفنا فى طرحه سابقا ما زال قائما ، هل يمكن أن تقدم شجر الدر، زوج السلطان الراحل، على أن تخص الأمير فخر الدين بخبر وفاة زوجها . وائتمانه على هذا السر ، إلا لكونها تعلم عنه من زوجها أنه كان موضع سره ومستشار أمره ؟ بل كيف تقدم على اختياره أتابكا للعسكر ، أى تثبيته فى منصبه الذى كان قد وضعه فيه الصالح ، ثم تعهد إليه إضافة إلى ذلك بتدبير المملكة ، إذا لم تكن على يقين من أنه كان موضع ثقة زوجها، وأنه خليق بحمل المسئولية والاضطلاع بها فى ظل هذه الظروف السيئة التى تحيق بالديار المصرية ؟ وشجر الدر مشهود لها من كل المؤرخين المعاصرين بالحكمة وحسن التدبير . ثم إذا كان الأمير فخر الدين يبتغى حقا القفز على عرش السلطنة ، ألم تكن هذه هى الفرصة

---

١١٣ - المصدر السابق نفسه ص ٢٨٢ .

المناسبة التى جاءته تسعى ، وما كان عليه إلا أن يفترصها ليغدو بين يوم وليلة سلطانا للديار المصرية ، وأن الأمراء والعساكر والأجناد قد "حلفوا" على السمع والطاعة ، وأعلنوا رضاءهم على هذا الاختيار ؟ أم تراه كان يؤخر هذا الأمر حتى يقدم الملك المعظم تورانشاه إلى مصر ، فيدخل معه فى معركة حول العرش ؟ وهل يعقل هذا ؟ وابن واصل يخبرنا بما تم عليه الأمر فى هدوء تام يعود إلى حكمة شجر الدر وخاصة السلطان الراحل ، ودقة الموقف فى مصر ، يقول : " واتفقوا جميعهم على أن يقوم بتدبير المملكة الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ ، إلى أن يقدم الملك المعظم بن الملك الصالح نجم الدين أيوب من حصن كيفا ، وأن يحلف الناس للملك الصالح نجم الدين أيوب ، ولابنه الملك المعظم بعده بولاية العهد ، وللأمير فخر الدين بأتابكية العسكر ، والقيام بأمر الملك "[114] . ولنتأمل معا أن ابن واصل أورد اسم فخر الدين هنا وما عهد إليه من الأمر مرتين فى أربعة سطور فقط ، وصدرها بقوله " واتفقوا جميعهم " ، بمعنى أن هذا كان يلقى استحسان الجميع .

هذا الرجل ، الأمير فخر الدين ، وضعت المقادير بين يديه كل مقاليد السلطة فى مصر! فالسلطان الصالح نجم الدين مات وفخر الدين هو مقدم الجيش ، وشجر الدر زوج السلطان الراحل أبقته فى منصبه ، وأخذت له العهود والمواثيق بالولاء من الأمراء والعساكر والأجناد ، وعهدت إليه فوق هذا بتدبير أمور المملكة ، ولم يبق -إن شاء- إلا أن يعلن نفسه سلطانا ، ولكنه لم يفعل ! ترى ... هل كان انسحابه من جيزة دمياط إذن لرغبته الجامحة -كما قيل- فى اعتلاء عرش السلطنة ، حيث كانت نفسه -كما قيل أيضا- تطمع فى هذا الأمر ؟! هذا قول يرفضه أى تفكير منطقى ، بل لعل الدليل العملى القاطع على تبرئة فخر الدين من التهم المنسوبة إليه ، يقدمه لنا ابن واصل نفسه فى قوله وهو يرثيه " كان أميرا فاضلا ، عالما متأدبا ، جودا سمحا ، عالى الهمة كبير النفس ، ما كان فى اخوته مثله ، بل ولا فى غير اخوته " !![115] ، وهذا يعنى أن ابن واصل ، مع كل ما قاله عن طموحه للسلطة وطمعه فيها ، لم يملك إلا أن يجعله أفضل الناس فى زمانه ، بحيث لم يكن فى اخوته ولا غيرهم من الناس مثله ، ولابد أن يكون حسام الدين بن أبى على الهذبانى ضمن هؤلاء الغير . أما النويرى فيذكر أن جماعة من الأمراء المماليك الصالحية تنكروا للأمير فخر الدين بن الشيخ ، وعزموا على قتله لدسيسة وصلت إليهم ، فاستدعاهم " وأعلمهم أنه لا طمع له فى الملك ولا رغبة ، وأنه إنما يحفظه للملك المعظم إلى أن يصل "[116] . ويكمل سبط بن الجوزى

---

[114] - المصدر السابق نفسه ص ٢٨١ .
[115] - المصدر السابق نفسه ص ٢٩٣ .
[116] - النويرى ، نهاية الأرب جـ٢٩ ص ٣٣٨ .

هذه الصورة بقوله : " وحسد الجند فخر الدين وعزموا على قتله ونهب داره ... وكان المتهم بذلك الخادم محسن (يقصد الطواشى جمال الين محسن)"[117] وهكذا أضيف إلى قائمة المتربصين به واحد آخر من رجال الدولة . أما ابن كثير[118] فيقول : " وكان (الأمير فخر الدين) فاضلا دينا مهيبا، وقورا بالملك، كانت الأمراء تعظمه جدا، ولو دعاهم إلى مبايعته بعد الصالح لما اختلف عليه اثنان، ولكنه كان لا يرى ذلك، حماية لجانب بنى أيوب"، ويضع أبو المحاسن[119]، اللمسات الأخيرة فى هذه الصورة الدالة على الولاء والوفاء من جانب فخر الدين للصالح وبنى أيوب فيقول: "كان عاقلا جوادا ممدحا مدبرا خليقا بالملك محبوبا إلى الناس، ولما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب... ندب إلى الملك فامتنع، ولو أجاب لما خالفوه". وهذه العبارة الأخيرة بنصها ذكرها من قبل المؤرخ المعاصر سبط بن الجوزى.

ولا يمكن مطلقا أن تجتمع كل هذه الأقوال فى رجل راودته نفسه يوما ما عن عرش السلطنة ، وحدثته بأن يترك واجبه فى ميدان المعركة وهو القائد العام ليستولى على السلطة من ملك يعالج سكرات الموت فى مرضه الأليم ! بل لقد ندب إلى الملك فأبى ولو شاء لكان له ما أراد، لكن نفسه المطمئنة ما كانت تنطوى إلا على الوفاء النادر لبنى أيوب ، بحيث لم يكن هناك فى زمانه من له بين الناس خصاله ، على حد قول مؤرخنا ابن واصل .

ومن الجدير بالذكر هنا استكمالا لهذا الجانب الذى نتحدث عنه الآن ، القول إن شجر الدر بعثت إلى القاهرة بما تم الاتفاق عليه فى المنصورة ، ليعلن على الجميع ما اتخذ من قرارات فى هذا الشأن . يقول ابن واصل : " ورد المرسوم إلى القاهرة إلى الأمير حسام الدين محمد بن أبى على، بأن يحلف أكابر الدولة وأجنادها بالقاهرة على ما وقع التحليف عليه بالمنصورة ووقع التحليف على النحو المذكور "[120] .

ولعل عبارة وردت عند ابن واصل[121] تجعل من كل ما قاله قبلا عن إيثار الصالح نجم الدين أيوب لوزيره حسام الدين ، يذهب مع الريح ، يقول : " وبولغ فى كتمان موت السلطان الملك الصالح عن كل أحد ، من كبير فى الدولة أو صغير ، حتى على الأمير حسام الدين محمد بن أبى على ، نائب السلطنة بالديار المصرية (!!) وكانت الكتب ترد من المعسكر (المنصورة) إليه ، ويكتب فيها علامة السلطان ... وكان حسام الدين محمد بن أبى

---

[117] - سبط بن الجوزى ، مرآة الزمان جـ٨ ص ٧٧٦ .
[118] - البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٧٨ .
[119] - النجوم الزاهرة ،جـ٦، ص ٣٣٦ .
[120] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٢ .
[121] - المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٣ .

على يظن أن السلطان حى ، وأن الخط الوارد إليه فى الكتب خطه " (!!) ، ولو كان الأمر كما يقول ابن واصل متمنيا ، لعُهد إلى حسام الدين فى ذلك المرسوم بتدبير أمور الملك لكونه الأقرب إلى ذلك باعتباره نائب السلطنة . والغريب فى الأمر أن مؤرخنا يقول فى الفقرة التالية مباشرة " إن السلطان ما كان يثق فى الأمير فخر الدين بالثقة التى توجب أن يفوض إليه الأمور من بعده " !! فكيف يمكن قبول هذا التضارب فى أسطر متتاليات ؟! ومرة أخرى لو كان الأمر كما يقول ابن واصل ، لانتقلت عدوى عدم الثقة هذه من السلطان قبل موته إلى زوجه شجر الدر ، ولتم إقصاء فخر الدين عن موقعه ، هذا إذا افترضنا أصلا عجز السلطان عن القيام بذلك .

وقد ظلت المراسلات تدور بين الأمير فخر الدين أتابك العسكر ومدبر الأمور فى الدولة وبين حسام الدين نائب السلطنة فى القاهرة ، فى ظل وإطار المودة الظاهرة والمجاملة الرقيقة من كل منهما تجاه صاحبه ، مثل ، من " فخر الدين الخادم يوسف " ومن " حسام الدين المملوك أبو على بن أبى على ، وبينهما مجاملات فى الظاهر "[١٢٢] .

وملأ ابن واصل ، والمؤرخون من بعده نقلا عنه ، الدنيا ضجيجا بما فعله الأمير فخر الدين طيلة خمسة وسبعين يوما قام خلالها بتدبير الأمور فى السلطنة ، فيقول ابن واصل: "... وفخر الدين يعمل على الاستبداد والاستقلال بالأمر، إن تعذر وصول الملك المعظم، وصار لفخر الدين موكب عظيم بالمنصورة ، والأمراء كلهم فى خدمته ، ويترجلون له كلهم عند النزول ويحضرون لسماطه "[١٢٣]. ونتساءل ، ما الذى كان يتوقعه ابن واصل من رجل عهد اليه رسميا بـ "التقدمة على العساكر ، والقيام بالأتابكية ، وتدبير المملكة " ؟ أليس كل ما "يشنع" به ابن واصل هنا على الأمير فخر الدين هو ما تتطلبه هيبة هذه المناصب التى يتولاها وتقاليدها ؟ وهل كان من المفروض أن يقبع الرجل فى مقر قيادته بمعسكر المنصورة محتجبا عن الأمراء والعساكر والناس ؟!

وليت الأمر اقتصر على هذا الاتهام الذى لا يخلو من طرافة ، بل امتد ليشمل فى الإطار نفسه أن فخر الدين "شرع فى إطلاق المحبوسين ، ثم أفرج عن أكابر من الأعيان كان الملك الصالح نجم الدين أيوب اعتقلهم " ، وكان من بين هؤلاء جمال الدين بن مطروح ، الذى كان نائب السلطنة فى دمشق ، والشاعر بهاء الدين زهير الذى رده إلى منصبه ، يعنى ديوان الإنشاء ، ولسنا فى حاجة إلى القول أن الأمور بعد وفاة الصالح ، وإن كان خبر ذلك

---

[١٢٢] - المصدر السابق نفسه، ص ٢٨٧ .

[١٢٣] المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧ وراجع حاشية ٥٣ .

ما زال سرا ، كانت تقتضى الاستعانة برجال يكنون لمدبر المملكة الاحترام ، ويمكن الاعتماد عليهم فى تصريف الأمور ، خاصة إذا علمنا أن الأسباب التى من أجلها استغنى الملك الصالح عن خدمات هذين الرجلين ، ابن مطروح والبهاء زهير ، لم تكن شكا فى ولائهما ، وإلا كان مصيرهما غير ما آل إليه[١٢٤] .

واحتوى هذا الجزء من الاتهام نقاطا أخرى مفادها أن الأمير فخر الدين " أخذ فى التصرف فى الأموال ، فأطلق منها جملة، وخلع على خواص الأمراء ، وأطلق السكر والكتان إلى الشام"[١٢٥] ، ولا نملك تعليقا على جملة ما احتواه هذا الاتهام الأخير إلا أن نسوق هنا نص ما قاله سبط بن الجوزى[١٢٦] فى ذلك : " ... ولما وصل تورانشاه (إلى مصر) أخذ مماليك فخر الدين الصغار وبعض قماشه بنصف القيمة ، ولم يعطهم درهما ولا عوض الورثة شيئا ، وكان الثمن خمسة عشر ألف دينار . وكان إذا جلس جعل حسنات فخر الدين سيئات ، يقول ، أطلق الكتان والسكر وأنفق الأموال ، فإيش ترك لى أنا (!!) " ، وهكذا لم يكن فعل فخر الدين هذا إلا حسنات حسده عليها تورانشاه ، وطفحت غيرته الشديدة على لسانه ! ويضيف ابن الجوزى معلقا فى سخرية لاذعة : " فكان حفظ فخر الدين للملك وسياسته للعسكر ومقاتلته للأعداء من أكبر ذنوبه !!

---

[١٢٤] - عن سبب غضب الملك الصالح على البهاء زهير راجع أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ . ومن المعروف أن بهاء الدين زهير كان مولعا بحب مصر ونيلها ، لا يعدلهما عنده أى شئ آخر . حتى قيل فيه إنه " مصرى المنشأ ، مصرى الروح ، مصرى العاطفة " . وهو الذى أنشأ الرسالة التى بعث بها الملك الصالح نجم الدين أيوب الى الملك لويس التاسع عند قدومه فى أول الأمر الى الديار المصرية ، والتى أتينا على ذكر منها من قبل . أما الشاعر والسياسى جمال الدين يحيى بن مطروح فقد قام بخدمات جليلة من الناحيتين السياسية والعسكرية للملك الصالح نجم الدين أيوب ، نجدها مبسوطة عند المقريزى فى السلوك ،جـ١، ص ٢٨٤ - ٢٩٦ ، ٣١٦ ، ٣٢٦ ، ٣٣٢ ، حتى أصبح من أرباب السيوف والقلم ، ولم يذكر المقريزى شيئا أكثر من قوله . وفى سنة ٦٤٦هـ "عزل الصاحب جمال الدين بن مطروح عن دمشق " دون أن يورد أسباب ذلك ، وكنا نعلم من قصيدة جميلة قالها ابن مطروح مستعطفا الصالح ، أن ما جرى له كان نتيجة لسعى الوشاة والحاقدين جاء فيها :

من مبلغ عنى المليك الأروعا	عن عبده يحيى مقالا مقنعا
ولو ادعيت بأن مالك ناصح	مثلى شهدت بصدق ذاك المدعى
ولطالما جربتنى فوجدتنى	أجدى من الملأ الكثير وأنفعا
فعلام بعد الاصطفاء نبذتنى	نبذ النواة بقول واش قد سعى
وسمعت فى حقى كلام معاشر	أقصى مناهم أن أبيت مضيعا

وقد نظم ابن مطروح قصيدة طريفة عندما ترددت أنباء اعتزام لويس التاسع العودة الى مصر فى حملة جديدة . بعد هزيمته الساحقة فى الحملة الصليبية السابعة التى قاده ، وأسره فى دار ابن لقمان بالمنصورة ، وحذره فيها من سوء المصير الذى ينتظره إذا رام فى ذلك جاء فيها :

قل للفرنسيس (الملك) إذا جئته	مقال صدق عن قئول فصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
وقل لهم إن أضمروا عودة	لأخذ ثأر أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشى صبيح

عن حياة وأدب بهاء الدين وجمال الدين يحيى بن مطروح ، راجع ، محمد زغلول سلام ، الأدب فى العصر الأيوبى ، ص ٥١٧ - ٥٤٠ .

[١٢٥] - ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ ؛ المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٤ .

[١٢٦] - مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٧٧٧ .

ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أيضا أن الأمير حسام الدين الهذباني ظل على اعتقاده أن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ما زال حيا ، طالما كانت المكاتبات ترد إلى القاهرة من المنصورة ممهورة بتوقيع السلطان، ولم يفق من هذا "الوهم" إذا صح هذا التعبير إلا على يد مؤرخنا جمال الدين ابن واصل الذى اكتشف بفراسته فى التمييز بين الخطوط ومعرفتها، وأقسم بـ "الله العظيم" على صحة ما يقول من مضاهاة الرسائل الواردة من المنصورة إلى نائب السلطنة بالقاهرة ببعضها، "فتبين مخالفة الخط للخط"، ثم يقول ابن واصل، وهذا هو بيت القصيد، "فغلب على ذهن حسام الدين إذن ما قلته، وأخذ فى التبيين عنه، والكشف من خواص السلطان نجم الدين أيوب بالمعسكر، فتحقق موته. وحينئذ اشتد خوفه من الأمير فخر الدين يوسف أن يغلب على الملك، ويستبد به لنفسه، فإن الأمير فخر الدين رحمه الله كان عالى الهمة جدا ، فكانت نفسه تطمع إلى هذا الأمر"[127].

هكذا فى لحظة من لحظات الصدق مع النفس، كشف مؤرخنا عن حقيقة مكنون نفس صديقه الأثير الأمير حسام الدين، وما يعتمل فى صدره تجاه الأمير فخر الدين مما دفع نائب السلطنة إلى "الخوف الشديد" من أن "يستبد" ابن شيخ الشيوخ بالأمر دونه، فيصبح من بعد نسيا منسيا! ويعلق المقريزى[128] بذكاء على ما كان من حسام الدين بقوله "فاحتاط لنفسه".

وهذا ينقلنا تلقائيا إلى النقطة التالية حتى تكتمل الصورة وضوحا ، نعنى جماعة القصاد الذى تم إرسالهم من معسكر المنصورة لإحضار الملك المعظم تورانشاه ابن الصالح من حصن كيفا فى ديار بكر ، ويصر ابن واصل على أن يؤكد فى كل فقرة هنا مدى طمع الأمير فخر الدين فى القفز على عرش السلطنة ، والسعى نحو ذلك حثيثا ، فيظهره بمظهر الكاره لهذا الإجراء حين يقول " وما أمكن فخر الدين يوسف إلا الموافقة على ذلك "[129]، مع إنا نعلم من ابن الجوزى[130] وهو معاصر لتلك الأحداث ، شأن ابن واصل ، وكذلك يخبرنا ابن أيبك[131] والمقريزى[132] أن فخر الدين بعث بالقصاد إلى تورانشاه يستحثه على الحضور لتولى زمام الأمور . وكان على رأس من بعث بهم القصر السلطانى فى المنصورة الأمير فارس الدين أقطاى ، ولم يكن حسام الدين بالذى ينتظر الغير يقررون له المصير، ومن

---

[127] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ – ٢٨٥ ، وقارن ما جاء بهذا الخصوص عند المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٣٩ .

[128] – المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٤ .

[129] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٥ – ٢٨٦ .

[130] – مرآة الزمان ،جـ٨ ، ص ٧٧٦ .

[131] – الدر المطلوب، ص ٣٧٣ .

[132] – السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٥ - ٣٤٦ .

ثم فإنه عملا بمبدأ " الحيطة والحذر " كما أشار المقريزى ، بعث هو الآخر من لدنه رسولا من مماليكه الخواص يعرف بـ " زين الدين العاشق " ، إلى تورانشاه يرجوه سرعة الحضور خوفا من أن تخرج البلاد من يده[١٣٣] ، ولم يكن هذا الايحاء الأخير إلا لينسحب على الأمير فخر الدين ، وفى الوقت نفسه قام حسام الدين بالقبض على الملك المغيث ان الملك العادل الثانى ، وسجنه فى القلعة ، " وأمر والى القلعة بالاحتفاظ به والاحتياط عليه ، وألا يسلمه إلى من يطلبه منه ، مخافة أن فخر الدين ربما طمع فى السلطنة ، ليستولى على المملكة ويديرها باسمه (أى المغيث) الذى كان عمره آنذاك أربعة عشر عاما[١٣٤] ، ويضيف ابن واصل صراحة أن رسول حسام الدين وصل إلى حصن كيفا، واجتمع بالملك المعظم، وحثه على سرعة الوصول إلى الديار المصرية ، وقال له: "إن تأخرت فات الأمر، وتغلب الأمير فخر الدين على البلاد، وربما جعلها باسم ابن عمك الملك المغيث بن الملك العادل"[١٣٥]. ولعل هذا يعيد إلى الأذهان ما ذكره مؤرخنا سابقا عن الخوف الذى تملك حسام الدين خشية أن يقفز فخر الدين إلى عرش السلطنة بعد أن تيقن الحسام من موت الملك الصالح.

وحتى تكتمل هذه الصورة تماما، نواصل رحلتنا مع حديث ابن واصل حتى ندرك حقيقة الاتهامات التى كالها للأمير فخر الدين ، وموقف الأمير الوزير حسام الدين ، الذى كان مؤرخنا يرشحه ليكون خلفا للملك الصالح . يقول مؤرخنا : " لما تواترت الأخبار بقرب وصول الملك المعظم تورانشاه إلى الديار المصرية ، خرج الأمير حسام الدين نائب السلطنة إلى لقائه ، وخرجت أنا فى صحبته ، (وهذا يوضح مدى العلاقة التى كانت تربط بين حسام الدين وابن واصل ، والتى أشرنا إليها من قبل ، ومحاولة ابن واصل فى الوقت نفسه التعرف إلى تورانشاه) ، فالتقيناه بالصالحية ... وخلع الملك المعظم بالصالحية على الأمير حسام الدين خلعة سنية تامة ، ومنطقة وسيفا محلى بالذهب والجوهر ، وسير إليه فرسا من أجود الخيل بخلعة مذهبة ، وبعث إليه ثلاثة آلاف دينار ، فلبس الأمير (حسام الدين) الخلعة وقبل حافر الفرس ، وركبه"[١٣٦].

وهكذا " احتاط حسام الدين لنفسه " كما يقول المقريزى ، وأفلحت سعايته تماما فى إيغار صدر تورانشاه على فخر الدين قبل أن تطأ قدم المعظم أرض مصر ، ولم ينقذ فخر الدين من بطش تورانشاه وأعوانه وانتقامهم جميعا منه إلا استشهاد ابن شيخ الشيوخ قبل

---

١٣٣ – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٦ .
١٣٤ – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .
١٣٥ – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٨٧ .
١٣٦ – المصدر السابق نفسه ، ص ٢٩٥ – ٢٩٦ .

مجئ المعظم. وكان الذى ساعد حسام الدين على أن ينال الحظوة لدى تورانشاه ، ويحصل على خلعه وهداياه كما رأينا ، إلى جانب اقناعه بسرعة الحضور إلى مصر قبل أن تفلت الأمور من بين يديه بزعمه ، أنه كانت تربط بين الرجلين ، تورانشاه وحسام الدين علاقات قديمة منذ أنعم الملك الصالح على ولده هذا بحصن كيفا ، وأمر حسام الدين أن يقيم معه أتابكا له[١٣٧] . ومن ثم لم يجد نائب السلطنة فى القاهرة صعوبة فى استغلال هذه العلاقة القديمة لمصلحته الخاصة و "الاحتياط لنفسه" ، ولو أن الأمير فخر الدين كان يضمر السوء حقا للمعظم تورانشاه ، لأوعز إلى أحد من ملوك بنى أيوب فى الشام ، أو لصاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ، بصفة خاصة ، وكلهم كان يمتلئ بالكراهية الشديدة لتورانشاه لطيشه وسفه وتكبره ، ولتم القبض عليه أثناء قدومه من كيفا فى أعالى العراق إلى مصر ، ولكن فخر الدين لم تحدثه نفسه بمثل ذلك ، لأنه كما قال ، " كان يحفظ الملك لابن سيده " .

والآن .. ترى من الذى يسعى إلى السلطة حثيثا ، وإلى أن يظل دوما فى دائرة الضوء ؟ الأمير فخر الدين الذى ظل فى المعسكر السلطانى فى أشموم طناح ثم المنصورة ، يعد العدة مع الصالح أيوب أولا ، ثم متحملا المسئولية كاملة ، أتابكا للعسكر ومدبرا للملكة ، فى مواجهة الغزو الصليبى ، أم الأمير حسام الدين الذى كان يتملكه الخوف من أن ينفرد فخر الدين بالسلطنة – على حد تعبير صديقه ابن واصل ، حتى أنه بذل كل ما فى وسعه لحث المعظم ليسرع بالعودة إلى مصر ، موغرا صدره على فخر الدين ، ثم كان فى أول مستقبليه عند عودته ، فكان من أمر الهدايا والخلع التى خلع عليه ما كان على النحو الذى رأينا . ولعل هذه الصورة تظهر أكثر وضوحا إذا عدنا إلى معسكر المنصورة لنرى الأمير فخر الدين يؤدى واجبه العسكرى المنوط به حتى آخر لحظات عمره . وأى شئ أكبر شهادة مما يقوله مخاصمه ابن واصل نفسه : " وكان الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ يغتسل فى الحمام ، فأتاه الصريخ بأن الفرنج قد دهموا المعسكر ، فركب (الأمير فخر الدين) دهشا غير مستعد ولا متحفظ (دون أن يتدرع) ، فصادفه جماعة من الفرنج فقتلوه ... وختم الله له بالشهادة ، رحمه الله ورضى عنه "[١٣٨] ، ويضمن ابن واصل حديثه هذا كثيرا من الصفات النبيلة التى يخلعها على فخر الدين ، والتى جئنا على ذكرها من قبل وإن كان يغتسل فى الحمام " ، فيبدو مشغولا بنفسه عن جيشه ، وهذا أمر يفنيه مؤرخ معاصر آخر وهو سبط

---

[١٣٧] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٥ ، ص ١٨٩ – ٢٠٩ .

[١٣٨] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٩٣ ، ويورد ابن أيبك العبارات نفسها ، الدر المطلوب ، ص ٣٧٦ وكذا المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص ٣٤٩ .

بن الجوزى[139] حيث يقول : " ... فركب فخر الدين وقت السحر ليكشف الخبر ، وأنفذ إلى الحلقة (جند الحلقة) والأمراء ليركبوا ، وساق جريدة معه بعض مماليكه وأجناده ، فالتقى طلب (كتيبة) الداوية مصادفة فحملوا عليه ، فهرب من كان معه ، وثبت هو ، فطعنوه فى جنبيه ، فوقع عن فرسه ، فضربوه ضربتين فى وجهه طولا وعرضا بالسيف وقتلوه .. وكان له من العمر يوم مات ست وستون سنة ، رحمه الله تعالى " . وهكذا جاءت نهاية فخر الدين فوق جواده فى ميدان المعركة .

وحتى تتضح الصورة تماما ، ونقف على كل ما فعله الأمير فخر الدين ، باعتباره قائدا عاما للجيش ، قبل أن يلقى الشهادة فى جديلة ، علينا أن نعود إلى الوراء قليلا ، نعنى منذ تلك اللحظة التى قرر فيها الصليبيون الخروج من دمياط والزحف جنوبا ابتغاء القاهرة ، وقد بدأ هذا الزحف فعلا فى يوم ٢٠ نوفمبر ١٢٤٩م / ١٢ شعبان ٦٤٧هـ ، ولم يكد يمضى على ذلك يومان حتى توفى الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وغدا فخر الدين صاحب السلطنة الفعلية فى الديار المصرية ، ولكن الرجل - كما علمنا - آثر أن يجعل شغله الشاغل مدافعة هذه القوات الغازية ، وتعطيل حركتها ، فى محاولات مستميتة لإخراجها من مصر ، ومن هنا كانت إقامته وسط جنوده فى معسكر " جديلة " ، الموقع المتقدم لحماية المنصورة .

وفى الرابع والعشرين من شعبان ٦٤٧هـ / الثانى من ديسمبر ١٢٤٩م دخل الجيش الصليبى مدينة فارسكور ، الواقعة على بعد ثمانية وأربعين كيلو مترا جنوبى دمياط ، وهذا يعنى أنها قطعت هذه المسافة البسيطة فى ثلاثة عشر يوما ، ولعل المجارى المائية العديدة التى تمتلئ بها المنطقة كانت السبب فى بطء حركة الزحف الصليبى ، حيث يخبرنا " جوانفيل " أنه كان عليهم أن يتوقفوا كثيرا ليتم ردم بعض هذه المجارى المائية .

وهنا وحتى نهاية عمره ، يظهر جهد الأمير فخر الدين ، مقدم العسكر ، تخطيطا وتنفيذا فى الجانب العسكرى ؛ فقد تم إعداد كمين من قوة الفرسان جنوبى فارسكور ، ولما كانت القوات الصليبية الزاحفة تفوقها عددا ، فقد أبرق قائدها إلى الأمير فخر الدين يخبره بسقوط فارسكور ، وعلى الفور كتب القائد العام بذلك إلى الأمير حسام الدين نائب السلطنة فى القاهرة ، يوقفه على هذه الأحداث ، ويطلب إليه الدعوة إلى النفير العام ، أو إعلان التعبئة العامة .

---

[139] - مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ٧٧٦ - ٧٧٧ ، ويورد عباراته نفسها النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٢٩ .

وفى خلال العشرين يوما التالية (٢٤ شعبان ٦٤٧هـ — ١٤ رمضان / ٢ ديسمبر إلى ٢١ ديسمبر ١٢٤٩) وصل الجيش الصليبى إلى رأس جزيرة دمياط ، ليصبح بذلك فى مقابلة معسكر جديلة ، لا يفصله عنه والمنصورة أيضا إلا بحر أشموم ، وذلك بعد أن احتل فى طريقه بعد فارسكور كلا من شرمساح والبرمون ، يظاهره فى ذلك سفن أسطوله المتنوعة والعديدة التى وقفت فى النيل بإزاء المعسكر الصليبى .

وشرع لويس التاسع على الفور بعد العدة لعبور بحر أشموم أو البحر الصغير لدخول المعركة الحاسمة، و لم يكن هذا بالأمر اليسير، فطبوغرافية بحر أشموم كانت تؤكد عمق مجراه، وشدة الانحدار فى جانبيه، وسرعة تياره، وهذه كلها عوامل كان لابد من وضعها فى الحسبان إذا أراد الملك الفرنسى تأمين عبور قواته إلى الضفة الأخرى، فأصدر أوامره ببناء الجسر على بحر أشموم هذا، وزيادة فى تأمين هؤلاء أمر ببناء ساترين أفقيين أو سقيفتين تظللان هؤلاء العمال أثناء عملهم من وابل السهام أو المنجنيق الذى لابد أن يستخدمه المسلمون لوقف إقامة هذا الجسر، وعهد إلى جوسلين أمير كورنو Cornaut بالأشراف على آلات رمى المنجنيق التى أعدوها والتى بلغ عددها ثمانية عشر منجنيقا، كما أحاط معسكره بسور وخندق لحمايته من الناحية البرية وجعل من أحد إخوته واحدا يتولى نوبة الحراسة نهارا، بينما قامت مجموعة من الفرسان ، من بينهم المؤرخ جوانفيل الذى نقف منه على كل هذه المعلومات، بنوبة الحراسة الليلية. وهذا كله يوضح مدى الإصرار الذى كان لدى الصليبيين من أجل سرعة إنجاز هذا العمل، وبالتالى اللهفة على دخول المعركة الفاصلة منتهزين فرصة وفاة الملك الصالح، وما دار بخلدهم عما يمكن أن يتركه ذلك فى نفوس المصريين .

غير أن الجيش المصرى بوحداته المختلفة لم يتوقف عن إزعاج الصليبيين بهجماتهم الخاطفة المتلاحقة ؛ ففى اليوم الذى وصل فيه الجيش الصليبى إلى رأس جزيرة دمياط ، هاجمت فرقة استطلاعية من الفرسان الجنود الصليبيين قبل أن ينفضوا عن أنفسهم غبار الرحلة التى قطعوها ، مع أنه لم يقع بهذه القوات الغازية أضرار مادية ، إلا أن هذا الهجوم ترك أثرا سيئا من الناحية النفسية ، حيث انطبع فى نفوسهم أن المسألة ليست بالسهولة التى يتصورونها و لم يكد يمضى على ذلك أربعة أيام حتى قامت خيالة من الجيش المصرى بهجوم آخر فى ٢٥ ديسمبر ١٢٤٩م (١٨ رمضان ٦٤٧هـ) ، أى يوم عيد الميلاد عند المسيحيين اللاتين ، الصليبيين ، وفتكوا بجماعة من " التعساء الذين كانوا قد خرجوا إلى الحقول مترجلين" ، على حد تعبير "جوانفيل". وتكررت مثل هذه الحوادث من أعمال "الإبرار" التى تقع خلف خطوط العدو، وتسبب له ارتباكا كبيرا، منها مثلا ما حدث فى أول أيام عيد

الفطر ، أول شوال ٦٤٧هـ / السابع من يناير ١٢٥٠م ، وبعد ذلك بأسبوعين فقط قامت القوات المصرية بمهاجمة المعسكر الصليبي ، ودارت بينهما معركة حامية، فقد فيها كل من الجانبين عددا من رجاله وشاركت البحرية المصرية أيضا فى هذه الهجمات ، ففى السابع من شوال ٦٤٧هـ / ١٢ يناير ١٢٥٠م استولى رجال الأسطول المصرى على سفينة ضخمة من نوع " الشينى " الكبيرة ، وعليها مائتا جندى صليبي وقائدهم ، وفى يوم الخميس لثمان بقين من شوال ٦٤٧هـ ، أحرقت للفرنج مرمة عظيمة فى البحر ، واستظهر عليها المسلمون استظهارا عظيما بيناً ، على حد قول ابن واصل .

أما فيما يتعلق ببناء الجسر الذى حاول الصليبيون مده على بحر أشموم ليعبروا إليه حيث معسكر جديلة ثم المنصورة ، فقد قامت الإدارة الهندسية فى الجيش المصرى بالتعاون مع رجال المدفعية ، المنجنيق ، بإفساد كل الجهود التى قام بها الصليبيون فى هذا السبيل، فقد عمد المهندسون إلى حفر عدد كبير من الحفر المتلاصقة والعميقة على الضفة التى يسيطر عليها المصريون ، بحيث تغمرها المياه فى المجرى ، فيزداد هذا المجرى اتساعا أمام الصليبيين، ومن ثم بدا الأمر كما لو كان بحر أشموم يتسع كلما زاده الصليبيون ردما !! وقد عبر جوانفيل عن ذلك بكل الحسرة قائلا : " ورأى المسلمون إفساد الجسر الذى أمر الملك ببنائه ، فعمدوا إلى حفر فتحات أمام معسكرهم ، لاتكاد تصلها المياه حتى تندفع فيها مكونة مساحة كبيرة منه ، وبذلك أفسدوا فى يوم واحد ما أجهدنا أنفسنا ثلاثة أسابيع فى عمله، وذلك أننا كلما ردمنا قسما من المجرى من ناحيتنا ، كلما زادوه من جانبهم بواسطة الفتحات التى يحدثونها " ، ويضيف جوانفيل قوله : " لقد أخطأ الملك وجميع باروناته فى أثناء بنائهم لهذا الجسر " .

هذا ما كان من أمر المهندسين والعمال المصريين فى الجيش ، أما ما كان من أمر رجال المدفعية فاهم اصلوا الصليبيين العاملين فى هذا الجسر وكذا القائمين على حراستهم، نارا حامية ، صبوها عليهم من منجنيقاتهم التى انتشرت على الضفة التى يسيطرون عليها، ورغم أن منجنيقات العدو الثمانية عشرة التى نصبوها فى ناحيتهم قامت بقذف المعسكر المصرى ، إلا أن تأثيرها لم يكن يدنو مطلقا مما أوقعته المنجنيقات المصرية بالصليبيين من خسائر، و لم تفلح السقيفة أو الأبراج التى أقاموها لحماية العاملين فى هذا الجسر ، ولعل أدق من يحدثنا عما فعلته المنجنيقات المصرية بالصليبيين هو جوانفيل نفسه ، لذا فإننا نترك له المجال هنا لنجده يقول : " ... وكانت النار الإغريقية تأتى من الأمام أشبه ما تكون ببرميل كبير من القار ، ذات ذنب بقارب الرمح طولا ، يصحبها صوت هائل كدوى الرعد،

وكأنها طائر فى الجو ، تشع بنور يكاد معه من بداخل المعسكر يرى كل شئ كأنه فى وضح النار. وقد أطلق المسلمون النيران علينا من مدافعهم ثلاث مرات فى تلك الليلة ، وأربع مرات بواسطة الأقواس المتحركة . وكان ملكنا القديس كلما سمع صوت قذائف النار الإغريقية جلس فى فراشه ورفع يديه وعينيه إلى مخلصنا وهتف باكيا .. " أيها الرب السيد الحنان احفظ لى شعبى " وفى ذات مرة سقطت القذائف التى رمونا بها على المكان القائم بحراسته رجال سيدى لورد كورتناى ، حيث الشاطئ ، فنظرت فإذا بفارس يدعى " أفليجوى " قادم نحوى ، وقال لى يا سيدى ، إن لم تهب لنجدتنا فإننا سنحترق جميعا، لأن المسلمين قد أطلقوا كثيرا من النبال حتى لكأن سياجا ضخما من اللهيب كان يستهدف برجنا".

ويمضى جوانفيل قائلا: "... وكانت نفوسنا مغتمة لنجاح المسلمين فى تحطيم الأبراج وأخرج المسلمون آلاتهم فى وضح النهار ، بينما كانوا لا يجرؤن من قبل على استعمالها إلا ليلا، وأخذوا يواصلون رمينا بالنار الإغريقية . واقتربوا بآلاتهم حتى أصبحوا على كثب من الجسر الذى يعمل الجيش فى تشييده ، فلم يعد أحد يجرؤ على الذهاب إلى البرجين من جراء ما تقذفه آلات حربهم على الجسر من الحجارة الضخمة ، مما أدى إلى احتراق البرجين . واشتد حزن ملك صقلية (يقصد أخر لويس التاسع ، شارل كونت أنجو ، الذى أصبح فيما بعد ملكا على صقلية من قبل البابوية) حتى كاد أن يجن ، وأراد أن يلقى بنفسه إلى حيث تشتعل النيران عسى أن يطفئها ، وكان فى أشد الغيظ ... إذ لو استمروا فى الرمى حتى الليل لاحترقنا جميعا أثناء قيامنا بالحراسة " .

أليس هذا بكاف على أن يقام دليلا على صدق الأمير فخر الدين ، وإخلاصه ، وجهده الكبير الذى بذله لتنظيم القوات المصرية حتى أضحت على هذا الوضع الذى وصفه مؤرخ صليبى كان شاهد عيان على تلك الأحداث ، ويزيد جوانفيل هذا الجهد الذى بذله فخر الدين وضوحا حين يقول إن لويس أمر بإنشاء برج جديد عوضا عن البرجين المحترقين، وقدر ثمن الخشب الذى استخدم فى تشييده بعشرة آلاف دينار أو يزيد ، فلما تم بناؤه عهد إلى أخيه شارل كونت أنجو بحسن استخدامه حتى يعوض خسارة البرجين السابقين ، فتقدم بالبرج إلى حيث كان البرجان المحترقان، " فلما رأى المسلمون ذلك رتبوا صفوفهم وصفوا آلاتهم الست عشرة لتستطيع رمى الجسر فتصيبه هو والبرج ، ولما رأوا إحجام رجالنا عن الذهاب إلى الجسر خشية الحجارة المتساقطة من الآلات عليه ، أحضروا مقاليعهم وقذفوا البرج منها بالنار الإغريقية فأتت عليه كله" .

هكذا نجد أن الأمير فخر الدين القائد العام للجيش المصرى ، مقدم العسكر ومدبر أمر المملكة الآن ، لم يدخر وسعا فى الإعداد للمعركة الحاسمة المتوقعة مع الصليبيين واتبع كل الوسائل الممكنة حتى لا يدع للصليبيين فرصة ينعمون بها أو فيها بالراحة داخل معسكرهم فى رأس جزيرة دمياط ، ففعلت القوات الخاصة التى دفع بها خلف خطوط العدو فعلها ، وقامت البحرية المصرية بدورها ، وأدى رجال الهندسة العسكرية واجبهم على خير وجه، ونصب ستة عشر منجنيقا فى مواجهة الثمانى عشرة التى أقامها الصليبيون ، فأصلت الآلات المصرية جنود لويس العاملين فى إقامة الجسر حمم نيرانها ، وأحرقت كل دفاعاتهم التى أعدوها لحماية أنفسهم وعبورهم بحر أشموم ، وتملكهم اليأس من إتمام هذا العمل . وكتب جوانفيل يقول : " لما رأى الملك ما جرى استدعى باروناتة للمشاورة ، فأجتمعوا على أنهم لا يستطيعون بناء جسر يعبرون عليه ، نظرا لعجز رجالنا عن أن يردموا من جهتهم قدرا يكافئ ما يستطيع المسلمون حفره من ناحيتهم " . ويكفى أيضا فى صف فخر الدين أن نسجل عبارات رئيس نوبة الحراسة الليلية للبرجين الصليبيين ، عندما عاين ما يفعله الجيش المصرى بقيادة الأمير فخر الدين من معسكره فى جديلة ، قال : " أيها السادة ، إننا فى أخطر وضع تعرضنا له حتى الآن، ذلك أنهم إذا أضرموا النيران فى أبراجنا (وكان ذلك فى أول الأمر قبل احتراق البرجين) ، وبقينا حيث نحن ، فلابد أننا هالكون بالحريق ، وإذا تركنا أماكن دفاعنا هذه ، التى وكل إلينا حراستها ، فقدنا شرفنا ، ولن يدفع عنا هذا البلاء سوى الرب ، لذا فإنى أنصحكم أن نجثوا على أيدينا وركبنا كلما قذفونا بالنيران ، وندعو "مخلصنا" أن يقينا شر هذا البلاء".

ومن الجدير بالذكر أن الصليبيين قطعوا المسافة من دمياط إلى رأس جزيرة دمياط فى ثلاثين يوما (٢٠ نوفمبر إلى ٢١ ديسمبر)، بينما أمضوا خمسين يوما فى مكان نزولهم (من ٢١ ديسمبر ١٢٤٩ - ٨ فبراير ١٢٥٠) لا يستطيعون عبور بحر أشموم، ولاشك أن الجهود التى بذلها فخر الدين على النحو الذى رأينا كان لها أكبر الأثر فى هذا السبيل، بل لقد أثر عنه -فيما رواه جوانفيل- القول بأنه أقسم على مهاجمة المعسكر الصليبى وتحقيق النصر وتناول طعامه فى فسطاط الملك الفرنسى، يوم عيد ميلاد القديس سباستيان St. Sebastian.

غير أن شيئا نكرا جرى حدوثه أضاع سدى كل الجهود التى بذلها الجيش المصرى وقائدها لأمير فخر الدين، وذلك أن واحدا احتوت نفسه على الخيانه، تطوع ليدل الصليبيين على مخاضة يعبرون من خلالها بحر أشمون ، ليأخذوا المسلمين على غرة مقابل خمسمائة دينار

يدفعونها له مقدما!! وتقع هذة المخاضة عند قرية سلمون التى تبعد عن مدينة المنصورة الحالية بحوالى ستة كيلو مترات. و لم يتردد الملك لويس التاسع لحظة واحدة فى قبول العرض ، رغم أن المخاضة لم تصلح فقط إلا لعبور الفرسان على ظهور خيولهم ، بينما يستحيل على المشاة اجتيازها ، ولكنه اهتبل هذة الفرصة التى جاءت تسعى على غير موعد، ولا مانع من أن يتحقق عن طريق الخيانة ما فشل الصليبيون فى إنجازه خلال خمسين يوما من المناوشات اصطلوا فيها بنيران الجيش المصرى.

هكذا لم يكن هجوم الصليبيين الذى تم على هذا النحو المفاجئ ، ولا خروج فخر الدين دهشا غير مستعد ، إذا أخذنا برواية ابن واصل، عن تقصير من جانب مقدم العسكر، أو تراخ فى أداء واجباته العسكرية، بل كانت نتيجة لخيانة " بعض من لا دين لهم" على حد قول مؤرخنا المقريزى [١٤٠]، ومن ثم فإنه لما كان الأمير فخر الدين رجلا " عالى الهمة " فلم يكن يتوقع أن تأتيه الكارثة من الداخل، نعنى الخيانة التى تسببت فى عبور الصليبيين لبحر أشمون عند مخاضة سلمون ، وهجومهم المباغت على المنصورة [١٤١]، ومهما يكن من أمر، فالذى يعنينا أن فخر الدين ظل حتى اللحظة الأخيرة، وقد بلغ العام السادس والستين من عمره ، مقاتلا فى قلب ميدان المعركة ، وظل ثابتا طلبا للشهادة ، بينما فر عنه طلبا للنجاة كل من حوله وخاصة مماليكه الذين تركوه وانصرفوا إلى داره فنهبوا كل محتوياتها . ولا نملك إلا هذا التعليق الذى يجمع بين السخرية والأسى لعدم الوفاء ، والذى جرى به قلم سبط بن الجوزى [١٤٢]، قال: "... وخربت داره كأنها لم تكن بالأمس ، خربها الأمراء الذين كانوا يركبون كل يوم إلى خدمته ويقفون على بابه، وهم أكثر من سبعين أمير كانوا يتمنون أن ينظر إلى أحد منهم نظرة، وما نفعه تربية مماليكه وإحسانه إليهم "!!

والآن وبعد عرض القضية من جميع جوانبها على هذا النحو آن لنا أن نقدم شهادة الحق

[١٤٠] الخطط ، ج١، ص ٢٢١.
[١٤١] لمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع كتابنا " الجيش المصرى فى عصر الأيوبيين " ، تحت الطبع .
[١٤٢] مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٧٧٧ .

على أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ كان بعيدا كل البعد عن كل ما تضمنته صحيفة الدعوى المقامة ضده من اتهامات ساقها المؤرخين القدامى والمحدثين، وهذه يدلى به السلطان نفسه. فابن واصل ملأ الدنيا فى كتابة ضجيجا مؤكدا أن الملك الصالح نجم الدين أيوب لو كان موليا أحدا من بعده ، فإنه لم يكن ليعدل أبدا عن وزيره حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى ، لأنه كان ساعده الأيمن فى كل أموره ، وموضع ثقته المطلقة ، ولأنه لم يكن يثق كل الثقة فى الأمير فخر الدين بحيث يجعله يقدم على اختياره خلفا له ، إضافة إلى كراهية الصالح لأبنه المعظم تورانشاه . ومع أن المقريزى يتفق مع ابن واصل فى كثير مما يقوله عن الأمير فخر الدين حتى يكاد يورد فى بعض المواضع عباراته نفسها ، إلا أنه هنا يخرج عن هذه القاعدة ويؤكد أن الملك الصالح أوصى قبل موته أن يخلفه ابنه تورانشاه ، يقول المقريزى[144] ما نصه : "فلما كان ليلة الاثنين نصف شعبان ، مات السلطان الملك الصالح بالمنصورة وهو فى مقابلة الفرنج ، عن أربع وأربعين سنة ، بعدما عهد لولده الملك المعظم تورانشاه ، وحلف له فخر الدين ابن الشيخ ومحسن الطواشى، ومن يثق به " وعبارات المقريزى تفيد أمرين أولهما أن الصالح أوصى لأبنه تورانشاه قبل موته ، وثانيهما أنه صدق على ذلك بأخبار مقدم عسكره فخر الدين ، وطواشيه محسن ، ومن يثق به ، ولم يكن من بينهم بالطبع حسام الدين، وإلا ذكره المقريزى ولم يكن ليغفل عنه من قبل صديقه ابن واصل . أما التعبير الأخير الذى ورد فى عبارة المقريزى ، ونعنى به قوله "ومن يثق به"، فإنه يضيف بعدا جديدا يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن الأمير فخر الدين كان على رأس هؤلاء الذين يثق بهم الملك الصالح ، بحيث أخذ عليه موثقا وعهدا أن يحفظ عرش الديار المصرية حتى يؤوب تورانشاه . وهل فعل فخر الدين غير ذلك ؟

وبذكاء تميز به المقريزى المؤرخ ، أشار إلى حديث ابن واصل فى هذا الشأن ، ولم يأت به خبرا مؤكدا كما جرت عباراته السابقة عن وصية الصالح لأبنه ، بل أورده ضمن دائرة الأقوال التى لا دليل عليها ، ومن ثم فإنه جاء بحديث ابن واصل وقدمه بما يفيد عدم موافقته عليه ، وهذا نص المقريزى ، " وقيل إنه لم يعهد إلى أحد بالملك ، بل قال للأمير حسام الدين ابن أبى على : إذا مت لا تسلم البلاد إلا للخليفة المستعصم بالله ، ليرى فيها رأيه "[145] . وهذا بنصه قول ابن واصل.

---

[144] - السلوك ، جـ١ ، ص٣٣٩ ، ويقول ابن أيبك ، الدر المطلوب ص ٣٧٣ ، " قام الأمير فخر الدين بن الشيخ مدبر الدولة ، وجمع الأمراء ، وقال : " إن السلطان رسم أن تحلفوا لولده غياث الدين تورانشاه " ، وقارن الحنبلى ، شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب، ص ٣٤٠ .

[145] - المقريزى ، السلوك ،جـ١ ، ص ٣٤٢ .

أما الشهادة التى يدلى بها السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب وحجبناها إلى آخر جلسات المحاكمة لتكون الحجة الدامغة ضد كل من اتهم فخر الدين بن الشيخ فى شرفه العسكرى ووطنيته ، فهى عبارة عن الوصية التى كتبها الصالح لابنه تورانشاه ، والتى يعهد فيها إليه بالملك ، ويضمنها كل خبرته وخلاصة تجاربه وصادق نصحه ، ليكون هذا كله دستورا لـ "الولد" فى ممارسة مهام منصبه[١٤٦] . وفى الوقت نفسه جاءت بيانا ناصعا ودليلا صادقا على تبرئة الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من كل ما نسب إليه . وما علينا إلا أن نقرأ معا أمام محكمة التاريخ بعضا مما جرى به قلم السلطان .

يقول الصالح : " ... والأخ فخر الدين بن الشيخ ما عندى من أُقدمّ سواه ، فأكرمه واحترمه كما تحترمنى ، واجعله عندك كالوالد ، واسمع قوله ورأيه ، ولا تخالفه ، واجعل له من العدة مائتى فارس " . وهذا فى حد ذاته اعتراف صريح من الملك الصالح نجم الدين أيوب بأنه ليس عنده فى دولته من يحتل المقام الأول بعده مباشرة إلا الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، وهذا ينفى تماما ما يردده ابن واصل من القول بأن " السلطان الملك الصالح لا يعتمد فى حفظ الديار المصرية إلا على حسام الدين محمد بن أبى على "[١٤٧] . وفى كلمات الصالح هذه أمر لولده بستة أمور واجبة التنفيذ ، تخص الأمير فخر الدين ، إعلاء قدره وتكريمه ، واحترامه بما يليق بمكانته ، وإنزاله مترلة الوالد ، والترول عند كل أقواله وآرائه ، وعدم مخالفة مشورته ونصحه ، وتخصيص مائتى فارس له لرفعة مترلته .

ويضيف الصالح قائلا لولده وهو يعظه " اتفق أنت والأخ فخر الدين ... واحفظ يا ولدى ما أقوله لك (وكان قد ذكر له جملة نصائح تخص مختلف أمور الدولة سياسية ودبلوماسيا وعسكريا) ، فهذا جميعه ما عرفنى به إلا الأخر فخر الدين " ، ويختتم وصيته بقوله " فهذه وصيتى إليك ، فأعمل بما فيها ولا تخالف وصيتى ، وكل يوم طالعها ، وقف[١٤٨] عليها ، ولا تعمل شيئا[١٤٩] دون أن تشاور الأخر فخر الدين ، والله يقدر بما فيه الخير إن شاء الله تعالى " .

والوصية تمتلئ فى مواضع متعددة بضرورة الأخذ برأى " الأخ فخر الدين " فى أمور كذا وكذا ، مثل ما يجب عمله تجاه بعض زعماء جماعة القَيْمُرِية ، (وهم طائفة من

---

[١٤٦] – النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ، ٢٩ ص ٣٤١ – ٣٥٢ .
[١٤٧] – ابن واصل ، مفرج الكروب ، الملحق المذكور ص ٢٨٤ .
[١٤٨] – فى الأصل " واقف "
[١٤٩] – فى الأصل " شئ "

الأكراد)، وزعماء المماليك الصالحية الذين أوصاه بهم خيرا ، والمشكلات المتعلقة بالأسطول، حيث أن "لأخ الدين عرفني بهذه الأحوال جميعها ، فاسمع ما يقوله لك " !!

والوصية إذن تقليد الملك للمعظم تورانشاه من قبل أبيه الصالح نجم الدين أيوب ، وتعيين لمستشاره وقائد جيشه، والرجل المقدم في دولته ، ومن لا يقدم غيره، نعني "الأخ" فخر الدين بن شيخ الشيوخ ، الذي خصه بأسرار دولته ، إذ يقول لولده : " وقد عينت في ورقة عند الأخ فخر الدين عشرين من المماليك تقدمهم ، تعطى لكل واحد منهم كوس (صنوج من نحاس يدق بها في المواكب وهي من شعارات السلطنة والإمارة) ، وعلما[150] ، وتحسن إليهم".

ولو كان الأمر حقا كما ردد ابن واصل مرارا وتكرارا في كتابه ، من ثقة الصالح التي لا حدود لها في الأمير حسام الدين ، وفقدانه إياها في الأمير فخر الدين لكان المنطق يحتم عليه أن يجعل من حسام الدين ، وليس فخر الدين ، مستشارا لابنه تورانشاه حالة اعتلائه عرش السلطنة ، خاصة وأن حسام الدين كان أتابكا لتورانشاه عندما كان في حصن كيفا كما علمنا . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، ولم يختر الصالح أحدا سوى ابن الشيخ ليكون عضد ولده كما كان عضده هو شخصيا في سني حكمه .

والسلطان الصالح ينزل فخر الدين منزله أخيه ، فلا يسميه في وصيته إلا بـ "الأخ"، ولم يستخدم هذا اللفظ مع أحد غيره ممن وردت أسماؤهم في الوصية على كثرتهم ، ومنهم نفر من أهله وأقاربه ، ولم يستخدم مع هذا اللفظ لقب الأمير أو مقدم العسكر أو الأتابك ، دليلا على مدى قرب فخر الدين من الصالح ومودته له واحترامه إياه ، بل والثقة المطلقة التي أولاها إياه على العكس مما يقوله ابن واصل تماما .

وقد جاء ذكر حسام الدين محمد بن أبي علي الهذباني ، صديق ابن واصل ، في هذه الوصية ، فإذا ما قرأنا ما كتب عنه علمنا يقينا أن كل ما قاله مؤرخنا عن انفراد حسام الدين بثقة الصالح ، وأنه لم يكن ليولي أحد من بعده غيره لو أوصى ، مجرد آمال داعبت ابن واصل من أجل صديق عمره ، وصاحب الفضل في انزاله منزلا كريما عند قدومه إلى القاهرة من الشام . وها قد أوصى الصالح ، ولكنه أوصى بالشخصيتين الكريهتين لابن واصل !! تورانشاه وفخر الدين !! أما ما يخص الحسام فقد جاء ذكره في عداد الأمراء غيره ؛ يقول الصالح : " الولد (يعني تورانشاه) يتوصى بالخدام ، محسن (يقصد الطواشي جمال دين

---

[150] - في الأصل " علم "

محسن) ورشيد والخدام المقدمين ، لا تغيرهم ، فما قدمت أحدا[151] من الخدام ولا من المماليك إلا بعد ما تحققت نصحه وشفقته ، وأستاذ الدار وأمين جاندار تتوصى بهم . وكذلك الحسام . لا تغيرهم فأنى اعتمد عليهم فى جميع أمورى ... والحسام يكون بمفرده لا حل ولا ربط " !! وهكذا ذكر حسام الدين فى عداد أعوان السلطان الذين يعتمد عليهم ، بل آخرهم بعد الطواشى محسن ورشيد والخدام المقدمين ، والسلطان يعرف جيدا أن وزيره نائب السلطنة لا يعرف الحل والربط فى الأمور بمفرده ! فكيف يمكن أن يجعل منه الصالح - لو أوصى كما يقول ابن واصل - سيدا على مصر ؟!

وليس ببعيد أن يحاج أحد بالقول أن الوصية كتبت قبل أن ينسحب الأمير فخر الدين بجيشه من جيزة دمياط ، ومن ثم فإن الصالح لم يكن يعلم بعدم ولاء مقدم عسكره عندما كتب وصيته غير أن ذلك قول واه يسهل دحضه دون عناء من خلال أمرين ، أولهما يتفق مع المنطق وطبيعة الأمور ، وهو أنه كان بمقدور الصالح أن يمزق هذه الوصية تمزيقا ، أو أن ينسخ بيديه محوا كل ما كتبته يده عن فخر الدين ، أو أن يضيف فى أضعف الأحوال عبارة فى بداية وصيته أو نهايتها يخبر ولده فيها بخيانة فخر الدين وموقفه من الصليبيين عند جيزة دمياط ، أما ثانى الأمرين فهو الدليل العملى الدامغ من داخل هذه الوثيقة نفسها ، فالوصية تضمنت فى بدايتها كل الأحداث التى وقعت عند دمياط ، وما كان من أمر الصليبيين هناك ، أى احتلالها بعد أن فر من كان بها من الكنانية !! بل وتتضمن أيضا شهادة البراءة الكاملة للأمير فخر الدين على النحو الذى عرضنا له من قبل .

بقى أن نقول هنا ، حتى نغلق ملف قضية الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ، القائد العام للجيش المصرى ، أو بتعبير زمانه أتابك العسكر ، والذى اتضحت لنا بداءته -على الأقل من وجهة نظرنا- مما نسب إليه من تركه لجيزة دمياط وانسحابه إلى أشموم طناح لهوى فى نفسه، وعدم ولائه لسيده ، وطمعه فى السلطنة، إن الملك الصالح نجم الدين أيوب، الذى أدلى بشهادته أمام محكمة التاريخ مبرئا "الأخ" فخر الدين، بعد كل ما قدمناه لتنفيذ ما جاء بصحيفة الدعوى المرفوعة ضده، هو الذى كتب وصيته هذه بخط يده ، إذ يقول: "وكتبت هذه الوصية و لم يطلع عليها أحد، لئلا تضيق صدورهم ، وكتبتها فى مدة طويلة". والنويرى يؤكد ذلك عند تقديمه للوصية حين يقول : " وكان الملك الصالح فى مرض موته ،

[151] - فى الأصل " أحد " .

قد كتب إلى ولده الملك المعظم هذا كتابا أسند فيه المُلك إليه ، واشتمل كتابه على جملة من الوصايا ، وقد وقفت على الكتاب المذكور، وهو بخط السلطان الملك الصالح بجملته "[١٥٢] .

أما من يقصدهم السلطان الملك الصالح بقوله " لئلا تضيق صدورهم " فهم جملة من الأمراء سماهم ، وطلب من ولده إبعادهم عن مناصبهم وعدم الاعتماد عليهم ، لأنه لن يستطيع التعامل معهم ، بعد أن كشف عن خبيئة نفوسهم وخبثهم وما تكنه صدورهم من السوء ، ويتبع كل واحد من هؤلاء بالقول بأن الأمير فخر الدين ، مقدم العسكر ، يعرف كل هذه الأمور عن هؤلاء جميعا ، وعلى المعظم أن يأخذ برأيه حيالهم[١٥٣] .

أما قول الصالح " وكتبته (أي الوصية) فى مدة طويلة " فلابد أن تكون هذه المدة هى الواقعة بين احتلال الحملة الصليبية السابعة لدمياط فى السادس من يونيه ١٢٤٩م / صفر ٦٤٧هـ، وموته فى الثالث والعشرين من نوفمبر من العام نفسه (ليلة النصف من شعبان)، وهى فترة تمتد إلى خمسة شهور ونصف تقريبا ، وهى الفترة التى مرض فيها مرض الموت كما يخبرنا ابن واصل وابن العبرى والنويرى وغيرهم ، والنويرى يذكر ذلك صراحة فى عبارته التى سقناها منذ قليل حين قال: " وكان الملك الصالح فى مرض موته ، قد كتب إلى ولده الملك المعظم ... " . وهذا يفسر لنا من ناحية أخرى استبقاء السلطان الملك الصالح لقائد جيشه إلى جواره ، بعد أن شعر بدنو أجله ، للإشراف على تنظيم معسكر المنصورة التى انتقل إليها السلطان من أشموم طناح، وتقويتها وتحصينها ، ومباشرة إدارة السلطنة فى تلك الفترة العصيبة التى تمر بها البلاد ، من مرض السلطانه مرض الموت ، واحتلال الصليبيين لجزء من الديار المصرية ، ولسنا فى حاجة الآن إلى القول إن كل هذا يكشف عن مدى الثقة التى كان يتمتع بها "الأخ" فخر الدين عند السلطان، كما أكدت على ذلك كل كلمات وصيته . ولعل الملك الصالح كان يوقن تماما أن منافسى وحساد فخر الدين سوف يسلقونه

---

[١٥٢] - النويرى ، نهاية الأرب، جـ٢٩ ، ص ٢٤٠ .

[١٥٣] - جاء فى الوصية : " القيمرية " ، الولد (يعنى توارنشاه) لا يسمع كلام بعضهم فى بعض ، وناصر الدين عنده كذب وخبث ، وما باطنه جيد ، وقد عرفت الأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) الرسل الذين مسكوا من دمشق الى حلب من عنده ، والحسام (يعنى حسام الدين محمد بن أبى على الهذبانى) يكون بمفرده لا حل ولا ربط ... وناصر الدين أرحل لا يخرج مع عسكر ، وسيف الدين القيمرى تعمل معه ما يقرر مع الأخ فخر الدين (بن شيخ الشيوخ) يكون مقدم العسكر فى دمشق ، وابن يغمور (جمال الدين) مشد (الناظر فى حسابات الدواوين) ، وناصر الدين على المظالم ، فابن يغمور يصلح يكون مشد ووالى وحابى الأموال ، ولا يصلح يكون مقدم عسكر ، ولا يصلح لحندية ، ولا تؤمن له كل الأمر ، بل تمشى (هكذا) به الحال فى مكتن مدة ، ثم ينقل الى غيره ، وهو بالكتاب أليق ، وكذلك قرائب فخر الدين عثمان كلهم لا يصلحوا لجنديةن ... ، فالأخ فخر لدين (بن شيخ الشيوخ) يعرف ما جرى منه ، فهو نحس مفسد محسحس ، وقد عرف الأخ فخر الدين حاله وما جرى منه فى دمياط وغير دمياط ، فما يصلح لصالحة متولى ديوان الأحباس (الأوقاف) اصرفه وولى (كذا) ابن النحوى ... وطرائق ابن الحباب غير صالحة ، والوكيل اصرفه " . إضافة الى عدد من أهل الذمة العاملين فى ديوان الجيش ، يرد إليهم الصالح الكثير من الفساد ؛ وأناس غير هؤلاء وأولئك ، راجع النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٥٠ - ٣٥١ .

بأقلام وألسنة حداد ، فقرن فى أول وصيته بين ما حدث فى دمياط ونزاهة قائد جيشه وبراءته من أى اتهام .

ولا بد أن يكون السلطان قد سلم هذه الوصية لواحد من أقرب المحيطين به وهم ثلاثة ؛ زوجه شجر الدر ، ومقدم عسكره الأمير فخر الدين والطواشى جمال الدين محسن ، تسليمها إلى ولده تورانشاه عند قدومه إلى مصر ، ويرجح أنه أعطاها لزوجه شجر الدر باعتبارها أقدر الثلاثة على حفظها وتسليمها لخليفته على العرش ، حيث كان الجميع من الأمراء ومماليك السلطان يجلونها ويعرفون لها قدرها ، وقد بدا ذلك واضحا فى الفترة التى أعقبت وفاة الملك الصالح ، ولم يكن أحد من هؤلاء جميعا يجرؤ على المساس بمقتنياتها[١٥٤] . وليس من المستبعد أيضا أن يكون الصالح قد أومأ إليها شفاهة باستدعاء ابنه تورانشاه من حصن كيفا ، بعد أن أوصى به ، كما أخبرنا المقريزى ، وبعد أن قلده رسميا فى الوصية التى لم يُطلع السلطان عليها أحدا منهم ، فقد جاء فيها بالحرف الواحد : " يا ولدى قلدت إليك أمور المسلمين إلى الطواشى جمال الدين محسن، وهو لم يعرض له كثيرا فى وصيته كما فعل مع الأمير فخر الدين ، ولا كانت منزلته تؤهله لثقة كبار الأمراء فيه . ولا كان من المعقول أيضا أن يودعها لدى "الأخ" فخر الدين ، لعلمه أنه مقدم عسكره ، وأن الحرب بينه وبين الصليبيين دائرة ، وأنه أقرب إلى الموت منه إلى الحياة ، وأنه لا يأمن عليها من العبث بأيدى مماليكه بعد وفاته ، وكأن الصالح كان يقرأ فى صحف الغيب عندما استشعر ذلك ، فقد رأينا ما حل بدار الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من النهب والتخريب على أيدى مماليكه ، لقد جاء هؤلاء إلى داره " فكسروا صناديقه ونهبوا أكثر ما فيها ، ونهبت أمواله وخيله ، وأخذ الجولانى (نسبة إلى الجولان فى سوريا) قدور حمامه ، والدمياطى أبواب داره"[١٥٥] وهكذا لم يكن آمن على وصيته من زوجه أم خليل شجر الدر .

ومهما يكن من أمر ، فالذى يعنينا فى المقام الأول ، أن هذه الوصية جاءت شهادة حق على أن الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مقدم العسكر المصرى ، فى عهد السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، والدبلوماسى الماهر فى أيام أبيه الملك الكامل محمد ، قد أدى واجبه كاملا فى خدمة بنى أيوب ، وظل على ولائه لهم ، وإخلاصه فى عمله

---

[١٥٤] - تضمنت الوصية ما يفيد هذا الرأى ، إذ يقول الملك الصالح : " يا ولدى الوصية بأم خليل (وهو اللقب الذى كانت تكنى به شجر الدر) فلها على من الحقوق والخدمة ما لا أقدر أصفه ، إرع (فى الأصل أرعى) جانبها واكرمها واحترمها وارفع منزلتها ، فهى عندى بمنزلة عظيمة ، وكنت طيب القلب بصحبتها ، آمنا على نفسى من جهتها ، فأجعلها لك مثل الوالدة ، واجتهد فى اتصال الراحة إليها ... ولا تخرج عن رأيها وتدبيرها " ، النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٣٤١ – ٣٤٢ .

[١٥٥] - النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص ٣٣٩ .

العسكرى، حتى آخر أيام عمره ، وهى فى الوقت نفسه ، أعنى الوصية ، دليل بالغ الدلالـة على أن الاتهامات التى سيقت ضده من ابن واصل ومن سار على نهجـه مـن المؤرخـين القدامى والمحدثين ليس لها من الصحة نصيب .

سياسة الدولة البويهية إزاء وضعية الأرض الزراعية

(٣٣٤ - ٤٤٨ هـ)

د./ محمود إسماعيل

كلية الآداب - جامعة عين شمس

يجمع الباحثون على أن فهم التاريخ الإسلامى واستيعابه وتفسيره وتنظيره لا يتم بمعزل عن فهم مفتاحين أساسين هما رصد حركة التجارة العالمية شرقاً وغرباً ، شمالاً وجنوباً ، والإحاطة بتطور وضعية الأرض الزراعية وأشكال ملكيتها وصيغ حيازتها وتطور هذه الأشكال والصيغ عبر حقب التاريخ الإسلامى .

وإذا كان "المفتاح" الأول قد قتل بحثاً ودرساً ؛ فإن "المفتاح" الثانى مازال غائباً عن تناول الباحثين ؛ فما أنجزوه فى هذا الصدد لا يتعدى الأحكام الإنطباعية والتأملات الشخصية؛ بحيث لا يتفق اثنان فى الحكم على وضعية الأرض فى إقليم ما أو زمن ما ، ناهيك عن المجازفات والتخبطات التى تشوب جهود الباحثين فى تقرير نمط الإنتاج الذى ساد العالم الإسلامى برمته طوال عصوره التاريخية . فمن قائل بأن الإقطاعية كانت هى النمط السائد ، ومن قائل بأن النمط الرأسمالى هو الذى استقر الحال عليه . بل ثمة من ذهب إلى أن النمط الرأسمالى كان مشوهاً ؛ فكان لذلك "رأسماليا" وآخرون ذهبوا إلى أن الإقطاع الذى عرفه العالم الإسلامى أبعد ما يكون عن "الفيودالية" التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى . ولا يزال الكثيرون من الدارسين يتشبثون بصيغة "نمط الإنتاج الأسيوى" التى قال بها ماركس والماركسيون ... إن هذا الاختلاف قمين بتضبيب رؤيتنا لمسيرة التاريخ الإسلامى تفسيراً وتنظيراً .

على أن الباحثين متفقون حول حقيقة مفادها أن وضعية الأرض فى التاريخ الإسلامى هى التى أفضت فى الغالب الأعم إلى وجود الإقطاع ، بينما أسفرت فترات سيطرة العالم الإسلامى على التجارة العالمية عن الفترات التى سادها النمط البورجوازى فى الإنتاج .

وتأسيساً على ذلك سوف نحاول رصد الوضعية القانونية للأرض الزراعية فى العراق فى ظل السلطنة البويهية (٣٣٤ - ٤٤٨هـ) كمثال دال على صدق ما نذهب إليه من الخلاف والاختلاف بين الباحثين والدارسين .

وقبل الاستغراق فى بحث الموضوع من المفيد أن ننوه بأن هذا الخلاف راجع إلى أمرين أساسين هما :

أولا: طبيعة المادة التاريخية المصدرية الملغومة التى تشكل مرجعية الدارسين المحدثين . إذ من المعلوم أن هذه المادة قليلة ومضببة وغير بريئة . لا لشئ إلا لاختلاف هوية الفقهاء والمؤرخين الإسلاميين الأوائل الذين عالجوا هذه القضية ، إذ غلبت المذهبية الطائفية على مخيال هؤلاء تأسيساً على تضارب رؤيتهم للشريعة الإسلامية ، وفى الغالب الأعم تلونت كتاباتهم بالتبرير لسياسة الأمر الواقع واعتبار ما أقره الحكام من سياسات فى هذا الصدد هو ما أقرته الشريعة الإسلامية ، أما الذين لم يتأثروا بأهواء الميول للسلطة ؛ فإن كتاباتهم استهدفت لا تفسير ما هو واقع وقائم من سياسات ؛ بل عبرت عما كان ينبغى أن يكون . ولذلك ظلت هذه الكتابات فى "الأحكام السلطانية" عديمة النفع والجدوى بصدد فهم السياسات العملية إزاء مسألة الأرض الزراعية إلى تهم الدارسين بالفعل .

من هنا ظلت كتابات النفر الأول المبررة لسياسات الحكام هى المصدر الأساسى للوقوف على الماجريات التاريخية للقضية موضوع البحث . وفى الغالب الأعم كانت تصورات أصحاب تلك الكتابات تعبر عن رؤية الحاكم والطبقة المسيطرة[1] . ونمثل فى هذا الصدد بكتاب "الخراج" الذى كتبه القاضى أبو يوسف بإيعاز من الخليفة هارون الرشيد ؛ والذى ذهب فيه إلى حكم خطير هو أن من حق الحاكم التصرف فى الأرض حسب رغبته ووفق إرادته[2] .

لقد أصبح هذا الحكم الخطير متداولاً لدى فقهاء السلطة والمؤرخين الإسلاميين طوال العصور التالية خوفاً أو طمعاً ، أو هما معاً . يقول يحى بن آدم[3] : "إن الأرض ملك للسلطان ؛ إن شاء قسمها ، وإن شاء صادرها ، وإن شاء أوقفها حسب ما تقتضيه المصلحة" وهذا يعنى أن فقهاء السلطان قد نحوا الشريعة جانباً وأضفوا على سياسات الحكام شرعية زائفة .

ثانيا : أن المؤرخين والدارسين المحدثين – فضلاً عن تأثرهم بهذه الكتابات الملغومة – أضافوا ألغاماً جديدة تتمثل فى الإديولوجيات المعاصرة التى تبنوها ونظروا من خلالها إلى مسألة الأرض ؛ فزادوها غموضا على غموض . ولا أدل على ذلك من أن معتنقى

---

[1] – أنظر ، محمد تضغوت : الحياة الاقتصادية فى العراق فى العصر البويهى ، رسالة دكتوراه – مخطوطة ، ص ٢٥ ، ٢٦ .

[2] – أحمد صادق سعد : دراسات فى المفاهيم الاقتصادية لدى المفكرين الإسلاميين – كتاب الخراج لأبى يوسف ، بيروت ١٩٨٨، ص. ٣٠.

[3] – يحى بن آدم : كتاب الخراج ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ١٨.

الإديولوجية الإشتراكية طوعوا الشريعة الإسلامية بما يخدم منظورهم فقالوا بأن الإسلام هو الاشتراكية وألحوا على الملكية العامة للأرض ، بينما ذهب خصومهم الرأسماليون إلى أن الرأسمالية تتفق مع الإسلام فى تقرير الملكية الفردية والإرث .. !!

أكثر من ذلك أن بعض المؤرخين العرب المعاصرين فى العراق حين بحثوا وضعية الأرض فى العصر البويهى تأثروا بنزعات إقليمية تتعصب للخلافة العباسية ؛ لذلك وجدوا فى البويهيين الشيعة الذين انتزعوا حكم العراق من الخلافة "غزاة أجانب" تخبطت سياساتهم الاقتصادية على الرغم مما عرفه العراق من ازدهار عام فى العصر البويهى ، من هنا جاءت أحكامهم الملونة إديولوجيا مجافية للحقيقة ، يقول الأستاذ عبد العزيز الدورى بأن العصر البويهى يعد "فاتحة عهود السيطرة الأجنبية فى البلاد العربية"[٤] ، وفى الوقت الذى ندد فيه بسياستهم الاقتصادية واعتبر عصرهم تجذير الإقطاع العسكرى ؛ ناقض نفسه حين قال : "شهد العصر أوجه نشاط المؤسسات التجارية والصيرفية وشهد ازدهار الزراعة ، وتقدم فنون الصناعة"[٥] . وهذا لا يتأتى إلا فى ظل وجود نمط انتاج بواجوازى . أمام تلك المادة المصدرية غير البريئة ، وأمام الأهواء الإيديولوجية المعاصرة ؛ لا يجد الباحث الموضوعى مناصاً من اختطاط منهج قوامه رصد الظاهرة الاقتصادية فى مجتمع إسلامى وسيطى بعينه فى إطار رؤية عامة وشاملة لدرجة تواجدها وتفاوتها نسبياً فى العالم الإسلامى بأسره؛ على اعتبار أن رؤية الجزء لا تتم إلا فى إطار الكل بعيدا عن المذهبيات والإديولوجيات . وهو ما حاولناه فى مشروعنا "سوسيولوجيا الفكر الإسلامى" وحاوله – فى ضوء ذلك – تلميذنا النابغة محمد تضغوت فى رسالتة الفذة عن "العصر البويهى" فتوصلنا – وتوصل معنا – إلى حكم عام مؤداه أن الإقطاع الذى ساد العراق فى عصر "تسلط الأتراك "٢٣٢ – ٣٣٤هـ تضعضع فى العصر التإلى وهو العصر البويهى[٦] .

ومع ذلك اختلفنا حول درجة أفول الظاهرة الإقطاعية ؛ إذ بينما ارتأينا أن العصر سادته البورجوازية ، مع وجود إقطاع مهمش ؛ ذهب هو إلى عكس ما ذهبنا ؛ فقال بأن التواجد البورجوازى كان هامشيا بالقياس إلى التواجد الإقطاعى الغلاب .

على كل حال سوف نوضح رؤيتنا – مع مناقشة نظرة تلميذنا الذى نكن له الاحترام – من خلال النصوص التى اعتمد عليها هو نفسه واختلف معنا فى تأويل بعضها .

---

[٤] – عبد العزيز الدورى : مقدمة فى التاريخ الإقتصادى العربى ، بيروت ١٩٧٨، ص ٨٦ .

[٥] – نفسه ، ص ٨٦ .

[٦] – محمود إسماعيل : سوسيولوجيا الفكر الإسلامى ، الدار البيضاء ، ١٩٨٠، جـ٢ ، ص ١٤٠ وما بعدها.

لقد فطن كلود كاهن إلى حقيقة تضعضع الإقطاعية فى العصر البويــهى دون أن يتصــدى لبرهنتها[٧] .

فما هى الدوافع السياسية لسياسة بنى بوية فى ضعضعة الإقطاع ؟مفــوم أن ســيادة الإقطاع خلال القرن السابق على ظهور البويهين كانت مسئولة عن حالة الضعف والتشرذم السياسى للإمبراطورية العباسية ، فكانت الحركات الاستقلالية والتجزئة السياسية مرادفــا لنمط الإقطاع المنغلق الاكتفائى الزراعى والرعوى أساسا ؛ ومن ثم ما كان هناك يد مــن أن يعول البويهيون على تحقيق الوحدة السياسية عن طريق استعادة هيبة السلطة المركزية وذلـك بالقضاء على الإقطاع[٨] . تلك المقولة برهنها تلميذنا محمد تضغوت بمزيد من القرائن والأدلـة والتفصيل والبسط[٩] والإقناع ؛ بما لا يدعونا إلى التكرار والإضافة ؛ اللهم إلا التنويــه بــأن البويهيين كانوا شيعة زيدية ، وكان التشيع الزيدى مقرونا بالانعزال بطابعــه الإديولوجــى التنويرى العقلانى المتفتح والحريص على تحقيق العدل الاجتماعى بما يكفل المواءمة بين مصالح الدولة ومصالح الرعية .

لذلك لم يدخر معز الدولة أول السلاطين البويهيين وسعا فى "مصادرة ضياع الخلافـة ، وضياع المتسترين ، وضياع ابن شيرزاد وصار أكثر السواد مغلقا ، وزال أيدى العمال عنه ، وبقى الكثير منه من المحلول فضمنه"[١٠] .

يؤكد هذا النص المقتضب على حقائق جد هامة عن محاولة القضاء على الإقطــــاع بأشكاله التى كانت سائدة فى العصر السابق ، سواء ما كان منه تابعا للخلافة أو إلى أمــراء الجند التركى أو إلى رجال الإدارة .

وفى نفس الوقت يشير بأن نظام الملكية الفردية قد حل محله ؛ بحيث ضمنت الدولــة موارد مالية هائلة من ضريبة الخراج مما ساعدها على إقرار سيادها وتوسيع حدودها ، فضلا عن الإنفاق على المشروعات الإصلاحية التى عمت سائر قوى الإنتاج ويكمن الخـــلاف – مع تلميذنا تضغوت– فى أنه رأى فى العبارة الواردة فى النص السابق " وبقى الكثــير منــه فضمنه" وجد فيها دليلا على بقاء الإقطاع الشامل لمعظم الأراضى الزراعية فى العراق ؛ على أساس أن "نظام الضمان" – فى نظره – كان من مظاهر الإقطاعية[١١] . بينما نرى من جانبنـا أن هذا النظام كان يتعلق بجمع أموال الخراج المقرر على الملكيات الخاصة ؛ بما يدل علـــى

[٧] – كلود كاهن : تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، بيروت ، ١٩٧٧ ، ص ٢٠٧ ، الترجمة العربية.
[٨] – فؤاد حليل : الإقطاع الشرقى بين علاقات الملكية ونظام التوزيع ، بيروت ١٩٩٦ ، ص ١٦٦.
[٩] – محمد تضغوت : المرجع السابق ، ص ٣٤ وما بعدها .
[١٠] – مسكويه : تجارب الأمم، القاهرة ، ١٩٢٠ ، ١٩٢١ ، جـ٢ ، ص ٢٣٥.
[١١] – محمد تضغوت : المرجع لسابق ، ص ٣٦ وما بعدها .

سيادة النمط البورجوازى فى الإنتاج . فنظام التضمين أو الالتزام كما هو معروف لا يتعلق بالضياع والإقطاعات ، نظراً لكونها معفاة كلية من الضريبة . ولكنه نظام قصدت منه الدولة الحصول على ضريبة الخراج مقدما عن طريق ملاك كبار يدفعونه للدولة ، ثم يقومون بجمعه من صغار الملاك لأنفسهم بعد الحصاد[١٢] .

وإذ أسندت الدولة البويهية هذه المهمة لقواد العسكر الذين حرمتهم الدولة - كما هو معلوم من قبل - من الإقطاعات ووزعت عليهم الأرزاق والرواتب ، وإذ منحتهم الدولة بعض إقطاعات محدودة ؛ فكانت فقط " إقطاع منفعة" بجرد من كافة حقوق الملكية . وهذا النوع من الإقطاع مرتبط بتقديم خدمات للدولة منها ضمان جباية الخراج ، كذا دفع ضريبة سنوية عن هذه الحيازات التى كانت معفاة من الضرائب فى العصر السابق .

كانت سياسة معز الدولة البويهى تستهدف استئصال شأفة الإقطاعية ، بما فيها الإقطاع العسكرى بطبيعة الحال ، وعولت فى ذلك على المرحلية والتدريج . ولعل هذا يفسر ثورة قادة الجند ومحاولة عزله لما لحق بهم من أضرار[١٣] . لذلك حاول تعويضهم بمنحهم بعض الضياع فى إطار صيغة "إقطاع الاستغلال" أو "المنفعة" فضلا عن الأعطيات والرواتب .

وفى مرحلة تالية لم يتقاعس معز الدولة عن إلغاء هذا النوع من الإقطاع الهزيل خصوصا بعد إهمال قواد العسكر زراعة ضياعهم . هذا ما نقف عليه من نص جد هام لمسكويه حيث قال: "أحدث معز الدولة رسومات ومعاملات لم تعهد ، وأدخل يده فى جميع الأرجاء وجبى ارتفاعها وجعل لأهلها شيئا منه "[١٤] .

ويقطع هذا النص الهام بتحويل ضياع الجند إلى ملكيات خاصة للمزارعين فرضت عليها ضريبة الخراج . معنى هذا اتساع رقعة الملكية الخاصة على حساب الضياع الإقطاعية التى قضى عليها تماما فى عهد صمصام الدولة الذى اتخذ اجراءا هاما فى هذا الصدد هو "إطلاق الانتفاع للملاك"[١٥] ؛ بعد أيلولة الأرض إليهم نظير خراج يدفع للدولة قيمة عشر المحصول الذى أوكل جبايته لا إلى المتضمنين من قادة الجند ؛ بل إلى موظفين إداريين عينهم خصيصا للقيام بهذه المهمة. يفهم ذلك بداهة من قول مسكويه " .. كما أدخل يده فى وقوف السواد ورتب لها ناظرين متصرفين ... وخرجت الإقطاعات من بعد ذلك .. "[١٦] .

---

[١٢] - إبراهيم على طرخان : النظم الإقطاعية فى العصور الوسطى، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ٤٧٥.

[١٣] - محمود اسماعيل : سوسيولوجيا ، جـ٢ ، ص ١٤٢ .

[١٤] - مسكويه : المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٧١ .

[١٥] - نفس المصدر والصفحة .

[١٦] - نفس المصدر والصفحة

ومعلوم أن "وقوف السواد" كانت قد آلت إلى قادة العسكر خلال العصر السابق ، فانتزعت منهم وتحولت إلى ملكيات خاصة ، أى إلى أرض خراجية[17] .

ويمكن الجزم بأن البويهيين الأوائل نجحوا فى كبح جماح الإقطاعيين من قادة العسكر وإن أبقوا على بعض الإقطاعات فى إطار "إقطاع الاستغلال" خصوصا فى مناطق الأطراف النائية نظير القيام بمهمة الدفاع عن حدود الدولة أو المناطق التى تحتاج الأرض فيها إلى الاستصلاح . وحتى لا يتعاظم خطر هؤلاء القادة المقطعين فرضت الدولة عليهم رقابة صارمة وعينت بعضهم فى مناصب إدارية فى قلب الدولة من باب الترضية عوضا عن إقطاعاتهم[18] . وفى نفس الوقت اتبعت الدولة سياسة الإصلاح لتكسب جماهير الرعية إلى جانبها لتوازن بذلك بين سخط القادة العسكريين وبين ولاء المواطنين[19] .

وبفضل تعاظم ولاء الرعايا نجحت الدولة فى فل نفوذ هؤلاء القادة فلم تتقاعس عن ردعهم إذا ما فكروا فى التمرد والإنتزاء .

كما استعانت الدولة فى فرض سياستها إزاء الوضعية الجديدة للأرض بجيش من الإداريين المحنكين واعتمدت عليهم ليكونوا عونا لها فى مواجهة قادة الجند الحانقين .

ولنفس الغرض - وأمام تعاظم الجند الديلمى - لم تدخر الدولة وسعا فى تسريح جيش الديالمة واستعاضت عنه بجند جديد من العناصر التركية غير الطموحة ، فضلا عن تجنيد البدو فى الجيش الجديد الذى وفرت له الأموال فى صورة رواتب وأعطيات بدلا من الإقطاعات[20] .

وفى العصر البويهى الأخير الذى اتسم بالفوضى السياسية نتيجة الصراع بين العسكرين القديم الديلمى والجديد التركى ، واندلاع الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة البويهية الحاكمة، وانتعاش الخلافة العباسية نسبيا ؛ لم يستطع السلاطين البويهيون الأواخر الحفاظ على سياسة الدولة إزاء وضعية الأرض التى أنجزها السلاطين الأوائل فانتكست تلك الإصلاحات[21] إلى حد ما .

ولمواجهة أخطار القوى الإقطاعية الإدارية والعسكرية ضربت الدولة بقوة على أيدى الإداريين وأرغمتهم على دفع ضريبة الخراج التى حاولوا التنصل من تبعاتها[22] . لكنها

---

[17] - محمود إسماعيل : سوسيولوجيا ، جـ٢ ، ص ١٤٤ .

[18] - نفسه ، ص ٤١ .

[19] - الماوردى : قوانين الوزارة وسياسة الملك، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٠٨.

[20] - Bosworth, C, *Military Organisations under the Bayids of Persia and Iraq*, London, 1977, p. 159.

[21] - محمود اسماعيل : دراسات فى الفكر والتاريخ الإسلامى ، القاهرة ، ١٩٩٤ ، ص ٢١.

[22] - محمد تضغوت : المرجع لسابق ، ص ١٥٠

عجزت عن مواجهة قوى العسكر الديلمى القديم ، وأمام عجزها عن دفع الرواتب والأعطيات اضطرت اضطرارا مرة أخرى لإقطاعهم الأرض[٢٣] ؛ فانحرفت بذلك عن جادة الطريق "انحرافا يسيرا ولا يظهر انحرافها فى المبدأ" على حد تعبير دقيق للمؤرخ مسكوية[٢٤] . وهذا يعنى عجز البويهيين الأواخر عجزوا عن استئصال شأفة الإقطاعية تماما ، دون أن يفهم من ذلك بداهة تخلى الدولة عن سياسة البويهين الأوائل كما فهم بعض الدارسين الذين حاولوا إثبات تحول السياسة البويهية إلى إحياء الإقطاعية . لقد عادت فلول الإقطاعية فى قطاع محدود من الأرض الزراعية ، أما معظمها فظل على صورة ملكيات خاصة تدخل فى إطار وضعية الأرض الخراجية. أما عن الأراضى التى صارت إقطاعا ، فقد حاز معظمها أفراد أسرته حفاظا على ولائهم للسلطة[٢٥] . كما أن الصراع على السلطنة بين بهاء الدولة وصمصام الدولة لم يهدأ إلا بعد تعهد كل منهما بأن يخصص لصاحبه إقطاعا فى بعض مناطق[٢٦] نفوذه . وأمام انتعاش الخلافة العباسية اضطرت السلطنة البويهية إلى تخصيص إقطاعات للخلفاء بدلا من الرواتب[٢٧] . ولما نشب النزاع بين العسكرين التركى والديلمى قسم بهاء الدولة بعض مناطق إقليم الأهواز بالتساوى بينهما[٢٨] . كما منح مشرف الدولة بعض القادة الديالمة ضياعا فى واسط لمناصرتهم إياه فى صراعه مع أخيه سلطان الدولة[٢٩] .

يتضح مما سبق أن إحياء الإقطاعية لم يجر إلا فى نسبة محدودة من الأرض الزراعية ، وذلك لأسباب سياسية ، كذا بسبب خواء خزينة الدولة وعجزها عن دفع الرواتب والأعطيات[٣٠] وهذا يعنى أن السواد الأعظم من الأراضى الزراعية ظلت ملكيات خاصة لصغار الملاك .

شاهدنا على دعوانا تلك عدة مؤشرات ، منها أن السواد الأعظم من الجند كانوا يتقاضون رواتب وأعطيات[٣١] ، كما تنم سياسة البويهين الأواخر فى مضاعفة ضريبة الخراج[٣٢] على بقاء الملكيات الخاصة على نطاق واسع .

---

[٢٣] - أحمد عبد الحليم يونس : أنظمة استثمار الأرض الزراعية فى العصر العباسى ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ١٦١ وما بعدها.

[٢٤] - تجارب الأمم ، جـ٦ ، ص ٩٧ .

[٢٥] - إبن الأثير : الكامل فى التاريخ، بيروت ، ١٩٧٨ ، جـ٧ ، ص ١٥.

[٢٦] - نفسه ، ص ٤٥ .

[٢٧] - محمود تضعوت : المرجع السابق ، ص ٥٩ .

[٢٨] - ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ١٩٨ .

[٢٩] - نفسه ، ص ٣٠٦ .

[٣٠] - فؤاد حليل : المرجع السابق ، ص ١٦٥ .

[٣١] - نفسه ، ص ١٥١ ، ١٥٢ .

[٣٢] - مسكويه : المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٩٨ .

لقد اعترف القائلون بعودة الإقطاعية كلية فى أواخر العصر البويهى بوجود ملكيات خاصة للفقهاء والأشراف والقضاة والكتاب نظير "مراقبة الجبايات"[٣٣] بما يعنى عدم رسوخ الإقطاعية على أنقاض الملكيات الخاصة . ومعلوم أن هؤلاء كانوا يحوزون إقطاعات واسعة فى العصر السابق .

وباستنطاق المصطلحات الخاصة بوضعية الأرض فى أواخر العصر البويهى سميوطيقيا نجدها ما بين "تمليك" و "تسويغ" و "إيغار" و "طعمه" ... الخ مما يبرهن قطعيا على وجود الصيغة الخراجية.

وبنفس الدرجة تشى ظاهرة بيع الملاك الصغار أراضيهم من جراء تعاظم الضرائب الخراجية على وجود الملكيات الخاصة ، كما تنهض ظاهرة كثرة شكاوى الفلاحين من الجبايات والمغارم دليلا على نفس الحقيقة[٣٤] . وفى نفس المنحى نفهم مغزى حبس بعض الملاكين نصابا من أراضيهم كأوقاف ينفق من ربعها على أعمال البر والخير[٣٥] . كذا تعاظم القضايا الخاصة بالتركات فى أواخر العصر البويهى[٣٦] .

تلك القرائن – وغيرها كثير – تدل دلالة واضحة على أن الإقطاع لم يسد تماما إبان العصر البويهى الأخير كما ذهب بعض الدارسين . وننوه أيضا بأن تواجده ظل هشا بعد أن جرد من عوامل قوته ؛ فقد كان كما قلنا من قبل "إقطاع استغلال" وليس "إقطاع رقبة" ، كما منح فى حالات خاصة تحت إلحاح الضرورة السياسية ، والتزم الإقطاعيون الجدد بتقديم خدمات للدولة[٣٧] أو تسليم جزء من المحصول لها عينا أو نقدا[٣٨] . ناهيك عن لجوء السلاطين الاواخر – تحت إلحاح العوز المالى – إلى مصادرة الكثير من الإقطاعات[٣٩] ؛ بما يفيد هشاشة الإقطاعية إذا – ما قيست بالملكيات الخاصة – فى العصر البويهى الأخير . خلاصة القول – أن البويهيين عموما أحدثوا تحولا ملحوظا فى سياستهم إزاء وضعية الأرض الزراعية مؤداه ضعضعة الاقطاعية لحساب تعاظم الملكيات الخاصة . وإذ نجح السلاطين الأوائل نجاحا شبه تام فى سياستهم تلك ، فقد اضطر السلاطين الآواخر – تحت ضغوط ظروف سياسية – إلى

---

٣٣ – أنظر : محمد تضعوت : المرجع السابق ، ص ٦٨ .

٣٤ – نفسه ، ص ٧١ .

٣٥ – حسن منيمنة : نشوء الإقطاع فى الإسلام ، ص ٣٠١ ، ٣٠٢ ، بمجلة الاجتهاد ، عدد ١٤ ، بيروت ١٩٩٦ .

٣٦ – آدم ميتز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، بيروت ، ١٩٦٧ ، جـ١ ، ص ٣٤٠.

٣٧ – محمد تضعوت : المرجع السابق ، ص ٦٢ .

٣٨ – نفسه ، ص ٦٣ .

٣٩ – التنوخى : الفرج بعد الشدة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، جـ١ ، ص ٣٩.

السماح بتواجد النمط الإقطاعى تواجدا هشا ؛ بما يفيد أخيرا أن النمـــط البورجـــوازى – الرأسمإلى ظل سائدا وغلابا طوال العصر البويهى .

وليس أدل على صدق مقولتنا من تبنى الدولة سياسة إصلاح فى مجـــال الزراعـــة ؛ أفضت إلى تعاظم الإنتاج ورخص أسعاره وارتفاع مستوى المعيشة بوجه عام . لقد أقـــرت الدولة نظاما جبائيا عادلا يحقق مصالح الدولة والمزارعين فى آن ، كما تبنـــت مشـــروعات عمارة الأرض وسقياها وزيادة رقعتها وفق أساليب وتقنيات مستحدثة .

نعلم أن السلاطين البويهيين دأبوا على تنظيم المؤسسات الخاصة بـــالأرض فأعـــادوا النظر فى الدواوين واستحدثوا بعضها واختاروا لإدارتها موظفين أكفاء جرت مراقبتهم مـــن قبل السلطة حرصا منها على حسن تنفيذ سياسة الإصلاح الزراعى[٤٠] . يقول أبو شـــجاع[٤١] "رفع شرف الدولة أمر المصادرات – بالنسبة للأرض الخراجية – وقطع أسبابها ، وذم طـــوق السعايات وسد أبوابها .. وانتظمت الأمور على يديه كل الانتظام ، وطالب العمال بعمـــل المصالح ، وأخذهم بإقامة العمارات" .

وقد لخص كلود كاهن[٤٢] هذه السياسة الإصلاحية بقوله : "شمل آل بويه بعنايتـــهم جميع البلدان ، وحققوا فى بلاد فارس أعمالا فى التنمية والاستثمار لم يسبق لها مثيل" .

وقد تعاظم الإصلاح فيما يتعلق بأمور السقاية والرى وفق أساليب علمية وتقنيـــات مبتكرة؛ فكان لديهم جهاز هندسى دقيق برع فى إقامة السدود وصيانتها ، وشق القنـــوات لإجراء الماء إلى المساحات المزروعة ، واستصلاح الأراضى البور . وقد تفانى معـــز الدولـــة البويهى فى الإشراف بنفسه على أمور السقاية ؛ حتى قيل بأنه باشر بنفسه سد أحد البثوق . وشيد عضد الدولة سدا عظيما على نهر الكربين شيراز وإصطخر وسقى منه ثلاثمائة قريـــة . وفى الأقاليم عديمة الأنهار ، أقيمت مشروعات لتجميع مياة الجداول والوديان المنحدرة بعـــد سقوط الأمطار لتسرى فى قنوات مغطاة أقيمت عليها الجسور وامتدت خـــلال نطاقـــات شاسعة على جانبيها وقد تطلب العمل فى تلك المشروعات وجود إدارة هندســـية معقـــدة وآلات مائية متعددة جرت الإفادة من التقدم العلمى فى علوم الرياضيات فى هذا العصـــر فى

---

٤٠ – محمود اسماعيل : سوسيولوجيا ، جـــ٢ ، ص ١٤٨ ، ١٤٩ .

٤١ – ذيل كتاب تجارب الأمم ، اكسفورد ، ١٩٢١ ، جـــ ٣ ، ص ١٣٧.

٤٢ – تاريخ العرب والشعوب الإسلامية ، ص ٢٠٨ .

صناعتها وإعدادها . كما أفردت الدولة دواوين خاصة لأمور الرى عرفت باسم "دواوين الماء" علمت على توفيره لرى رقعة زراعية فسيحة[٤٣] .

وليس أدل على شيوع شكل من أشكال النمط الرأسمالى فى الإنتاج الزراعى ؛ من مشاركة المزارعين فى هذه الأعمال ، وفى مقابل هذه المشاركة كانت الدولة تعفيهم من بعض أقساط الخراج[٤٤] .

كما أسهمت النهضة العلمية التى ازدهرت فى هذا العصر فى زيادة الإنتاج الزراعى ، من حيث ابتكار وسائل جديدة فى تسميد الأرض ؛ نتيجة تقدم علم الكيمياء . كذا إبتكلو وسائل جديدة فى استنبات محاصيل عالية الإنتاجية ولاغرو فقد ظهرت فى هذا العصر مصنفات فى "علم الفلاحة" جرت الإفادة منها فى المجال الزراعى ، وأخرى فى "علم الحيوان" ساعدت على تعاظم الإنتاج وتجويده وتحسين سلالاته ، خاصة القول - أن ازدهار الزراعة فى العصر البويهى كان نتيجة للسياسة البويهية الرشيدة التى قوضت النمط الإقطاعى فى الإنتاج ليحل محله نمط آخر يتسم بالكثير من سمات نمط الإنتاج الرأسمالى .

---

[٤٣] - محمود إسماعيل : المرجع السابق ، ص ١٥٢ ، ١٥٣ .

[٤٤] - آدم ميتز : المرجع السابق ، جـ٢ ، ص ٣٤٠ .

دور مصر فى إفريقية
من الفتح العربى حتى نهاية عصر الولاة
٢٧ - ١٨٤ هـ / ٦٤٧ - ٨٠٠ م

د./ نريمان عبد الكريم أحمد
كلية الآداب - جامعة المنوفية

لقد تهيأت مصر بما اختصت به من مزايا، أن تتبوأ دائماً مكانة متفردة بين جيرانها ، وأن تلعب دوراً إيجابياً قد تحتم عليها طوال تاريخها ولازالت ، فهى تمثل أخطر موقع إستراتيجي(١)، باعتبارها حجر الزاوية فى الثلاثية القارية ، التى يتألف منها العالم القديم ، فهى الوحيدة ، التى تلتقى فيها قارتان وتقترب منها ثالثة ، لذلك فهى تمتاز بالموقع المركزى فى قلب الدنيا القديمة (٢) ، فضلاً عن أن مصر بمثابة الشريان المحورى المطلق فى الملاحة العالمية (٣) ، وبذلك يكون موقع مصر رأسمالا طبيعيا وسياسيا ، ولولا هذا الموقع البرزخى الحيوى لكانت مصر أقل ثقلا وثراء (٤)، كما أن بيئة مصر الفيضية قد جمعت فى تناسب معقول بين حوافز النشاط وبين إمكانيات العمل ، بمعنى أن الجهد البشرى كان شرطا للتقدم (٥) ، لذلك إمتازت مصر بثرائها وغناها وكثرة خيراتها.

وقد ورد ذكر مصر فى القرآن الكريم، يؤكد ذلك قول تعالى: ((اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم)) (٦) ويقول سبحانه : ((ونادى فرعون فى قومه قال يا قوم أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون .)) (٧) كما قال تعالى على لسان يوسف علية السلام :((قال اجعلنى على خزائن الأرض أنى حفيظ عليم)) (٨) .

كما ذكرت بعض الأحاديث عن الرسول عليه الصلاة والسلام عن مصر منها : ((إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جندا كثيفا ، فذلك الجند خير أجناد الأرض ، لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة)) (٩) وقال أيضاً : ((ستفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً ، فإن لكم فيهم صهراً وذمة)) (١٠) .

وقيل أيضا فى فضائل مصر : ((من أراد أن ينظر إلى الفردوس ، فلينظر إلى أرض مصر، حين تخضر زروعها و يزهر ربيعها ، وتكسى بالنوار أشجارها وتغنى أطيارها)) (١١) وقيل أيضا:((بلد مصر خزانة الله)) وكذلك ((نعم البلد مصرا يحج

منها بدينارين ، ويغزى منها بدرهمين)) (١٢) وعلى ذلك كان أثر ثراء مصر واضحا فيما قامت به على التوالى من إرسال القمح إلى روما ثم بيزنطة ثم المدينة (١٣) .

وهذه المزايا السابقة قد جعلت مصر مؤهلة للقيام بدور ملحوظ عبرالتاريخ ففى الحقبة الإسلامية ، بدأت مصر تتحول إلى قاعدة إسلامية كبرى ، فعلى الرغم من أن الدولة الأموية كانت فى الشام إلا أن مصر كانت قاعدتها ومركز ثقلها ، فمعاوية بن أبي سفيان لم يهتم بشىء أثناء صراعه مع على بن أبي طالب قدر أهتمامه بانتزاع مصر (١٤) . ونفس الشىء حدث أيام عبد الملك ابن مروان ، فقد تقرر مصير المعركة بينه وبين عبد الله بن الزبير عندما استخلص مصر وتولاها أخوه وولى عهده عبد العزيز بن مروان ، وظلت مصر كذلك طوال العصر الأموى قلب هذه الدولة ، لأن مصر كانت بلدا مستقرا غنيا يمد الخلافة بأسباب الغنى والقوة (١٥) .

ولما كانت مصر هى المدخل الطبيعى وخط الإقتراب الحتمى إلى شمال أفريقيا (١٦) ، ولأنها ولدت إفريقية تشعر بالتزاماتها حيال القارة بوجه عام على مدار التاريخ ، حيث فرضت عليها الظروف أن تكون صاحبة النصيب الأكبر فى النهوض بشركائها (١٧) .

لذلك لعبت مصر دورا ملحوظا فى إفريقية ، بداية من الفتوحات حتى نهاية عصر الولاة، تمثل هذا الدور فيما أسهمت به مصر على الصعيد لعسكرى والسياسى ، فقد حتمت الوضعية الجغرافية لمصر وقربها من إفريقية إتخاذ مدينة الفسطاط قاعدة لإنطلاق الحملات ومركزا سياسيا هاما ، وفيما يخص الناحية الإقتصادية ، فقد اقتصرت على تقديم الأموال ، أما عن الناحية الثقافية فقد قامت مصر بدور الوسيط ، لان مدينة الفسطاط كانت تمثل معبرا ثقافيا وواسطة بين المشرق والمغرب الإسلامى .

ومن المعلوم أنه بعد إنتهاء عمرو بن العاص من فتح مصرعام٢١هـ/٦٤١-٦٤٢م، توجه إلى فتح برقة وطرابلس لتأمين حدود مصر الغربية (١٨) ، وكان طبيعيا أن يستمر الفتح فى إفريقية ، فكتب عمرو إلى الخليفة عمر بن الخطاب يستأذنه فى هذا الأمر لكن الخليفة لم يرض لسابق معرفته بظروف إفريقية المضطربة(١٩) ، وفى خلافه عثمان بن عفان،قام عبد الله بن سعد بن أبي السرح والى مصر بأرسال خيوله إلى إفريقية فى شكل سرايا تغير على أطراف البلاد (٢٠) وتقوم باستطلاع أحوالها معتمدا على جند مصر ، حتى قام بأول الغزوات الرسمية عام ٢٧ هـ / ٦٤٧ م ، والتى عرفت بغزوة العبادلة (٢١) ، وحوت هذه الغزوة إلى جانب القبائل التى تسكن مكة والمدينة كثيرا من أبناء القبائل العربية المستقرة

فى مصر من مهرة وميدعان و الأزد (٢٢) ، فضلاً عن بعض الأقباط الذين صحبوا هذا الجيش (٢٣) .

كما ضمت غزوات معاوية بن حديج الكندى بعض عشائر من جند مصر (٢٤) ، ونفس الشيء يقال عن حملة عقبة بن نافع عام ٥٠ هـ / ٦٧٠م ، والتى أشترك فيها على ما يبدو عدد كبير منهم ، فعند قدوم عقبة إلى مصر قبل غزو إفريقية قال له عبد الله بن عمر ((إياك أن تكون لعنة أرامل مصر)) (٢٥)، هذا يبين أن المشتركين فى هذه الحملة كانوا من العرب والأقباط على السواء، إذ إنه كان يطلق على العرب المقيمين فى مصر آنذاك ((أهل مصر)) .

و لم يقف الأمر عند حد إشتراك جند مصر فى الحملات المتوجهة صوب إفريقية ، بل أن مصر أو بالأحرى مدينة الفسطاط كانت بمثابة قاعدة لانطلاق الحملات ومركزاً لتلقى القوات المنسحبة إليها ، لاسيما فى الحملات الأولى،فقد رجع عبد الله بن سعد إلى مصر بعد أن أقام فى إفريقية سنة وشهرين (٢٦) ، كما أن الحملات التى قام بها معاوية بن حديج كان يعود بعدها إلى مصر(٢٧) ، وكذلك زهير بن قيس الذى عاد بعد إنسحابه من إفريقية هو وجنده إلى مصر يلتمسون الراحة فيها (٢٨) .

كذلك كان يناط بوالى مصر قيادة الحملات ، فعلى الرغم من أن جيش العبادلة قد خرج من المدينة تحت قيادة الحارث بن الحكم،فإنه بعد وصول هذا الجيش إلى الفسطاط،أصبح عبد الله بن سعد قائدا له (٢٩) باعتبار أن مصر وواليها كانا يتحملان تبعة الفتح، صحيح أن عقبة لم يكن واليا على مصر ، لكن كان عليه بعد أن تم اختياره من قبل معاوية بن أبى سفيان ليقود هذه الحملة أن يتوجه إليها . وليس معنى مرور عقبة على مصر ، هو مجرد تجاوز الحدود إلى إفريقية ، بل لأن والى مصر وقتئذ كان مسلمة بن مخلد الأنصارى الذى ولى مصر والمغرب منذ عام ٤٧ هـ / ٦٦٧م(٣٠) ، كما كان على عقبة أن يستقر بمصر بعض الوقت لإعداد هذا الجيش.

و لم يكن إشتراك جند مصر مقصورا على القتال ، بل كانوا يشاركون أحياناً فى وضع الخطط الحربية ، فتذكر المصادر (٣١) أن أحد الأقباط قد أشار على عبد الله بن سعد بأن يجعل للروم كمينا ويفرقهم حتى كان النصر للمسلمين ، وتم الإعتماد عليهم أحياناً فى تدعيم النفوذ العربى فى إفريقية فى حالة الإنسحاب ، فأغلب الظن أن معاوية بن حديج عاد إلى مصر بعد أن ترك فى طرابلس وإفريقية فرقة من جيش مصر(٣٢) ،كما كانت المراكب تخرج من مصر فى بعض الأحيان لتحمل أثقال الجيش وغنائمه (٣٣) .

وإذا كان هناك بعض الأسباب التى أثرت فى فتوحات إفريقية ومنها رفض الخليفة عمر بن الخطاب وظروف الخلافة نفسها فيما بعد ، وكذلك السياسة التى رسمتها الخلافة تجاه مناطق الأطراف والتى كانت تقوم على أن عملية الفتح تكون مسبوقة بفترة من الغارات الثغرية التى يتدرب فيها الجند على طبيعة البلاد والسكان (٣٤) فإن أحوال مصر السياسية أيضا قد شاركت فى تأخر هذه الفتوحات .

ويرى الدكتور سعد زغلول عبد الحميد (٣٥) أن هذا الأمر قد تزامن مع عمرو بن العاص معتمدا على رواية ابن عبد الحكم (٣٦) ، التى يفهم منها أن أحوال مصر الداخلية كانت تتطلب عودة عمرو سريعا ، حيث ذكر: ((فأتى عمرو كتاب المقوقس يذكر فيه أن الروم يريدون نكث العهد ، ونقض ما كان بينه وبينهم)) ويضيف مع إنه يمكن الشك فى هذه الرواية إذ أن المقوقس توفى عام٢١ هـ / ٦٤٢م ، إلا إنه لاغبار عليها من حيث الموضوع ،فقد أتت ثورة الإسكندرية وغدر الروم بالعرب بعد حوالى عامين ، لكن من المعتقد أن هذه الرواية مرتبطة بفتح برقة .

وليس هناك شك فى أن أحوال مصر المضطربة أثناء الفتنة الكبرى وما أعقبها من صراع بين على ومعاوية كان له أصداء فى فتوحات إفريقية ، لاسيما أن مصر كانت مسرحا للثورة ضد الخليفة عثمان بن عفان ، وكذلك إضطراب العثمانية فيها بزعامة معاوية بن حديج، حتى أن الفتوحات توقفت ما يقرب من ثلاثة عشر عاما (٣٧).

وإذا كان دور مصر العسكرى واضحا منذ البداية ، فهذا ليس معناه تلاشى دور الخلافة، باعتبارها المسئولة عن توجيه الحملات وتبنى سياسة الفتوحات ، فالحملات الأولى لم تخرج إلا بأمر الخلافة ، كما أنه قد تم تجهيزها بالمال والسلاح وإختيار القادة .

بيد أن أحد الدارسين (٣٨) يرى ((أنه منذ غزوة عبد الله بن سعد أصبحت الخلافة تهتم مباشرة بأمر هذه البلاد وأن سلطان والى مصر لم يعد مطلقا على الجيش الأفريقى ، ويعلل تلاشى هذا الدور بعد ذلك بأن عمرو بن العاص بعد رجوعه إلى ولايته الثانية على مصر لم يقم بأى نشاط فى بلاد المغرب)) ولمناقشة هذا الرأى لابد أن نقرر أن الفتوحات الفعلية لم تبدأ إلا مع غزوة العبادلة بمعنى أن ما قام به عمرو قبل ذلك فى برقة وطرابلس كان لتأمين حدود مصر الغربية أو بمجرد غارات استطلاعية على أطراف إفريقية قام بها عمرو ومن بعده عبد الله بن سعد ، أما فيما يخص ولاية عمرو الثانية والتى كانت عام ٣٨ - ٤٣ هـ / ٦٥٨ - ٦٦٣م ، فخلال هذه الفترة كان نشاط عمرو ملحوظا ، فأرسل فى عام ٤٠ هـ / ٦٦٠ م شريك بن سمى الغطيفى إلى لواتة (٣٩)، وتبع ذلك غزواته إلى مزاتة

وما تلاها من فتح غدامس عام ٤٢هـ / ٦٦٢ م ، وهوارة عام ٤٣ هـ / ٦٦٣ م (٤٠) . وانتهت هذه الغزوات فى العام الذى توفى فيه عمرو (٤١) .

صحيح أن هذه الغزوات كانت فى برقة و طرابلس ، لكنها تؤكد نشاط عمرو بن العاص خلال هذه الفترة ، كما أننا لا نستبعد إنه قد وجه معاوية بن حديج إلى إفريقية بأمر الخلافة خاصة أن غزوات ابن حديج فى عامى ٤٠ ، ٤١ هـ والتى يعتبرها البعض غزوة واحدة تقع فى ولاية عمرو الثانية لمصر (٤٢) .

و لم ينته هذا الدور العسكرى الذى قامت به مصر فى إفريقية حتى بعد إختطاط مدينة القيروان عام ٥٥ هـ / ٦٧٥ م ، تلك المدينة التى أصبحت قصبة بلاد المغرب والقاعدة الجديدة والدائمة للفتوحات من خلال ما قامت به من أعمال حربية داخل البلاد ، ومع ذلك فكان لابد من إستمرار دور مصر بسبب تفجر المقاومة البربرية فى إفريقية . ولأن والى مصر ظل مهيمناً على أحوال إفريقية ، فكان عليه أن يعتمد على القوة العسكرية الموجودة فى مصر .

ومع أن المصادر لم تشر إلى إشتراك جند مصر فى حملة حسان بن النعمان ، والتى أختلف المؤرخون فى تحديدها (٤٣) ، وهذا راجع إلى أن الخليفة عبد الملك بن مروان أصدر الأمر بتكليفه بالحملة ثم أمره بالبقاء فى مصر ، فمن الراجح أن حسانا اصطحب معه أعداداً منهم إلى جانب إعتماده على جند الشام (٤٤) ، كما إشترك جند مصر فى فتوحات موسى بن نصير حتى تم إنجاز الفتح (٤٥) .

وسرعان ما تفجرت ثورات الخوارج فى بلاد المغرب فى الثلث الأول من القرن الثانى الهجرى — الثامن الميلادى ، فأنضم إلى جيش كلثوم بن عياض القشيرى ثلاثون ألفا من أهل الشام ومصر(٤٦) ، لأن الخليفة هشام بن عبد الملك كتب إلى والى كل بلد ومنها مصر أن يخرج بمن معه (٤٧). وبعد الهزيمة أرتد جند مصر مع جند إفريقية إلى القيروان (٤٨) ، و لم نسمع عنهم بعد ذلك ، فلعلهم استبعدوا مثل العرب القدامى وسرحوا فيما بعد . ومع قيام الخلافة العباسية استعان الخليفة السفاح بجند مصر لتأكيد النمط المركزى للخلافة ضد عبد الرحمن بن حبيب الذى خرج على الخلافة منذ الأمويين ، فأرسل الجيوش من مصر من خلال حملة أبى عون عام ١٣٦ هـ / ٧٥٣ م ، والتى عززت بحملة بحرية وصلت إلى الإسكندرية فى نفس العام . ولكن لم يقدر لهذا العمل العسكرى أن يستكمل بسبب وفاة الخليفة (٤٩) .

أما عن الدور السياسى الذى لعبته مصر فى إفريقية ، فمن الملاحظ أنه كان مصاحبا للدور العسكرى ، ويتضح هذا الدور فى تبعية إفريقية لحكومة الفسطاط ويطالعنا

البلاذرى(٥٠) بنص يفيد هذه التبعية المبكرة ، فيذكر : ((أن الخليفة عثمان بن عفان جعل لأبن سعد ولاية مصر والمغرب)) كما يذكر النويرى (٥١) : ((أن معاوية بن أبي سفيان أقر معاوية بن حديج على إفريقية وأفردها عن مصر)) . ويضيف الدكتور حسين مؤنس (٥٢) : ((أن معاوية أراد بعد وفاة عمرو إسترداد الحق الذى كسبه فى ولاية إفريقية واعتبرها ولاية قائمة بذاتها يولى من عنده واليا تكون صلته به مباشرة)) .

وبالنسبة لرواية البلاذرى . فحتى خلافة عثمان بن عفان ، لم يكن هناك كيان إسلامى فى إفريقية ، لأنها كانت مرحلة فتوحات لم تستقر بها الجيوش العربية بعد ، لذلك من المقبول أن الخليفة قد عهد لأبن سعد بقيادة الحملات ، ومعنى ذلك أن التبعية كانت مجرد تبعية عسكرية ، لأن الفسطاط كانت حتى ذلك الوقت قاعدة عسكرية لانطلاق السرايا والغارات على أطراف إفريقية ، وحتى بعد خروج غزوة العبادلة ظلت الفسطاط تلعب نفس الدور .

وفيما يخص رواية النويرى ، فهل يعنى أفراد إفريقية عن مصر إنها كانت تابعة لمصر ثم رفعت تبعيتها ؟، لا نستطيع أن نؤكد ذلك ، لأن مسألة إنشاء ولاية فى إفريقية لم تكن قد طرحت بعد(٥٣) وإذا كان معاوية قد أراد أن يكافىء أحد أنصاره وهو ابن حديج ويوليه على إفريقية ، فعمرو أيضا كان له الفضل فى وصول معاوية إلى الخلافة كما أن معاوية لم يستطع أن يحافظ على مصر من أتباع على بن أبي طالب إلا بوجود عمرو فى مصر ، وكذلك كيف تكون إفريقية ولاية قائمة بذاتها مستقلة بعد تولية ابن حديج فمعنى ذلك أنها لم تكن تابعة لمصر إلا فى فترة قصيرة أنتهت بهذه التولية .

لكن إفريقية لم تكن ولاية بالمعنى المفهوم ، فعلى الرغم من أن معظم المؤرخين (٥٤) قد ذكروا فى أحايين كثيرة أشارات تؤكد بروز الولاية منذ عقبة وحتى قبله ، ومنها، ((أن مسلمة بن مخلد عزل عقبة ، وهو يؤمئذ والى البلد من قبل معاوية)) ، وكذلك عندما قدم عقبة على معاوية يشكو له ، فقال له معاوية : ((رددتك إلى عملك)) وكثيرا ما يصادفنا ولاية عقبة الأولى والثانية ، لكننا لا نستطيع أن نجزم بأن إفريقية أصبحت ولاية قائمة بذاتها ، لأن المؤرخين قد سجلوا هذه الأحداث فى فترة متأخرة ، و لم تعنيهم هذه القضية ، لأنها كانت قد استقرت ، فجاءت هذه التعابير على النحو الذى أسلفناه ، ومما يبين عدم بروز الولاية حتى عقبة ما ذكره ابن عبد الحكم (٥٥) : ((أن عقبة عندما قدم إلى مصر قال أن أمير المؤمنين يريد العقد لى على جيش إفريقية)) .

وفى الواقع برزت إفريقية كولاية منذ مسلمة بن مخلد الذى يعتبر أول من جمعت له مصر والمغرب عام ٤٧ هـ / ٦٦٧ م (٥٦) وإن كان هذا فى إطار تبعيتها للفسطاط

والتى استمرت على الرغم من اختطاط مدينة القيروان ، التى مثلت السيادة العربية فى إفريقيـة وكذلك بعد إنشاء دار الأمارة ، فإن هذه التبعية قد استمرت لأن إفريقية حتى هـــذا الحـــين كانت قد ولدت بكيانها الإدارى فقط .

وقد اتضحت علاقة مصر بأفريقية من خلال التبعية السياسية فى إقـــدام والى مصـــر مسلمة بن مخلد على عزل عقبة بن نافع بعد نجاحه فى التوغل فى إفريقية وإحراز إنتصـــارات على البـــيزنطيين وإختطاط مدينة القيروان . ومهما قيل فى أسباب عزل عقبة مـــن حيـــث خطته العسكرية أثناء فتوحاته والمجازر التى قام بها وموقفة من زعماء البربر وعـــدم محاولتـــه كسبهم ، كما فعل أبو المهاجر دينار من بعده ، والذى سار على سياسة مغايرة لسياسة عقبة (٥٧) ، وكذلك سياسة التشدد التى أتبعها فى سبيل نشر الإســـلام والـــتي جعلـــت الإمبراطورية البيزنطية تصدر أوامرها بمنع الاضطهاد الدينى بأفريقية حتى توجد جـــــبهة مضادة للمسلمين (٥٨) ، فكان لابد من عزل عقبة لإحداث نوع من التوازن في البــــلاد ، فضلا عما قيل بشأن خوف معاوية بن أبي سفيان من محاولة عقبـــة الاســـتقلال بإفريقيـــة ، وقد أدرك ذلك قبلا في مطامع عمرو بن العاص في مصر (٥٩) . أو لأسباب شخصية ترجـع إلى مسلمة الذي أراد أن يكافئ أحد مواليه على إخلاصه (٦٠) .

ومع ذلك يظل هذا العزل أمرا يخص مسلمة وحده الذى طمع فى غنائم إفريقيـــة وأراد أن تكون لولايته من خلال تعيين أحد مواليه ، كما يظل هذا العزل دليلا على هيمنة مصـــر وحكومة الفسطاط على مقدرات إفريقية السياسية ، وحسبنا دليلا على ذلك عدم اهتمـــام الخلافة بعزل عقبة عندما قدم على معاوية شاكيا ، وأن وعده برده إلى إفريقية ، وذلك بسبب ثقل وطأة والى مصر بإعتباره واحدا من الشخصيات البارزة فى الدولة الأموية ، فهو من كبار العثمانية ومن أنصار البيت الأموى ، الذين ساعدوا معاوية على الوصول إلى الخلافـة (٦١) . لهذا لم يكن فى مقدور معاوية أن يرد عقبة ، كما أنه ليس معقولا أن يزيد قد رده إلى إفريقيـة وقطعها عن مصر، لكن رد عقبة تم بعد وفاة مسلمة بن مخلد عام ٦٢ هـــ / ٦٨٢ م (٦٢) . ومما يدل أيضا على هذه التبعية أن أبا المهاجر بعد توليه على إفريقية وجه بالخمس مباشرة إلى مصر (٦٣) .

أما الحالة الثانية التى توضح علاقة إفريقية بحكومة الفسطاط فى إطار التبعية ، تتمثل فى عزل حسان بن النعمان ايضا عن إفريقية من قبل والى مصر عبد العزيز بن مروان عـــام ٨٣ هـــ / ٧٠٢م(٦٤) ، على الرغم من قيام حسان بدور ملحوظ فى البلاد من حيـــث صـــد المقاومة البربرية التى تزعمتها الكاهنة وإشراك البربر بشكل فعلى فى الجيش (٦٥) ، والتسوية

بينهم فى تقسيم الأرض والفيء (٦٦) ، فضلا عن اهتمام حسان بعمران المدينة ،فقام بتحديد مسجدها الجامع(٦٧) ، ودون الدواوين وصالح البربر على الخراج (٦٨) .

ومع ذلك فقد تم عزله ، وتولية موسى بن نصير بسبب طمع والى مصر أيضا فى غنيمة إفريقية، كما يذكر المؤرخون (٦٩) ، فى حين أن السبب المباشر لهذا العزل يكمن فى مشكلة برقـــة ، لأن الخليفة عبد الملك بن مروان أعطاها لحسان مكافأة له ، فلما بلغ عبـــد العزيـــز ذلك حاول مع حسان أن يتركها لأنها كانت تابعة لمصر ، وأدى رفض حسان إلى قيام عبـــد العزيز بتمزيق العهد الذى كتبه الخليفة (٧٠) .

ومن الواضح أن هذا العزل قد إعتمد أساسا على قوة والى مصر،فهو كان أخا للخليفة عبـــد الملك ابن مروان وولى عهده (٧١) ، ومع أن الخليفة قد كره هذا الأمر منذ البداية وأنكـــره ، لكن سرعان ما وافق عليه ، ويتضح ذلك من خلال المراسلات التى تبودلت بينـــهما (٧٢) ، وذلك بسبب ما كان بين الأخوين فيما يخص موضوع الخلافة ، فحاول عبد الملك أن يجعـــل عبد العزيز يتنازل عن حقه فى الخلافة أراديا ، لذلك فقد جامله على الصعيد المغربى كنوع من التعويض (٧٣) ، والدليل على ذلك أنه أنكر ما فعله عبد العزيز وهم بعزل موسى لسوء رأيه فيه لكن رأى ألا يرد صنيع عبد العزيز.وتأكدت هذه التبعية أيضا فى إرسال موسى بن نصير بأخبار الفتح والغنائم إلى مصر (٧٤).وتتبين مما سبق أن مصر قد أستطاعت أن تلعـــب دورا سياسيا هاما فى إفريقية من خلال واليـــين لهما وزن فى الخلافة ، قد استطاعا أن يســـتصدرا اوامرهما بالعزل والتعيين بعيدا عن الخلافة وقد اطمئنا إلى أن الخلافة لم تستطع رد ما قاما به ، بسبب منـــزلتهما الكبيرة ، ومن اللافت للنظر أن الحادثتين قد تشابهتا إلى حد كبير من حيث أن كلا من عقبة وحسان قد قاما بدور هام فى الفتح ويأتى عزلهما فى فترة تألقهما وتركـــهما لعلامات بارزة فى البلاد وأن يحل محلهما فى كل مرة مولى تابع لوالى مصر ، وهـــذا ينبـــهنا إلى خوف والى مصر من إستحواذ عقبة ومن بعده حسان على إفريقية وهما مـــن أســـرتين عربيتين معروفتين خاصة أن إفريقية بعيدة عن أيدى الخلافة .

وإذا كان هذا الدور الذى لعبه كل من مسلمة وعبد العزيز يرجع إلى ثقل شـــخصية كل منهما بسبب ارتباطهما بالخلافة ، فهذا ربما لا يجعل دور مصر واضحا لكن إذا وضعنـــا فى الاعتبار أن هذين الواليين أو غيرهما مما تمتع بمكانة مميزة فى الخلافة ، فكان لابد أن يتـــولى ولاية مصر باعتبار أنها واحدة من أهم ولايات الخلافة حتى أن عمرو بن العاص قـــال : ((أن ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة(٧٥))) .

ويرى أحد الدارسين (٧٦) ((أن طمع عمال مصر فى ولاية المغرب أدى إلى وجود نزاع بينهم وبين الخلفاء ، وهذا الصراع أدى إلى تأخر شخصية المغرب الكاملة وأخذ صفة الولاية المستقلة ، فظلت تابعة للخلافة رسميا خاصة بعمال مصر،وحرصت الخلافة على استرداد حكم المغرب من يد عمال مصر))، ويضيف ((أنها كانت قائمة بذاتها من أول الأمر لكن ولاة الفسطاط نازعوا الخلافة فيها)) .

بداية لا نستطيع أن ننكر طمع ولاة مصر فى السيطرة على إفريقية وبلاد المغرب بشكل عام . وإن كان بذلك ينفى تبعيتها لحكومة الفسطاط ، كما أن ولاة مصر لم يكونوا من وراء تأخر استقلال إفريقية بشئونها ، لأن ما حدث لها قد تأثر أساسا بأحوالها المضطربة وساعد على إستمرار تبعيتها للفسطاط ، فقد تفجرت المقاومة البربرية مع عقبة ثم حسان ، حتى أن القيروان تم احتلالها فى المرتين ، فقد استطاع كسيلة أن يدخل القيروان بعد مقتل عقبة فى تهودة عام٦٩هـ/٦٨٨م واستقر بها لمدة خمس سنوات (٧٧) ، وهى نفس الفترة التى احتلت فيها الكاهنة القيروان وكل إفريقية بعد هزيمتها لحسان بن النعمان (٧٨) ، معنى ذلك إنه لا يمكن أن تظهر شخصية إفريقية المستقلة إلا بعد إنجاز الفتح ، الذى تم مع موسى بن نصير ليبدأ بعده عصرا جديدا اصطلح على تسميته بـ ((عصر الولاة)) .

أما فيما يذكره من صراع بين الخلافة وولاة مصر حول إفريقية، فلم يكن صراعا بالمعنى المفهوم ، إنما كان حرصا من الخلافة من أجل الحفاظ على إفريقية ، لذلك كانت تصدر أوامرها إلى قادة الفتح ، فقامت بتكليف عبد الله بن سعد ومعاوية بن حديج كما إختارت عقبة بن نافع ليستأنف الفتح وزهير بن قيس البلوى لاستنقاذ إفريقية من أيدى البربر وحسان من بعده ، وكان لا يمنع الخلافة من التدخل الفعلى فى شئون إفريقية فى بعض الأحيان إلا ما كان بينها وبين والى مصر من قرب ومصالح ، لذلك أجهضت محاولات كل من عقبة وحسان من بعده فى الإتصال بالخلافة .

وقد تزامن ظهور شخصية إفريقية المستقلة بعد وفاة والى مصر عبد العزيز بن مروان عام ٨٥ هـ / ٧٠٤ م ، حتى أن موسى بن نصير لم يعبأ بوالى مصر الجديد وهو عبد الله بن عبد الملك ، وبدأ يرسل الرسائل بأخبار الفتح والغنائم والخمس إلى دمشق رأسا (٧٩)، ثم قام الخليفة الوليد بن عبد الملك بإفراد إفريقية عن مصر (٨٠) وبذلك أصبحت إفريقية تأخذ وضع الولاية الراشدة تتمتع بكافة الحقوق مثل الولايات الأخرى ومنها مصر ، وتلحق بالخلافة مباشرة (٨١) . ويعتبر البعض(٨٢) أنه بداية

من عام ٩٣ هـ / ٧١١ م أصبح المغرب بصفة عامة ونظريا ولاية فى الدولة العربية الإسلامية ، تقدم الجند والعبيد وتدفع الخراج و الجزية لخزانة الخلافة .

ولنا أن نقرر أن هذه التبعية السياسية لحكومة الفسطاط والتى استمرت فترة ليست بالقصيرة ، قد ارتبطت باعتماد الخلافة على مصر فى عملية الفتح إلى جانب شخصية ولاة مصر أنفسهم وظروف إفريقية المضطربة .

ومع أن إفريقية قد أخذت وضع الولاية الراشدة ، فكان جل اعتماد الخلافة الأموية ومن بعدها العباسية على ولاة سابقين لمصر لأخماد ثورات الخوارج ، أمثال حنظلة بن صفوان ومحمد بن الأشعث الخزاعى ويزيد بن حاتم ، تم توليتهم على ولاية إفريقية ، بسبب أن هؤلاء كانوا على معرفة تامة بأحوال إفريقية ،وأخيرا كان إعتماد الخلافة العباسية على هرثمة بن أعين ، الذى ترك مصر وتولى إفريقية عام ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م ، ليقضى على فتن الجند التى استشرت فى البلاد حتى نهاية عصر الولاة (٨٣) .

وأرتبط دور مصر فى إفريقية أيضا بالمشاركة المالية التى قامت بها منذ بداية الفتوحات ، فمن المعلوم أن مصر كانت تقوم بتجهيز الجند الخارجين إلى إفريقية بالمؤن والعتاد إلى جانب ما كانت تقدمه الخلافة (٨٤) ، ومع تقدم الفتح بدأت مصر تتحمل العبء الأكبر فى إعداد هذه الحملات ، فيذكر المؤرخون ، أنه بعد مقتل عقبة بن نافع ، ووقوع القيروان فى أيدى البربر ، قامت مصر بتقديم الأموال إلى إفريقية ، وقد أوردوا بصدد ذلك تعابير مختلفة من خلال أوامر الخليفة عبد الملك بن مروان منها أمره إلى زهير بن قيس : ((أفرغ عليهم أموال مصر)) (٨٥) وأمره إلى حسان بن النعمان : ((أنى أطلقت يدك في أموال مصر ، فأعط من معك ومن ورد عليك واخرج إلى بلاد إفريقية)) (٨٦) ، ثم تكرر الأمر مع الخليفة الوليد بن عبد الملك ، الذى كتب إلى والى مصر قرة بن شريك ٩٠-٩٦ هـ / ٧٠٨-٧١٤ م : ((بأن يعطى موسى بن نصير من مال مصر ما أراد)) (٨٧) .

وهذه التعابير تدل أولا:على كثرة ما كان موجودا فى خزانة مصر من أموال آنذاك ، وثانيا: الاعتماد الكبير على هذه الأموال لإتمام الفتح فى إفريقية حتى أننا نتصور أن هذه الأموال لم تكن محددة القيمة فى البداية . وثالثا : أن هذه الحرية فى الحصول على الأموال من خزانة مصر ، تجعلنا نقف على حقيقة أخرى لابد من مناقشتها من خلال ما ذكره المؤرخون(٨٨) ، فيما يخص طمع ولاة مصر فى غنائم إفريقية ، خاصة عبد العزيز بن مروان ، الذى أرسل إلى حسان بن النعمان أربعين رجلا حملوا ما عنده وأمره بالقدوم عليه ، فعلم حسان ما أراده عبد العزيز ، فخبأ ما معه من الجواهر والذهب والفضة فى قرب الماء ،

ولما قدم عليه فى مصر ، قام عبد العزيز بسلب جميع ما معه من الخيل والأحمال والأمتعة والوصائف . وعلى ما يبدو أن ولاة مصر كانوا مدفوعين لذلك ليس فقط بسبب الطمع ، لكن أيضا كان ذلك بمثابة تعويض عما أنفقته مصر وبدون حساب خاصة أن هذه الأوامر الصادرة من الخلافة بفتح خزانة مصر لصالح إفريقية تزامن بعضها مع ولاية عبد العزيز بن مروان على وجه الخصوص .

ثم أخذت مصر فى تقديم هذه الأموال إلى إفريقية بشكل منتظم ، وتمثلت فى الإعانة السنوية التى بلغت مائة ألف دينار (٨٩) . ولا نستطيع أن نحدد بداية هذه الإعانة بالضبط ، فلعل مصر بدأت فى تقديمها خلال ثورات الخوارج ، لأن ولاة إفريقية كانوا قد حصلوا على مغانم الذهب والفضة بعد إنجاز الفتح ، لكن السياسة المالية الجائرة ، التى أتبعها الولاة أدت إلى تفجر هذه الثورات ، لذلك كان لابد من تقديم الأموال لولاية إفريقية بشكل منتظم ، خاصة أن هذه الثورات إستمرت ما يقرب من نصف قرن ، وبعد فترة قصيرة اندلعت فتن الجند، فكان لابد من إستمرار هذه الإعانة ، حتى نهاية عصر الولاة١٨٤هـ/٨٠٠م .

لكننا لم نقف على حقيقة هذه الإعانة ومقدارها إلا بعد انتهاء عصر الولاة ، وقيام دولة الأغالبة ، ومن خلال قيام إبراهيم بن الأغلب ، بالتنازل عن تلك الإعانة التى تقدمها مصر(٩٠) ، ولعلها قد استمرت فترة من حكم الاغالبة ، فيبدو أن ابن الأغلب لم يستطع أن يفى بالتزاماته تجاه الخلافة بسبب قيام الجند بالثورات ومطالبتهم بأرزاقهم ، فيذكر البلاذرى(٩١): ((فلم يلبثوا أن أتاهم العراض والمعطون ومعهم خراج مصر)) ويفهم من هذه الرواية أن هذا الجزء كان يقتطع من خراج مصر ، فهل كان يقتطع من خراجها الذى كان يوجه إلى الخلافة أو أن هذه الأموال كانت ترسل من خزانة مصر بعد الوفاء بالتزاماتها تجاه الخلافة ؟ .

وعلى ما يبدو أن الأمرين محتملان على اعتبار أن تنازل إبراهيم بن الأغلب عن هذه الأعانة مقابل الحصول على الولاية يجعلنا نعتقد أن هذه الأموال كانت تقتطع من حصة الخلافة من خراج مصر ، كما أن تحمل خزانة مصر لهذه الأموال يعد أيضا أمرا مقبولا ، بسبب ما قامت به مصر قبلا من تقديم المساعدات المتوالية إلى إفريقية .

وبذلك يظل إستمرار المشاركة المالية حتى بعد إنتهاء عصر الولاة ، وقيام دولة تابعة للخلافة دليلا على إثبات دور مصر وقدرتها المالية و ارتباط هذا الدور بطبيعة الأحداث المتلاحقة فى إفريقية من حروب فتح وثورات خوارج وفتن جند .

وأسهمت مصر أيضا فى إنشاء أول قاعدة بحرية فى إفريقية ، وذلك بسبب الظروف السياسية التى طرأت على البحر المتوسط بعد إنتقال الإمبراطور البيزنطى قنسطانز الثانى إلى صقلية و اتخاذ سرقوسة عاصمة له للحفاظ على ممتلكاته فى إفريقية (٩٢) ، خاصة وأن هذه القاعدة قد عرقلت الفتوحات ، كما أدى فقدان العرب لقوة بحرية فى البداية إلى ترك المدن والحصون للبيزنطيين على الساحل (٩٣) . وما كان من نكبة عقبة بن نافع فى تهودة إلا بسبب إغفاله القوة البحرية ، وكان انسحاب زهير بن قيس بعد نجاحه فى استعادة مدينة القيروان من كسيلة ، بسبب نزول حملة بحرية بيزنطية ، وكذلك كانت إستعانة حسان بن النعمان ببعض القطع البحرية الإسلامية أثر فى سقوط قرطاجنة .

لذلك كان اتخاذ قاعدة بحرية فى إفريقية أمرا محتوما ، و لم يأت مصادفة ، وعلى ذلك أمر الخليفة عبد الملك بن مروان أخاه عبد العزيز بإرسال ألف قبطى بأهله وولده إلى إفريقية لإنشاء دار صناعة بها(٩٦) ،وكان دور هؤلاء الأقباط واضحا فى إنشاء أسطول إفريقية لسابق معرفتهم وخبرتهم فى هذا المجال ، فكانت مصر مركزا هاما لبناء السفن فى العصر الأموى ، وسبق أن إستخدم معاوية الأقباط فى بناء الأسطول السورى فى عكا (٩٧) ، وكانت مهمة الأقباط فى إفريقية مزدوجة ، فكان عليهم حفر الميناء وبناء السفن ، فتم حفر ميناء تونس بحفر قناة إلى الداخل إثنى عشر ميلا (٩٨) ، لذلك يعد هذا الميناء ميناء داخليا، ويمثل قاعدة أمينة من خطر البيزنطيين(٩٩) ،كما كان يشارك بعض الملاحين المصريين فى أسطول إفريقية فى بعض الأحيان(١٠٠) .

وإذا كان ميناء تونس قد أنشىء بفضل الأقباط ، فمدينة القيروان منذ إختطاطها قد تأثرت بالعرب الوافدين عليها منذ بداية الفتح ، فعلى ما يبدو أن أهل القيروان قد بنوا دورهم على غرار منازل الفسطاط من حيث الموقع والطراز(١٠١) ؛ لأن القبائل التى أتت إلى إفريقية منذ البداية كانت معظمها من عرب مصر ، وربما إستمر هذا التأثير بسبب مجىء الأقباط ، الذين أتوا بأسرهم إلى إفريقية منذ حسان بن النعمان وإستقروا فى تونس وعمروها(١٠٢) ، إلى جانب التابعين الذين توالوا عليها طوال العصر الأموى من مصر واستوطنوا القيروان (١٠٣) ، وإن كان دور هؤلاء ليس واضحا بسبب غلبة أهل الشام وأهل خراسان الذين توافدوا على أفريقية بشكل كبير خلال العصر الأموى والعباسى (١٠٤) .

ومن الملاحظ أن العلاقة بين أهل إفريقية وأهل مصر من العرب ، الذين أتوا عليها لم تكن علاقة تعال ، فلم يأنف منهم أهل إفريقية ،كما أنفوا من أهل الشام،وسبب ذلك أن هؤلاء الجند الوافدين كانوا من العرب اليمنية مثل العرب المستقرين فى إفريقية (١٠٥) ،

بدليل إنه بعد هزيمة العرب فى بقدورة أمام الخوارج الصفرية عام ١٢٣ هـ / ٧٤١ م ، سار أهل إفريقية ومعهم أهل مصر فى ناحية وأهل الشام فى ناحية (١٠٦) .

أما عن الدور الثقافى ، الذى لعبته مصر فى إفريقية ، فقد اتضح منذ البداية مع الجند الوافدين مع الحملات ، ثم تلتها مرحلة أخرى أكثر وضوحاً بعد إختطاط مدينة القيروان وما أعقبها من إنجاز الفتح ودخول البربر فى الإسلام ، الذى كان يتطلب تعليمهم أمور الدين ، ولم يكن ذلك إلا من خلال معلمين عرب ، وهؤلاء كانوا من الشرق وبصفة خاصة من مصر(١٠٧) ، فقد شملت بعثة العشرة التابعين التى أرسلها الخليفة عمر بن عبد العزيز لتفقيه أهل إفريقية فى الدين عدداً منهم أمثال بكر بن سوادة الجذامى وسعيد بن مسعود التجيبى وحبان بن جبلة (١٠٨) ، وقد سكنوا مدينة القيروان ، وروى عنهم الكثيرون من أهلها (١٠٩) .

ولقد كان تأثير مدرسة الفسطاط الثقافى من خلال عدة محاور ،فلم يقتصر على الشكل الرسمى من قبل الخلافة ، بل تعداه إلى دور الأفراد باعتبار أن مدينة الفسطاط كانت تمثل فى العصر العباسى القاعدة القريبة التى يستطيع أهل إفريقية من خلالها الإطلاع على علوم المشرق ، وكذلك لأنها تعتبر أيضاً المجال الذى يجتازه أهل إفريقية فيما عرف وقتذاك بـ ((الرحلة فى طلب العلم)) فكان لابد من الوقوف بالفسطاط أثناء رحلتهم إلى المشرق بعض الوقت ، يأخذون من رجالها الأحاديث وأساليب الرد على المشاكل التى تعرض لهم ، لاسيما أن مدرسة الفسطاط قد اشتهرت بكثير من فقهاء المالكية أمثال الليث بن سعد (١١٠) ، وعبد الله بن لهيعة (١١١) ، وعبد الله بن وهب (١١٢) حتى أن كثيرا من فقهاء إفريقية المشهورين أمثال عبد الرحمن بن أنعم و على بن زياد التونسى والبهلول بن راشد كان لهم سماع من هؤلاء الفقهاء (١١٣) ، الذين كان لهم منزلة رفيعة عند أهل إفريقية (١١٤) .

كذلك أنتقل بعض المحدثين من أهل مصر وفقهائها إلى إفريقية واستقروا ببعض مدنها مثل القيروان وتونس وسمع منهم الكثيرون (١١٥) ، ومنهم زيد بن بشر الذى استوطن مدينة تونس ، وكان يفد إليه الناس من القيروان ليسمعوا له(١١٦)، كما روى أهل إفريقية الحديث عن فقهاء مصر ، بالإضافة إلى إنتشار كتب الفقهاء المصريين فى إفريقية أمثال كتب عبد الله بن وهب

ومنها ((كتاب الأهوال)) (١١٧) ((وكتاب الزهد)) لعلى بن زياد الحمصى (١١٨).

لكن بالنسبه لعلوم اللغة ، فلم نستطع أن نقف على دور مدرسة الفسطاط وذلك لأن مدرستى الكوفة والبصرة قد لعبتا دورا واضحاً فى هذا المجال ، مع بقاء دور مدرسة الفسطاط كواسطة بين المشرق والمغرب الإسلامى .

ومع أن الدور الثقافي لمصر في إفريقية خلال هذه الفترة لم يتبلور بشكل واضح، لأن المجتمع الإفريقوى كان لايزال جنيناً؛ فإن القيروان كمركز من مراكز الحضارة الإسلامية فيما بعد قد ولدت فى الفسطاط كما أنها قامت على أصول مصرية(١١٩) .

صفوة القول ، أن الدور الذى لعبته مصر فى إفريقية بداية من الفتح إلى نهاية عصر الولاة ، رغم تعدده ، إلا أنه كان فى الغالب يمثل الجانب الرسمى من خلال الإعتماد على مصر وولاتها فأصدرت الخلافة الأوامر المتتالية ليخرج أهل مصر من عرب وأقباط لتنفيذ هذه الأوامر .

الهوامش

(١) جمال حمدان،شخصية مصر ، دراسة فى عبقرية المكان ، الجزء الثانى،القـاهرة١٩٨١،ص ٧٨٧ .

(٢) نفسه ، ص ٧٨٤ .

(٣) نفسه ، ص ٧٨٥ وذلك بسبب ارتباطها بالمحيط الأطلسى - البحر المتوسط - البحر الأحمـر والمحيط الهندى .

(٤) نفسه ، ص ٧٨٨ .

(٥) نفسه ، ص ٤٥١ .

(٦) سورة البقرة ، آيه ٦١ .

(٧) سورة الزخرف ، آيه ٥١ .

(٨) سورة يوسف ، آيه ٥٥ .

(٩) الكندى ، فضائل مصر ، القاهرة ١٩٧١ ، ص ٢٧ .

(١٠) نفسه ، ص ٢٦ .

(١١) نفسه ، ص ٥٧ .

(١٢) نفسه ، ص ٤٦ .

(١٣) سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص ٥٨ .

(١٤) حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، الطبعة الرابعة، مزيدة و منقحة القـاهرة ١٩٧٣،ص١١٣ .

أرسل معاوية عمرو بن العاص فى بداية عام ٣٨ هـ / ٦٥٨م ، ليخضع مصر التى كانت تمـدد وجوده فى الشام ، لكثرة أتباع على بن أبى طـالب فيها أنظر ، ابـن الأثـير ، الكـامل ، القاهرة ١٩٨٣ ، جـ ٣ ، ص ١٣٨ . و مع فتنة عبد الله بن الزبير بعد خروج مصر عن طاعته ، لم تقف مصر على الحياد فى النـزاع الذى كان بينه وبين الخلافة . بل أرسل عبد العزيـز بـن مروان فى عام ٧٢ هـ / ٦٩١ م حمله إلى مكة لقتال ابن الزبير . انظـر . الكنـدى ، الـولاة والقضاة ، بيروت ١٩٠٨ ، ٥١.

(١٥) المرجع السابق ، ص ١١٤ .

(١٦) جمال حمدان ، شخصية مصر ، جـ٢ ، ص ٧٨٤ .

(١٧) حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، ص ٣٩ ، ٤٠ .

(١٨) كانت مدينتا برقة وطرابلس تمثلان ولاية واحدة تابعـة لمصـر منـذ أيـام الإمـبراطور البيزنطىموريس ثم تم انفصالها عن مصر وظلتا حتى الفتح العربي مستقلتين وقامتا بثورات متتاليـة ضد الحكم البيزنطى وظهر فيها دويلات مستقلة متمثلة فى القبائل الموجودة بها من لواتة وهـوارة ونفوسة .

انظر، Fournel, *les Berbres*, Paris, 1895, I, pp, 217-218

(١٩) قال عمر بن الخطاب : " إنها ليست بإفريقية ولكنها المفرقة غادره مغدور بها لا يقربها أحد ما بقيت " انظر البلاذرى ، فتوح البلدان ، القاهرة ١٩٣٢ ، ٢١٠ .
(٢٠) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، القاهرة ١٩٩٥ ، ص ٢١٠ .
(٢١) عرفت بذلك لاشتراك عدد من أبناء الصحابة تسموا بذلك ومنهم عبد الرحمن ابن أبي بكر وعبد الله بن عمرو وعبد اللة بن الزبير.انظر، ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار المغرب ، ليدن ١٩٤٨ ، ١ ، ص ٩ .
(٢٢) المصدر السابق ، ٢١١ .
(٢٣) المالكى،رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية،القاهرة١٩٥١،جـ ١، ص١١.
(٢٤) النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، القاهرة ١٩٨٣ ، جـ ٢٤ ، ص١٩.
(٢٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٧ .
(٢٦) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٣ .
(٢٧) البلاذرى ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .
(٢٨) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ٢٣٠ .
(٢٩) نفس المصدر ، ٢١٠ .
(٣٠) نفس المصدر ، ص ٢٢٤ .
(٣١) المالكى ، رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ١٥ .
(٣٢) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ، ص ٣٣١ .
(٣٣) نفس المصدر .
(٣٤) حسن أحمد محمود ،الإسلام والحضارة العربية فى أسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ١٧٧ - ١٧٨ .
(٣٥) تاريخ المغرب العربى، القاهرة ١٩٦٥ ، ص ١٦٥ .
(٣٦) فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٠٠ .
(٣٧) الحبيب الجنحانى ، القيروان عبر عصور إزدهار الحضارة الإسلامية فى المغرب العربى ، تونس ١٩٦٨ ، ص ٣٢ .
(٣٨) المرجع السابق ، ١٢١ .
(٣٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٣ ، ص ٤٢ .
(٤٠) الكندى ، الولاة و القضاة ، ص ٣٢ .
(٤١) المصدر السابق .
(٤٢) سعد زغلول عبد الحميد . تاريخ المغرب ، ص ١٢٣ - ١٢٤ .
(٤٣) يذكر المؤرخون تواريخ مختلفة بالنسبة لحملة حسان بن النعمان ما بين تسع وستين وثمان وسبعين انظر، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٨٨ ، ابن أبي دينار ، المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس ، تونس ١٩٦٧ ، ص ٧٣ .
(٤٤) نفس المصدر .
(٤٥) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، القاهرة ١٩٦٠ ، جـ ٢ ، ص ٥٧ .
(٤٦) ابن القوطية ، تاريخ إفتتاح الأندلس ، بيروت ١٩٨٢ ، ص٤١ .

(٤٧) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، تونس ١٩٦٨ ، ص ١١٢ .

(٤٨) نفس المصدر ، ١١٣.

(٤٩) الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ١٠٢ - ١٠٣ ؛ سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغـرب ، ص ٢٩٤ .

(٥٠) فتوح البلدان ، ص ٢٢٧ .

(٥١) نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ، ص ٢١ .

(٥٢) فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١١١ .

(٥٣)انظر، Hicham Djait, "La wilaya d Afiqiya au IIe -VIIIe siècles. etude institationnelle", *Studio Islamica* , tome .II ,1967 , p .70 .

(٥٤) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ١٩ .

(٥٥) فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٥ .

(٥٦) ابن تغرى بردى ،النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة،القاهرة ١٩٦٣،جـ ١،ص١٣٣.

(٥٧) Julien ,*Histoire de l'Afrique du nord jusqu'à la conquête arabe* , Paris , 1951 . p . 16.

(٥٨) Marçais, G, *La Berberie Musulmane et orient au moyen âge*, Paris .1946 p . 38.

(٥٩) سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .

(٦٠) Terrasse, Henri, *Histoire du Moroc des origines à l' établissement du Protectorat Français*, Paris, 1975, p . 80.

(٦١) ابن عبد الحكم ، المصدر السابق ، ص ٢٥ " ثم قدم عقبة على معاويـــة بـــن أبى ســـفيان فقال له " فتحت البلاد وبنيت المنازل ومسجد الجماعة ودانت لى ،ثم أرسلت عبد الأنصار فأســاء عزلى ، فاعتذر إليه معاوية وقال :عرفت مكان مسلمة من الإمام المظلوم وتقديمه إياه وقيامـــة بنفسه وبذل مهجته " .

(٦٢) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ١ ، ص ١٣٤ .

(٦٣) المالكى ، رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٠ .

(٦٤) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٧١ .

(٦٥) النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٤ ،ص ٢١. قد بدأ إشتراك البربر مع عقبة بن نـــافع وأبى المهاجر دينار ، لكنهم لم يدخلوا بشكل فعلى فى الجيش الإسلامى إلا مع حسان بـــن النعمـــان ، الذى جند من أبنائهم أثنى عشر ألفا وعقد لولدى الكاهنة كل واحد على ستة آلاف فارس .

(٦٦) المالكى ، رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٣٦ .

(٦٧) البكرى ، المغرب فى ذكر بلاد إفريقيـــة والمغـــرب ، بـــاريس ١٩١١،ص٢٢؛ مجـــهول ، الاستبصار فى عجائب الأمصار ، بغداد ١٩٨٦ ، ص ١١٤.

(٦٨) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ص ٦٤ .

(٦٩) نفس المصدر ، ص ٦٦ .

(٧٠) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ ٢ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

(٧١) عين عبد العزيز بن مروان واليا على مصر من قبل أبيه مروان بن الحكم وخلفا لأخيه عبد الملك فى الخلافة ، انظر الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٩٧٧ ،جـ ٩ ، ص ٦١٠ .

(٧٢) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٥٢ ٥٣ .

(٧٣) انظر، H ic ham Djait , op . cit , p . 83

(٧٤) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ ٢ ، ص ٧١ .

(٧٥) ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب ، ص ٢٢٠ .

(٧٦) مؤنس ، فتوح العرب للمغرب ، ص ٢٧١ .

(٧٧) ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٣١ .

(٧٨) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٤ ، ص ٣٢ .

(٧٩) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، جـ ٢ ، ص ٧١ .

(٨٠) الرقيق ، تاريخ إفريقية ، ص ٦٨ .ولكنه يذكر أن الخليفة الوليد كتب إلى عمه عبد العزيز على مصر يأمره بأن يوجه إلى إفريقية موسى بن نصير وهذا الأمر مقبول ، لأن عبد العزيز توفى قبل عبد الملك عام ٨٥ هـ / ٧٠٤ م

(٨١) Hicham Djait, *Histoire de la Tunisie , le moyen âge, la conquête arabe et l'Emirat*, Tunis, p. 47 .

(٨٢) عبد الله العروى ، تاريخ إفريقية والمغرب ، محاولة فى التركيب بيروت ١٩٧٧ ، ص ٨٧ .

(٨٣) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٢٠٣ .

(٨٤) فتح الخليفة عثمان بن عفان بيوت السلاح للمسلمين ، كما أعان المسلمين من ماله الخالص بألف بعير يحمل عليه ضعفاء الناس ، كذلك قام الخليفة معاوية بن أبي سفيان بإرسال معاوية بن حديج السكونى بجيش مكون من عشرة آلاف جندى من الصحابة والتابعين. انظر عذارى ، البيان المغرب ، جـ ،ص ٩، ١٦ .

(٨٥) المالكى ، رياض النفوس ، جـ ١ ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٨٦) المصدر السابق ، جـ ١ ، ص ٣١ .

(٨٧) ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة جـ ٢ ، ص ٦٨ .

(٨٨) الرقيق،تاريخ وإفريقية والمغرب،ص ٦٦؛ ابن عذارى،البيان المغرب،جـ ١،ص ٣٨ - ٣٩.

(٨٩) ابن الأثير ، الكامل ، جـ ٥ ، ص ١٠٤ .

(٩٠) المصدر السابق .

(٩١) فتوح البلدان ، ص ٢٣٥ .

(٩٢) انظر، Marçais, op. cit. , p. 36.

(٩٣) أرشيبالد لويس ، القوى البحرية والتجارية فى البحر المتوسط . القاهرة ١٩٦٠،٩٧-٩٨ .

(٩٤) نفسه .

(٩٥) نفسه ، ص ١٠٠ .

(٩٦) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ يختلف المؤرخون حول تاريخ انشاء ميناء تونس ودار صناعتها فترجعه بعض المصادر إلى حسان بن النعمان أو موسى بن نصير ، وحتى عبيد الله بن الحبحاب انظر، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة جـ٢ ،ص ٥٧ ؛ ابن حوقل صورة

(٩٦) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ٦٦ يختلف المؤرخون حول تاريخ انشاء ميناء تونس ودار صناعتها فترجعه بعض المصادر إلى حسان بن النعمان أو موسى بن نصير ، وحتى عبيد الله بن الحبحاب انظر، ابن قتيبة، الإمامة والسياسة جـ٢ ،ص ٥٧ ؛ ابن حوقل صورة الأرض . بيروت ١٩٦٤ ، ص ١٢٠ ؛ البكرى ، المغرب ، ص ٣٨ - ٣٩ و من الراجح أن إنشاءها يرجع إلى حسان لأنه تزامن مع الاضطرابات التى شغلت الإمبراطورية البيزنطية بعد عزل الإمبراطور جستنيان الثانى انظر ، أرشيبالد لويس ، المرجع السابق ، ص ١٠٠ .

(٩٧) نفس المرجع ، ص ١١٦ .

(٩٨) ابن قتيبة الإمامة والسياسة ن جـ ٢ ، ص ٥٧ .

(٩٩) المرجع السابق ، ص ١٠١ .

(١٠٠) المصدر السابق. وقدم عطاء بن أبي رافع الهذلى فى مراكب أهل مصر،وكان عبد العزيز قد بعثه يريد سر دينية .

(١٠١) حسن حسنى عبد الوهاب ، ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، جزءان ، تونس ١٩٦٦ جـ ١ ، ص ٤٨ .

(١٠٢) البكرى ، المغرب . ص ٣٨ - ٣٩ .

(١٠٣) أبو العرب، طبقات علماء إفريقية وتونس ، تونس ١٩٦٨ ، ص ٩٢ ، حاشية ٢ .

(١٠٤) الرقيق ، تاريخ إفريقية والمغرب ، ص ١٢٢ ؛ النويرى ، نهاية الأرب ،جـ ٢٤،ص٧٤ ،٨٥.

(١٠٥) غلب على جيش الفتح المتوجه إلى إفريقية العرب اليمنية ، كما ساعدت أحوال المشرق بعد معركة الحرة ٦٣ هـ / ٦٨٢ م على انخراط عدد كبير من أهالى المدينة فى جيش أفريقية . انظر، دوزى ، تاريخ مسلمى أسبانيا ، الجزء الأول ، ترجمة/ حسن حبشى ، ٧٥ .

(١٠٦) المصدر السابق ، ص ١١٣ ، ابن عذارى ، البيان المغرب ، جـ ١ ، ص ٥٥.

(١٠٧) الفرد بل ، الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقى من الفتح العربى حتى اليوم ،ترجمة/ عبد الرحمن بدوى ، بنغازى ١٩٦٩ ، ص٧٩ .

(١٠٨) أبو العرب ، طبقات علماء إفريقية ، ص ٨٧ ؛ المالكى ، رياض النفوس،جـ ١،ص٦٤ ،٧٥ .

(١٠٩) نفس المصدر ، ص ٨٦ - ٨٧ .

(١١٠) أبو الحارث الليث ين سعد بن عبد الرحمن إمام أهل مصر فى الفقه والحديث قال عنه الشافعي:" كان الليث بن سعد أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به " توفى ١٧٥ هـ/٧٩١م . انظر، ابن خلكان ، وفيات الأعيان، بيروت ١٩٧٣ ، جـ ٤ ، ص ١٢٧ .

(١١١) هو أبو عبد الرحمن عبد الله بن لهيعة الحضرمى الغافقى المصرى ، كان مكثرا من الحديث والأخبار والرواية ولى القضاء ١٥٥ هـ / ٧٧٢ م وهو أول قاضى بمصر من قبل الخليفة المنصور وصرف عنه ١٦٤ هـ / ٨٧٠ م . انظر نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ٣٨ .

(١١٢) هو أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلمة القرشى بالولاء الفقيه المالكى المصرى ، صحب الإمام مالك ، توفى عام ١٩٧ م / ٨١٣ م .نفس المصدر ، جـ ٣ ، ص ٣٦-٣٧.

(١١٣) أبو العرب ، طبقات علماء إفريقية ، ص ١٢٦ ، ١٥٨ ، ٢٢٠ ؛ الدباغ ، معالم الإيمان لمعرفة أهل القيروان ،تونس ١٣٢٠ ، جـ ١ ، ص ١٩٦ ، ٢٦٤ .

(١١٤) نفس المصدر ، ص ١٨٢ .

(١١٥) نفسه ، ص ٩٢ .

(١١٦) نفسه ، ص ٢٢٦ .

(١١٧) نفسه ، ١٨٩ .

(١١٨) نفسه ، ص ١١٥ .

(١١٩) حسين مؤنس ، مصر ورسالتها ، ٤٤ .

ثانياً:

عرض الكتب العربية

Franklin, S., & Shepard, J., *The Emergence of Rus 750-1200*, (London, 1996), 450 pp., 11 maps.

عرض/ طارق منصور

يستند هذا الكتاب الهام إلى أن مؤلفيه اثنان من أشهر المتخصصين فى الدراسات التاريخية الروسية والسلافية فى العصور الوسطى ؛ ويعكس هذا الكتاب شخصية المؤلفين وقدراتهم البحثية العالية فالدكتور / سيمون فرانكلين من القلائل المتخصصين فى الدراسات السلافية فى العصور الوسطى ، كذلك الدكتور / جوناثان شبرد يمكن أن نعتبره نائبا للأستاذ الدكتور / دمترى أوبولنسكى *O. bolensky* فى التاريخ الروسى الوسيط ، وكلاهما يجيد العديد من اللغات السلافية التى أهلتهما لقراءة المصادر الروسية والسلافية الأصلية ؛ الأمر الذى أهلهما لإخراج هذا الكتاب فى الشكل الذى سنعرض له .

والكتاب الذى بين أيدينا يعتبر أحدث إصدار عن التاريخ الروسى الوسيط ، ومحتويات هذا الكتاب تعكس وجهة نظر المؤلفين ورؤيتهما الخاصة لمجريات الأحداث فى روسيا الكيفية بدءاً من ظهور الروس فى المجتمع الدولى وحتى انهيار دولتهم وغزو المغول لها فى القرن الثالث عشر الميلادى وقد قسم المؤلفان الكتاب إلى ثلاثة أبواب رئيسية .

الباب الأول وهو بعنوان "الجذور والمسالك" ، ويحتوى على عدة فصول : الفصل الأول وهو بعنوان "الباحثون عن الفضة من الشمال ٧٥٠ - ٩٠٠م" وفى هذا الفصل يتعرض المؤلفان إلى الحديث عن الظهور الأول للروس وخروجهم من شبه جزيرة اسكنديناوة ، كما يتحدثان عن الإغارات التى قاموا بها على الأمم المجاورة لهم خلال تلك الفترة ، ويركزان الحديث عن الهجوم الروسى الأول على القسطنطينية فى عام ٨٦٠م وما نجم عنه من تحولات

فى المجتمع الروسى آنذاك، خاصة الاقتصادية ، وهذا الفصل مدخل طبيعى لتاريخ روسيا الوسيطة ويعكس العنوان الذى اتخذه المؤلفان لهذا الفصل منظورهما الاقتصادى لتاريخ الروس فى هذه الفترة. فقد كان الروس يفتقرون إلى عملة محلية ولا يمكنهم الحصول على الذهب البيزنطى ، فكانت الإغارة على القبائل السلافية ومسلمى القوقاز سبيلاً للحصول على الفضة، بل إن الجزية التى كانوا يفرضونها على القبائل السلافية كانت من قطع الفضة .

أما الفصل الثانى وهو بعنوان "التحول نحو الجنوب" فيتحدث فيه المؤلفان عن السلاف وما شابههم القاطنين فى منطقة السهوب فى القرن التاسع الميلادى ، وعن حصول الروس على موطأ قدم لهم فى حوض الدنيبر الأوسط فى الفترة من ٩٠٠ - ٩٣٠م ؛ وهى الفترة التى شنوا فيها هجومهم المزعوم فى عهد أميرهم أولج Oleg فى عام ٩٠٧م على

القسطنطينية وما نجم عنه من عقد اتفاق مبدئى بينه وبين البيزنطيين فى نفس العام، ثم تـــلاه عقد معاهدة بينهما فى
عام ٩١١م.

وفى الفصل الثالث وهو بعنوان "روس الدنيبر ٩٢٠ - ٩٦٠م - تنظـــم أم وفـــاة : تأمين الطريق إلى بيزنطة" ، لخص المؤلفان وجهة نظرهما تجاه الأحداث التى وقعت فى تلـــك الفترة ، والتى كانت بالفعل تهدف إلى تأمين الطريق إلى بيزنطة مـــن هجمـــات الأعـــداء المجاورين كالبشناق مثلاً. و لم يكن ليتسنى لهم ذلك إلا بعد استقرارهم فى حوض الدنيبر .

أما الفصل الرابع وهو بعنوان "التحولات والتعميـــد ٩٦٠ - ١٠١٥م" فينبغـــى أن نقف عنده قليلاً . فهذه الفترة التاريخية قد شهدت تحولاً خطيراً فى المجتمع الروســـى علـــى صعيديه السياسى والاجتماعى ، حيث تمكنت القسطنطينية من ترويـــض الـــروس وذلـــك بتحويلهم إلى المسيحية الأرثوذكسية . ففى عام ٩٨٨م غزا الأمير الروسى فلاديمير مدينـــة خرسون البيزنطية للرد على حنث الإمبراطور البيزنطى بازيل الثانى بعهده بـــتزويج أختـــه الأميرة أنا بورفيروجنيتا
منه الأمر الذى دفع بفلاديمير للقيام بهذا الغزو ، إلا أن البلاط البيزنطى اشترط تعميد أمـــير الروس حتى يستطيع الزواج من الأميرة البيزنطية ، وهو ما تم فى النهاية . وتكمن أهمية هـــذا الفصل فى إلقاء الضوء على آثار هذا التعميد على الروس .

ويأتى **الجزء الثانى** من هذا الكتاب ليحمل عنوان **"كييف والروس"** ولعل المؤلفـــان أرادا بهذا العنوان توضيح زعامة كييف للروس فى تلك المرحلة وأنها كانت محور الأحـــداث والنزاعات الداخلية التى نشبت بين الأمراء الروس على العرش وهذا ما جعل الفصل الخـامس يحمل عنوان "الشهداء والمرتزقة ١٠١٥ - ١٠٣٦م" ويمكن القول أن هذا الفصـــل صـــب اهتمامه على فترة الحروب الأهلية التى أعقبت موت الأمير الروسى فلاديمير عام ١٠١٥م .

أما الفصل السادس وهو بعنوان "المظـــاهر المتصدعـــة ١٠٣٦ - ١٠٥٤م" فيعـــنى بالدرجة الأولى بفترة حكم الأمير الروسى ياروسلاف Iaroslave ، التى شهدت بـــلاد الروس فى عهده طفرة حضارية كبرى ، وصار لبلاده شأنا كبيرا فى الغرب الأوربى ، حيـــث عقدت العديد من المصاهرات السياسية بين ياروسلاف والأسر الحاكمة فى كثير من الـــدول الأوربية أما على الصعيد الشرقى ، فقد هبط مؤشر العلاقـــات السياســـية بـــين كييـــف والقسطنطينية ، ومنيت الحملة الروسية على القسطنطينية فى عام ١٠٤٣م بالفشل الذريـــع ؛ وفى الشرق أيضا تمكن ياروسلاف من كسر شوكة البشناق فى عام ١٠٣٦م ، وبهذا تخلص

من خطرهم الذى ظل جاثماً على صدر الروس منذ بدايات القرن العاشر الميلادى . ويتميز هذا الفصل دون بقية الفصول السابقة بالحديث عن التأثيرات الحضارية البيزنطية على الروس ، كبناء الروس لكثير من الكنائس على الطراز البيزنطى مثل كنيسة آيا صوفيا الروسية ، وبناء القصور الملكية التى اتخذت لها أبواباً وحيوانات ورسومات ذات طابع بيزنطى خالص .

لقد كاد التأثير البيزنطى على الروس شاملاً متعدد الجوانب ، كالعمارة ، والفن ، والكتابات الأدبية والدينية ، والتجارة ... الخ وهو ما أبرزه المؤلفان تماماً فى هذا الفصل .

أما الفصل السابع فقد حمل عنوان "العالم الداخلى : تطور الفكر السياسى ١٠٥٤ - ١١١٣" ويعود المؤلفان ثانية فى هذا الفصل إلى التاريخ السياسى للروس والحروب الداخلية التى نشبت بين أبناء ياروسلاف ، الذى ترك لهم وصية يحضهم فيها على الحب والاحترام فيما بينهم والتماسك والطاعة الواجبة لأخيهم الأكبر ؛ وهذه الحرب لم يخمد لهيبها طوال ما يزيد على نصف القرن قليلاً ، حيث امتدت من أبناء ياروسلاف إلى أحفاده . وجاء مؤتمر لوبيتش سنة ١٠٩٣م ليبشر بالأمل وانتهاء الخلافات والتصدعات بين الأمراء الروس . ولم تستقم البلاد إلا بعد تولى الأمير الروسى فلاديمير مونوماخوس Vladimir Monomachus الحكم ، لتبدأ سلسلة أخرى من التصدعات فى المجتمع الروسى بعد وفاته عام ١١٢٥م .

ويتحدث الفصل الثامن الذى حمل عنوان "الأمير والمدينة ١٠٧٠م - ١١٢٠م" عن مجتمع المدينة فى روسيا وعن الرهبان ورجال المال وغيرهم . ويعتبر هذا الفصل دراسة حضارية تاريخية جادة عن تلك الفترة .

وأخيراً نصل إلى **الجزء الثالث** الذى حمل عنوان **"قيام الولايات"** ليعكس حالة التفتت التى أصابت المجتمع الروسى فى الفترة التى أعقبت موت فلاديمير مونوماخوس وحتى الغزو المغولى لبلاد الروس ، وذلك من خلال الفصلين التاسع والعاشر من الكتاب . ففى هذه الفترة صارت هناك العشرات من الولايات الروسية المستقلة ، التى كان لكل منها حاكماً مستقلاً . وكان العداء والتنافر هو السمة المميزة للعلاقات بين هذه الإمارات وبعضها البعض الأمر الذى فت
فى عضد المجتمع الروس فكان صيداً سهلاً للمغول فيما بعد .

أخيراً يمكن القول أن هذا الكتاب تميز باحتوائه على مجموعة كبيرة من الخرائط السياسية والاقتصادية لبلاد الروس فى العصر الوسيط والتى تميزت بالدقة التاريخية وجودة الإخراج ؛ فجاءت لتسد عجزاً كبيراً فى الأطالس التاريخية عن هذه المنطقة . كما تميز هذا

الكتاب باحتوائه على مجموعة مبسطة من جداول الأنساب، والتى رصد فيها المؤلفان أنساب الأمراء الروس بداية من عهد الأمير أيجور Igor وزوجته الأميرة أولجا Olga ويمكن القول أن هذه الجداول لم تصل فى تفاصيلها التاريخية إلى المستوى الذى قدمه المؤرخ بومجـــــارتن Baumgarten فى دراسته الرائعة عن أنســـــاب الأمـــراء الـــروس des Rurkides.

محاسن محمد الوقاد ، *اليهود فى مصر المملوكية فى ضؤ وثائق الجنيزة (٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)* ، (القاهرة ١٩٩٩)

عرض / سند أحمد عبد الفتاح

تعتبر موضوعات التاريخ المملوكى من أكثر الموضوعات التى لدينا معرفة كبيرة بها ، نادرا ما تتوفر لمجالات أخرى ، لأن الحقبة المملوكية تملك بصددها مادة تاريخية عظيمة كما وكيفا ساعدت فى استجلاء غوامض بعض الدراسات التاريخية ابان ذلك العصر .

ومن الثابت أن المجتمع المصرى المملوكى كان يشتمل - إلى جانب المسلمين - على الطائفتين اليهودية والنصرانية ، وفى هذا العرض سنتناول بالدراسة والتحليل دور اليهود فحسب

فى هذا المجتمع حيث لم يكونوا كيانا منعزلاً عنه ، أو بمعزل عن النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية إبان ذلك العصر ، بل اندمجوا فى نسيجه فلعبوا دوراً مهماً ومؤثراً فى عصر سلاطين المماليك .

وليست ثمة دراسة تفصيلية كاملة ودقيقة عن تاريخ اليهود فى مصر المملوكية رغم أن كتب المستشرقين من أمثال أشتور ، وجواتين ، ومارك كوهين ن ويعقوب مان تحفل بأكثر من مسح لأحوال اليهود ، لكن هذه الدراسات فى الغالب - وهو أمر جد مفهوم - لا تتحرى النزاهة العلمية المطلقة ، ومن هنا تنبع الأهمية الحقيقية لهذه المحاولة العلمية التى ترمى إلى توضيح حقيقة دور اليهود فى مصر المملوكية بشكل موضوعى ودون تحيز .

والكتاب الذى بين أيدينا محاولة رائدة فى هذا المجال ، وهو فى الأصل الأطروحة التى تقدمت بها المؤلفة لنيل درجة الدكتوراه فى الآداب - جامعة عين شمس ، حيث تحاول فيه مقابلة ما أورده المؤرخون العرب ، وما جاء فى نصوص الجنيزة ، بصدد طائفة اليهود فى مصر إبان العصر المملوكى بهدف تصحيح العديد من المفاهيم المغلوطة بالنسبة للطوائف اليهودية .

وقد قسمت المؤلفة الكتاب إلى أربعة أبواب ، مسبوقة بتمهيد عن أحوال اليهود منذ الفتح الإسلامى وحتى قيام دولة المماليك ، واستعرضت فيه بصفة عامة أحوالهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية وموقف الطبقات الحاكمة منهم .

ثم استعرضت في الباب الأول مكانة اليهود فى الدولة المملوكية من خـــلال ثلاثـــة فصول تناولت فى الأول منها علاقة اليهود بالطبقة الحاكمة والجزيـــة الواجبـــة عليـــهم ، والشروط اللازمة لعقد الذمة معهم ، وموقف سلاطين المماليك الرسمى منهم ، وكشـــفت النقاب لنا عن أن اليهود عاشوا كجزء لا يتجزأ إبان ذلك العصر ، وبينت مـــدى حـــرص سلاطين المماليك أنفسهم على التزام العدالة تجاههم عملا بتعاليم الدين الإســـلامى حيـــث قاموا بمنحهم العديد من الألقاب التى رفعت من مكانتهم ، كما أبرزت دور رئيس اليـــهود فى الوساطة بين الدولة ورعاياها من اليهود ، ولجوء اليهود أنفسهم للشكوى منه فى حالـــة خروجه عن الطريق الصواب ، وأثبتت كذلك أن العلاقة بين اليهود وسلاطين المماليك قـــد سارت فى مسارها الطبيعى باستثناء بعض الحوادث العارضة والتى كـــان يعقبـــها إصـــدار المراسيم ضدهم ، والتى لم تلبث أن تخف حدتها تدريجيا إلى أن تقع تحت طائلة النسيان .

ثم تطرقت فى الفصل الثانى إلى الوظائف الهامة التى شغلها اليهود فى عصر ســـلاطين المماليك، لأنهم لم يكونوا مجرد أقلية منعزلة داخل هذا المجتمع ، بل ذابوا داخله وامـــتزجوا ببقية أعضائه من الطوائف ، فلعبوا دوراً كبيراً فى مجال الطب ، وتولوا العديد من الوظـــائف الإدارية والمالية ، لاسيما إدارة دار سك العملة .

وعالجت فى الفصل الثالث مدى التزام اليهود بالشروط العمرية ، وأماطت اللثام عـــن عدم التزام اليهود فى معظم الأحيان بالمراسيم التى كانت تصدرها الدولة المملوكية ضدهـــم ، ولكن هذا لم يمنع سلاطين المماليك من السماح لهم غالباً بترميم معابدهم ، وشراء الأراضى والمنازل فى سائر أنحاء البلاد .

ثم خصصت الباب الثانى لأحوال اليهود الاقتصادية ، من خلال فصلين ، تنـــاولت فى الأول منهما حرف وصناعات اليهود ، وبينت أن نسبة كبيرة منهم قد عملـــت بـــالحرف والصناعات المختلفة ، كحرفة الصباغة ، وصياغة الذهب والفضة والنحاس ، وبينت مـــدى التدهور الذى أصاب الصناعات والحرف فى عصر المماليك الجراكسة ، ومـــدى انعكاســـه على المجتمع المصرى .

واستعرضت فى الفصل الثانى النشاط التجارى لليهود ، الذين مارسوا جميع أنـــواع التجارة من العطارة إلى الأدوية ، بالإضافة إلى مشاركتهم فى تجارة الكـــارم " التوابـــل " ، والدقيق وممارستهم لأعمال الربا والصرافة ، وهو ما أدى إلى اكتظاظ الأسواق بهم فى عصر المماليك الجراكسة .

ثم عالجت فى الباب الثالث البنية الداخلية لجماعات اليهود فى العصر المملوكية ، من خلال فصلين ، أثبتت فى الأول منهما وجود ثلاث طوائف من اليهود ابان ذلك العصر تمثلت فى الدبانيين والقرائيين والسامرة ، واستعرضت كذلك تنظيم شئون الطوائف الداخلية والموضوعات الإدارية التى كان يتم مناقشتها داخل كل تنظيم ، وكشفت أيضا عن مدى سماحة الدولة المملوكية لهم بممارسة شعائرهم الدينية بحرية كاملة .

وتناولت فى الفصل الثانى الحديث عن الزعامة الدينية والقضاء اليهودى فى عصر سلاطين المماليك وأبرزت دور رئيس الطوائف اليهودية وواجباته وحقوقه ومسئولياته نحو الطوائف الثلاث، واستعرضت مجالس القضاء اليهودى وكيفية تشكيلها ، وحق اليهود فى اللجوء إلى القضاء الإسلامى ، بالإضافة إلى موقف فقهاء الإسلام من بعض المسائل الخاصة بهم ، وموقف القضاء الإسلامى من النساء اليهوديات ، وأبرزت كذلك أن مصر كانت من أهم الدول التى لجأ فيها اليهود إلى القضاء الإسلامى ربما بسبب رغبة بعض هؤلاء اليهود فى الحصول من خلاله على مكاسب لم يكن بإمكانهم الحصول عليها من خلال القضاء اليهودى خاصة فى مجال المواريث .

وخصصت الباب الرابع والأخير للحديث عن الأوضاع الاجتماعية لليهود فى العصر المملوكى من خلال فصلين ، تناولت فى الأول منهما أحوال الأسرة اليهودية من زواج وشروطه واحتفالاته ، وظاهرة تعدد الزوجات وموقف الشريعة اليهودية منها ، ودور الأم اليهودية فى تربية الأطفال وتنشئتهم ، وتعرضت كذلك للمآتم والأحزان وما كان يتم خلالها داخل الأسرة اليهودي، واختتمت هذا الفصل بالحديث عن ملابس اليهود فى العصر المملوكية الخاصة بالرجال والنساء والأولاد والبنات .

واستعرضت فى الفصل الثانى الأعياد والمواسم والاحتفالات عند اليهود ومدى سماحة الدولة المملوكية لهم بالاحتفال بها فى حرية تامة ، بل ومشاركة المسلمين لهم فى بعض هذه الأعياد، وتبادلهما للهدايا فى شتى المناسبات ، واختتمت هذا الفصل بالحديث عن موسم الحج ومدى أهميته بالنسبة للحياة الدينية الخاصة بيهود مصر .

وقد أثرت المؤلفة هذه الدراسة بالاستعانة بالعديد من المصادر القيمة والمتنوعة من وثائق ومخطوطات ومصادر ومراجع ، حيث استعانت بوثائق دير سانت كاترين ، ووثائق الجنيزة المنشورة ، بالإضافة إلى الوثائق الموجودة بين ثنايا المصادر العربية التى ترجع إلى عصر المماليك ، كما استعانت بالعديد من المخطوطات التى تتناول الحديث عن أهل الذمة من

يهود ونصارى ، ويأتى على رأسها مخطوط " شروط النصارى " لابن زين القاضى ، ومخطوط " المذمة فى استعمال أهل الذمة " لابن النقاش ، ومخطوط " المقصد الرفيع المنشا الحاوى إلى صناعة الإنشا " للخالدى ، كما استعانت بالكثير من المصادر التاريخية الهمة مثل : كتاب " نهاية الأرب فى فنون الأدب " للنويرى ، وكتابا " المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار " و " السلوك فى معرفة دول الملوك " للمقريزى ، وكتاب " صبح الأعشى فى صناعة الإنشا " للقلقشندى ، كما استعانت بالعديد من كتب الطبقات والتراجم ، منها على سبيل المثال كتاب " وفيات الأعيان وأنباء الزمان " لابن خلكان ، وكتاب " سير أعلام النبلاء " للذهبى ، وكتب الرحالة العرب واليهود ، مثل : كتاب " النجوم الزاهرة فى حلى حضرة القاهرة " لابن سعيد المغربى ، وكتاب " تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار " لابن بطوطة ، وكتاب " رحلة طافور " للرحالة طافور ، وكتاب Travellers لأولد .

كما أثرت دراستها بالاستعانة بالكتب الفقهية مثل : كتاب " منهج الطالبين وعمدة المفتين " للنووى ، وكتاب " المدخل إلى الشرع الشريف " لابن الحاج ، كما استعانت بكتب الحسبة التى يأتى على رأسها كتاب " معالم القربة فى أحكام الحسبة " لابن الأخوة ، وكتاب " نهاية الرتبة فى طلب الحسبة " لابن بسام .

يضاف إلى هذه الوثائق والمصادر استعانتها بمجموعة كبيرة من المراجع والأبحاث الحديثة باللغات العربية والأجنبية ، التى عاونت فى استجلاء غوامض هذه الدراسة .

وفى الحقيقة نجد بعد هذا العرض أن المؤلفة قد أسدت بإنجاز هذا العمل أهمية لا تنكر للمهتمين بدراسة تاريخ اليهود فى مصر المملوكية ، اذ بدون هذه الدراسة يصعب على الباحث التعرف على حقيقة الدور الذى قام به اليهود طوال العصر المملوكى بشكل موضوعى ، حيث امتازت هذه الدراسة بوضوح الرؤية وتحديد المنهجية ، ومدى وضوح الحاجة لهذا العمل والهدف من إعداده .

بيد أن تلك الميزات يقابلها على الطرف الآخر بعض الجوانب التى ربما تحتاج (فى رأيى المتواضع) على الأقل إلى إعادة نظر ، ومن هذه الجوانب طول الفترة المعنية بالدراسة والتى نطمع من خلالها أن تخرج لنا دراسات عن أحوال اليهود فى مصر المملوكية تكون أكثر تخصصاً ، كأن تكون فى عهد أحد سلاطين المماليك مثلا ، كما نطمع أن تزين

دراستها المستقبلية عنهم بالوثائق غير المنشورة كى تكشف لنا أضواءً جديدة تضفى من خلالها المزيد عن تاريخ اليهود فى مصر المملوكية.

وأخيرا فلعلنا بعد قراءة هذا الكتاب ، سنلمس مدى الجهد الكبير الذى بذلته المؤلفة لإنجاز هذا العمل العلمى الجاد الذى هو ثمرة سنوات طويلة متصلة قضتها فى هذا العمل الشاق ، لذا فهو بلا أدنى شك يسد ركنا مهماً فى المكتبة العربية كانت فى حاجة إليه، على اعتبار أنه وجبة علمية دسمة للمهتمين بدراسة تاريخ اليهود فى مصر المملوكية .

أسعار بيع النسخة

❖ داخل جمهورية مصر العربية.

- للطلاب الجامعيين: (١٠ جنيهات مصرية).
- للأفراد: (١٥ جنيهات مصرية)
- للهيئات الرسمية والكليات الجامعية: (٢٠ عشرون جنيـــها مصريـــا متضمنـــا مصاريف الشحن).

❖ خارج جمهورية مصر العربية

- للأفراد: (عشرة دولارات أمريكية).
- للهيئات العربية والأجنبية: (٢٠ عشرون دولارا أمريكيا متضمنا الشحن).

Prices Pcr issue Out Side Egypt.

- Individuals: U.S.$ 10.
- Arab & Foreign Organizations: U.S.$ 20 including Freight Charges.

الجزء الثاني:

القسم الأجنبي

fait systématiquement au cours du livre avec beaucoup d'à propos, il pose une question de fond. Pourquoi l'Islam at-il favorisé ces formes d'expression et de quelques significations sont-elles les vecteurs? Sans entrer dans le detail, il offre quelques éléments de péponse, en définissant en deux pages puissantes (pp. 185 - 187) le système qui, selon lui, sous-tend ces formes. Le mode ornemental est ce système, épiphénomène qui confère à l'art de l'Islam toute son originalité au regard des autres arts. Il transfigure les choses et sert d'intermédiaire visule entre l'homme et l'objet créé, un intermédiaire qui établit aussi une relation affective entre ces derniers.

L'ouvrage de O. Grabar apparaît au final comme une efficace et utile mise au point sur l'étude de l'art islamique, non seulement par des propositions d'approches nouvelles et d'explications concernant certains points obscurs, mais également par une mise en garde contre les travers qui affectent cette étude. Nous lui sommes reconnaîssants, de surcroît, de poser des questions et de souligner systématiquement les aspects lacunaires de la dite étude, ayant ainsi balisé le terrain de la recherche future.

La seconde rubrique est consacrée aux arts associés au pouvoir . Les interventions successives des princes sur les grands édifices, telles la Coupole du Rocher et la Grande Mosquée d'Isfahan, procèdnt de cette association et forment ce que O. Grabar appelle "la petite histoire" (p. 141), aussi riche de signification que la grande histoire. A travers celle-ci et celle-là, l'auteur cherche toujours une réponse à la question essentielle du facteur religieux comme constante dans la conception artistique en Islam. En effet, certains cas présentent une ambivalence dans le sens où des facteurs socio-culturels semblent avoir présidé leur conception artistique. Considérés sous cet angle, l'architecturale palatiale aulique et bourgeoise et les objets de luxe paraissent moins problématiques puisque clairement liés aux besoins des classes dirigeantes ou riches. O. Grabar, passant en revue les aspects fonctionnels, esthétiques et techniques de ces ouvrages, intime au lecteur de mettre l'accent sur deux niveaux d'analyse, comparatif et descriptif, lesquels font ressortir l'originalité de ces productions plus ou moins profanes. Par extension, il soulève un questionnement pertinent sur la signification du luxe en rapport avec le religieux en Islam, partant du phénomène particulier de l'adaption de nombre d'objets précieux par les chrétiens pour leur propres usages .

La dernière rubrique concerne l'ornement. Pour cerner les spécificités esthétiques de cet art en Islam, l'auteur propose une méthode d'interprétation originale, fondée sur les deux principales facultés de l'observateur, l'appréhension et la compréhension de l'objet. Cette méthode consiste à classer les différentes formes d'art étudiées en fonction de leurs propriétés, variables, à permettre à l'observateur d'exercer ces deux facultés. S'appuyant sur diverses oeuvres exemplaires, O. Grabar fait une démonstration très convaincante de son approche. On voit bien comment certaines de ces oeuvres présentent des signes visuels limpides autorisant une lecture immédiate, alors que d'autres possèdent des caractères plus ambigus, laissant l'observateur dans l'incertitude . L'auteur se penche, pour finir, sur l'écriture et la géométrie . Comme il l'a

monumentaux, telles les mosquées ottomanes à multiples coupoles . Le XIX^{eme} siècle, si négligé par les observateurs, s'avère pourtant très interessant remarque O. Grabar. Un environnement et un urbanisme se créent dans lesquels les musulmans d'aujourd'hui se reconnaissent. Enfin, le monde contemporain, est d'une grande richesse de documents, photographies, dessins, etc., dont l'exploitation reste à faire, peut-être sous l'angle particulier de la dialectique tradition et modernité .

A l'issue de ce panorama, O. Grabar réaffirme la necessite de constituer l'histoire spécifique de chacune de ces périodes pour valoriser les différentes séquences de l'art islamique, aussi complexe, de ce point de vue, que celui de l'Europe. Par là même, il se demande quels sont les facteurs de ces changements: sont-ils le fait des nouveaux peuples puissants ou de rythmes internes de la civilisasion islamique ? Enfin, une derniere reflexion doit etre retenue nous dit l'auteur: il est impératif de saisir l'équilibre entre les autorités civiles et religieuses et la masse des croyants, afin de déterminer les facteurs de formation du goût spécifique à chaque période .

Dans la seconde partie, les créations sont regroupées sous trois rubriques. O. Grabar aborde la première rubrique, "urbanisme et foi", en dénonçant le poncif - qui fait long feu- de la ville islamique type. Il n'en reconnaît pas moins un certain nombre de signes distinctifs dans lesquels la société musulmane se retrouve . Les grands sanctuaires de la Mecque, de Médine et de Jérusalem, commusns à tous les musulmans, comptent parmi ces signes, essentiellement exprimés dans l'architecture . En second lieu, il y a toutes les formes du bâti ayant servi de support à une piété diversifiée, liée aux cultures locales : les sanctuaires locaux, les grandes et les petites mosquées, les fondations sociales (*madrasa, ribât,* hopital, etc.) et les mausolées religieux. Ces édifices ont permis la conquête de nouvelles formules de construction, en particulier dans les coupoles. A propos de ce dernier thème, l'auteur s'interroge avec raison sur son caractère sacré intrinsèque ou seulement cironstanciel dans l'architecture de l'Islam .

hypothèse est que l'art de l'Islam émane inévitablement de ce qui l'a précédé car les conquérants ne connaissaient que ces oeuvres antéislamiques et la main d'oeuvre qu'ils employaient était formée à des pratiques également antéislamiques . Cependant, l'observation de la Coupole du Rocher, exemple type de monument ancré dans la tradition architecturale antique, O. Grabar met à jour un nouveau langage estétique et s'interroge sur sa nature. Loine d'être uniforme, ce langage s'est modulé d'une zone géographique musulmane à l'autre, en fonction des cultures locales plus ou moins riches et de l'empreinte plus ou moins forte qu'elles laissèrent dans la mémoire collective . A ce titre, l'auteur établit une hiérarchie de ce legs antique, dans laquelle l'Iran occupe le premier rang .

La dernière contrainte est la force de l'histoire. Là, l'auteur s'insurge d'emblée contre les préjugés ayant conduit à une vision uniformisante de l'art islamique . Et, brossant à grands traits les huit grandes étapes qui ont forgé cet art, il s'applique à en montrer les prinipales innovations apportées au cours du temps. Ainsi, sous les Omeyyades, se forment des pratiques artistiques répondant aux besoins de la nouvelle religion dans le cadre classisisant de la Syrie . L'époque des Abbassides voit la domination politique et culturelle de l'Iraq, mais aussi l'apparition de centres satellites comme Al-Andalus . Durant le "Moyen Age islamique " (1250 - 1500), l'arrivée en scène de nouveaux peuples, Berbères, Kurdes et Turcs, provoque une explosition artistique ; notamment, la réaction sunnite aména la création de l'institution de la *madrasa* . Entre 1250 et 1500, l'expansion mongole inaugure une séparation entre le monde arabe et le reste du monde musulman où une nouvelle culture artistique fleurit. C'est l'éclosion de la peinture persane, tandis qu' Al-Andalus disparaît et que le Maghreb se replie sur lui-même . L'Egypte des Mamelouks quant à elle, ne participe pas aux révolutions artistiques de l'Est affirme l'auteur. Nous ajouterons, pour notre part, que cela n'a pas empêché cette derniére de développer un style puissant et original. Avec les grands empires (1500 - 1800), s'érigent les célèbres programmes

O. Grabar rappelle ensuite que l'art islamique a été objectivé au XIXème siècle par les observateurs Occidentaux et non par les musulmans eux-mêmes; ce qui ne va pas sans conséquences qu'il met en évidence en vue d'élaborer une nouvelle manière de penser l'art islamique, inspirée des approches classiques historique et interprétative, et de l'appréhension idéologique, plus actuelle . Ses directions de réflexion ainsi tracées, l'auteur entrepend sa discussion autour de deux principaux pôles, les contraintes et les créations de l'art islamique .

Dans la première partie, O. Grabar pose la question fondamentale de l'existence d'une doctrine des arts en Islam. Pour y répondre, il recherche les fondements de cette doctrine dans les deux premiers siècles de l'Hégire et, bien sûr, dans le Coran . Si celui-ci ne fournit pas de développement doctrinal sur l'art, il n'en induit pas moins des valeurs qui ont été déterminantes pour la création artistique islamique. L'auteur illustre cette idée par l'analyse des exemples de la mosquée et surtout du prétendu iconoclasme de l'Islam . Ainsi, sans qu' un interdit de l'image ne soit explicitement formulé certaines formes plastiques liées à l'idolatrie sont dénonceés dans le texte saint et, par là, ont entraîné une méfiance généralisée envers la figuration . Cependant, O. Grabar démontre que ce phénomène a également des causes sociales . Dans un contexte où chrétiens et zoroastriens se trouvaient en proie à de complexes discussions sur l'image, le rejet de celle-ci par les musulmans s'inscrit en contre-poids; le thème discuté était jugé par eux d'une importance excessive . Par la suite, la vision islamique a évolué, mais on ne sait encore comment au juste. Pour mieux la saisir, l'auteur suggere une relecture des *hadith* et de divers textes susceptibles de contentir des indications sur l'esthétique islamique .

Autre contrainte examinée par l'auteur, l'héritage antique. Il dégage deux hypothèses concernant les modalités d'assimilation de cet héritage par les musulmans . Selon la premiére hypothèse, l'Antiquité classique méditerranéenne, dominante dans le premier art islamique, s'est imposée en raison de sa puissance d'expression du pouvoir . La seconde

Compte rendu de Oleg GRABAR, *Penser l'art islamique , Une esthétique de l'ornement*, Paris, Albin Michel, 1996, 211 pages.

Par V. Gonzalez

Après le brillant essai *The Mediation of Ornament*, publié en 1992, O. Grabar nous offre de nouveau la possibilité de prendre connaissance de ses exposés oraux en les consignant par écrit. Cet ouvrage reprend en effet un cycle de huit conférences données a L'Institut du Monde Arabe, à Paris. Par ce biais, l'auteur nous communique l'essence "brute" de sa pensée sur l'art islamique, dégagée des longues argumentations historiques qui permenttent une compréhension plus fine de celle-ci, mais rendent moins directement accessible son sens profond .

Dans une ample introduction, O. Grabar justifie son approche des formes visuelles islamiques en faisant une mise au point méthodologique. Il souligne la nécessité du recours a l'étude comparative avec les autres arts, afin de mettre en évidence les spécificités de la production en Islam, dans une perspective universelle . Puis il énonce les multiples autres possibilités d'appréhension de cette production, en exposant leurs avantages et leurs inconvénients. Un des problémes majeurs est de savoir si, pour définir tel ou tel type d'oeuvre, on doit retenir le critère national ou éthnique ou bien le critère dynastique. En l'absence de réponse consensuelle à cette question, O. Grabar constate à regret que l'art de l'Islam occupe toujours une place à part dans l'histoire générale des arts. Il se demande si cette spécificité n'est pas illusoire et simplement due à une connaissance encore embryonnaire du sujet. Isoler ainsi l'art islamique revient, aux yeux de l'auteur, à l'enfermer dans le cercle étanche d'une histoire interne réductrice, alors qu' à l'instar des autres arts, il a connu une évolution en plusieurs etapes distinctes. C'est pourquoi, il propose d'explorer la source sûre de l'historiographie des arts de l'Islam et, plus généralement, de mettre à profit la problématique contemporaine de l'histoire des arts.

domaine. Peut-être aurons nous plus de chance un jour pour les réaliser.

trois genres de chasse: la chasse au faucon , la chasse au chien et la chasse au guépard . Ce dernier n'était pas assez fréquent en Égypte, car, il nécéssitait beaucoup d'argent. Il était, alors , consacré à la classe règnante et aux riches .

Nous avons recherché , d'autre part , les jeux d'esprit qui était connus aux palais fâtimîdes soit pour les califes soit pour les femmes du harem royal .
Les gens du peuple se réunissaient, parfois , aux maisons pour prendre part à ces compétitions d'esprit , notamment , ceux d'échecs , des dés et des cartes .

On peut conclure, aussi , que malgré les disettes , les troubles intérieurs et l'apparition des croisades à la deuxième moitié de l'époque fâtimîde , le peuple égyptien avait , toujours, un esprit joyeux et cherchait , partout, le divertissemsnt et la distraction . Par ailleurs, le règne des califes fâtimîdes était assez mouvementé et prospère. Ils ont donné à l'Égypte une impulsion sociale, un nouveau aspect culturel, une vie de luxe et de magnificence . Les merveilles qui constituaient le trésor des califes, les tissus
somptueux, les remarquables planches en bois , les vases précieux , les inombrables plats de céramiques et les magnifiques aiguières en cristal de roche en sont la preuve . Ces objets nous ont gardé , en effet , les souvenirs de la vie princière à la cour fâtimîde .

Avant de terminer nos paroles à propos des moyens de divertissement , en Égypte , sous les Fâtimîdes , nous avons essayé de profiter de la marque d'élégance , du raffinement des objets fâtimîdes et des résultats de cette recherche pour encourager et aider à améliorer l'industrie de tourisme en Égypte . Nous avons enregistré quelques remarques et nous avons présenté de nouvelles suggestions qui peuvent aider à ce

s'agisserait d'éclairer que , parfois , les califes fâtimîdes se déplaçaient en compagnie de leur entourage, leur harem et leurs sujets pour se rendre aux belvédères édifiées aux banlieux et aux bords du Nil pour un but de promenade trés apprécié . On y assistait aux plaisirs de la vie. On y passait des soirées dansantes. Les gens du peuple sortaient , parfois , librement , aux parcs pour inspirer la simplicité de la nature . Lors du divertissement, la capitale était animée du soir au matin.

Il convient à mentionner que les séances musicales et les beuveries étaient , parfois , accompagnées de la représentation des clowns , des joueurs des ombres chinoises, de la danse acrobatique , les jeux des charmeurs de serpents et des sorciers . D'autres jeux d'animaux et d'oiseaux étaient représentés durant ces séances , et , aussi , durant le passage des cortèges des califes fâtimîdes . Les acrobates , les joueurs des ombres chinoises et les sorciers parcouraient les quartiers et les rues des villes pour que les plébeiens puissent en assister et s'amuser .

Les enfants , eux-aussi , éprouvaient un grand plaisir à participer avec les grands pour s'amuser et se divertir , surtout , lors de la célébration des fêtes . Ils avaient , en plus , leurs propres jeux qui prennaient , d'habitude , la forme des animaux et des oiseaux .

Il est évident , aussi , que les jeux sportifs avaient attiré l'attention des califes et des vizirs fâtimîdes pendant leurs loisirs . Ils ont pratiqué le jeu de polo , la course des chevaux et la natation . La danse aux triques et la lutte étaient , cependant , parmi les jeux les plus fréquents chez les plébeiens.

L'élévation d'animaux et d'oiseaux aussi bien que la chasse était un des moyens de distraction et de divertissement les plus en faveur , en Égypte , sous les Fâtimîdes . On s'amusait à ramasser les spécimens rares et bizarres des animaux, des remptils et du vol. Il y avait, aussi, autant que nous pouvons dire

Pour essayer d'être plus précis , nous avons vu qu'aux palais fâtimîdes se tenaient les séances de poésies et de littérature sous la supervision des califes , des vizirs et en présence des hauts fonctionnaires . Durant ces séances , on traitait divers sujets et les poètes récitaient leurs poésies . En se concourait à louer les califes et à exalter la gloire de leurs ascendants. Grâce à leurs habiletés et à leur ingéniosité , ils étaient comblés de faveur par les califes et leurs entourages . Il n'était pas, donc étonnant de voir arriver , en Égypte , un grand nombre de poètes de l'orient et de l'occident . Les califes , les princes et les vizirs étaient , eux - mêmes , parfois, des poètes et composaient des vers et des poèmes . Un grand nombre de princes , de hauts fonctionnaires et d'autres personnes choisies assistaient à ces séances littéraires .

Les gens du peuple avaient leurs propres séances de conversations et de poésies qui avaient lieu aux bords du Nil. On se rencontrait pour échanger les paroles , les idées et les dernières boutades . Il y avait une sorte de discussion ou de conversation durant laquelle on disait des anectodes , des plaisanteries et on parlait des nouveaux évènements . Les poétes et les narrateurs assistaient , parfois , à ces séances et récitaient aux gens des poèsies . Ces réunions évéillaient l'immagination et mettaient les gens en courant avec les évènements du pays .

Durant les séances musicales, les beuveries et les parties de plaisir tenues aux palais des califes fâtimîdes, une grande majorité des musiciens ,
des chanteurs , des danseuses , des buveuses et des buveurs étaient présents. Les califes y invitaient, parfois , leurs sujets . On se précipitait à assister à ces séances pour se libérer des charges quotidiennes , pour profiter de la bonté et de la générosité de la classe régnante . Ces séances augmentaient lors de la célération des fêtes, des mûlids et des festivals .Les califes ordonnaient de dresser les tables et de préparer les repas solennels . Il

Le cinquième chapitre a représenté l'importance de cette étude dans le domain de Guide Touristique .Quant à la conclusion , elle comprendra les résultats de cette recherche . Cette thèse est accompagnée, aussi, d'une liste des abbréviations et des périodiques. En addition, il s'agit d'une liste onomastique des califes Fâtimîdes , d'une bibliographie et d'un catalogue composé de quatre-vingt dix-sept photos .

Pour préparer cette étude , on a eu recours à plusieurs sources historiques qui étaient composées sous les Fâtimîdes et d 'autres qui furent composés sous les Mamlûks . Il fallait se servir de nombreuses références arabes et européennes ainsi que plusieurs périodes scientifiques .Il était naturel , aussi , de correspondre quelques musées mondials en Europes et aux États Unis pour se renseigner sur quelques objets fâtimîdes tels que la céramique à reflet métallique et les plaques d'ivoires qui y sont exposées .

Comme nous l'avons vu bien souvent , déjà , les principaux moyens de divertissement et de distraction chez les Fâtimîdes en Égypte étaient réparties en quatre catégories . On avait vu les différentes sortes de séances, les divers jeux sportifs , la chasse et les jeux de l'esprit ou les jeux calmes .

Il se peut que les Fâtimîdes avaient recours à d'autres moyens que les sources historiques ne nous avons pas mentionnés . Ces moyens étaient, probablement , fréquents qu'ils n'ont pas attiré l'attention des historiens qui étaient occupés , toujours , à enregistrer les détails de la vie politique du pays.

Grâce à l'activité économique qui avait pris un essor remarquable et dû à la prospérité et l'extansion de la civilisation, la ville du Caire est devenue le pôle d'attraction des poètes , des chanteurs , des musiciens et des savants . D'importants travaux d'urbanismes furent réalisés . D'immenses jardins et de superbes vergers furent ouverts au public pour satisfaire sa curiosité .

égyptien . Parmi ces jeux , on note le jeu de polo , la course des chevaux , le duel ou bien la danse aux triques , la lutte , la natation , le tir des flèches en plus des jeux des enfants.

On a traité , au troisième chapitre,l'idée de l'attention accordée par les califes et les hauts fonctionnaires à la chasse des cerfs , des gazelles , des lièvres , des lapins et des oiseaux à l'aide des chiens et des guépards aussi bien que les oiseaux sauvages tels que les aigles , les faucons et les vautours .

Ce chapitre s'attache, aussi, au grand soin prêté à l'élevage des oiseaux et des animaux qui étaient utilisés à la chasse ou bien qui représentaient quelques jeux pour rendre les califes et leurs sujets satisfaits durant leurs loisirs comme la lutte des coqs , les jeux des ours et des singes aussi bien que la représentation des girafes et des éléphants . Ce chapitre a comporté , également , plusieurs renseignements à propos des personnages qui étaient chargées d'entrainer , de dresser les animaux et les oiseaux de la chasse tels que les fauconniers , les guépardiers et les piqueurs de chiens ainsi que les sorciers et les charmeurs de serpents et de vipères .

Le quatrième chapitre a jetté la lumière sur les jeux de l'esprit pratiqués dans la sociète égyptienne sous les Fâtimîdes , comme les dés qui paraissent être d 'origine persane et qui ressemblent beaucoup à ce qu'on appelle , en arabe , al- nard . Il fut inventé par Ardašîr ibn Bâbik d ' où il est connu sous le nom de nardašîr . Les gens du peuple négligeaient , parfois , leurs travaux pour aller jouer à d'autres jeux de pari tels que le jeu d'échecs et les jeux aux cartes qui étaient , aussi , parmi les moyens de divertissement les plus fréquents sous les Fâtimîdes. Nous ne devons pas omettre de citer que quelques - uns de ces jeux étaient destinés à la classe régnante telle que les vizirs , les émîrs et les notables de la sociète . D'autres jeux étaient consacrés aux gens du peuple .

dans la socièté égyptienne , sous les Fâtimîdes , c'est la raison pour laquelle , j'ai opté pour cette idée comme sujet de ma thèse .

Après avoir fondé leur califat à mairib au cour de l'an 297 H. / 909 , et , après avoir assuré leur puissance en Afrique du Nord , les Fâtimîdes réussirent à conquérir l'Égypte , et ce fut le général en chef de l'armée du calife fatimide al-Mu'izz , Ğauhar al-Saqlabî , qui arriva à Ğîza le 17 Ša'bân 358 H. / 6 Juillet 969 .Ces Fâtimîdes régnèrent en Égypte , deux siècles environ (358 - 567 H. / 969 - 1171) . Durant cette longue période , ils ont réussi à vaincre leurs ennemis et à stabiliser leur pouvoir en Orient . Ce fut la plus grande puissance au monde islamique à ce moment . Ce fut , aussi , l'apogée du progrés politique , économique et culturel. Mais dés le début de l'époque des vizirs , il y a eu des troubles intérieurs et des crises économiques qui allaient mener à la chute de la dynastie en 567 H. / 1171 .

Bien qu'ils aient été occupé par les affaires du pays , les Fâtimîdes avaient entrepris des moyens de divertissement . Ils permirent à leurs sujets de se distraire et d'être fières pour compenser la dureté de leurs responsabilités quotidiennes .

Le sujet de cette thèse est , donc , traité à travers un avant-propos , cinq chapitres et une conclusion . Le premier chapitre a englobé l'étude de différents genres de séances qui avaient lieu aux palais Fâtimîdes comme les séances de littérature et de poésie , de chant , de danse et de musique en plus des beuveries .Ces séances étaient , d'habitude , accompagnées par les représentations des acrobates , des clowns et des ombres chinoises . Les hommes de lettres et les poètes étaient , habituellement , comblés de faveur par la classe régnante durant ces séances .

Le deuxième chapitre a compris l'étude des jeux sportifs qui jouissaient de l'attention des califes Fâtimîdes et du peuple

Al–Gindî, *S. S.*, *Les moyens de divertissement et d'amusement à l'époque fâtimîde en Égypte 358 -567 H./ 969 - 1171 ap.J.C.*,Thèse de Magistère dactilographiée, section Guide Touristique, Faculté de Tourisme et d'Hôtellerie, Université de Hilwân , (Le Caire, 1999).

Par Sîrîn Sâdiq al - Gindî

Le chercheur a essayé de jetter la lumière sur les moyens variés de divertissement et d'amusement qui étaient en vogue , à l'époque fâtimîde , en Égypte . Plusieurs sources historiques et quelques documents nous donnent des informations concernant ce sujet. Des objets fâtimîdes ornés de différentes scènes nous aident , aussi , à savoir quelques - uns de ces moyens d'agrèment .

Il est fort intéressant de savoir que ce sujet n'a pas attiré l'attention des chercheurs à l'exception de Ahmad 'Abd al-Râziq qui l'avait abordé, en général , dans son article " Wasâ'il al-taslîya 'ind al-muslimîn " , publié en 1985. On ajoute , aussi , l'ouvrage de 'Abd al-Mun'im Sultân " al-Muğtama' al-misrî fî al-'asr al-fâtimî " dans lequel il nous mentionne , brièvement , ce sujet .

Signalons, aussi , Mahmüd Ibrâhîm Husain qui avait étudié les scènes concernant les moyens d'amusement à la cour fâtimîde dans sa thèse de Doctorat intitulée " Die Vergnügungen des Hofes und Alltagsleben ". Citons, en plus , Suma 'Abd al-Mun'im Ibrâhîm qui avait traité les scènes de la chasse - dés l'époque fâtimîde jusqu'à la fin de la dynastie mamlûke - dans sa thèse de Magistère présentée , en 1992 , à la Faculté d'archéologie à l'Université du Caire .

À part ces quelques ouvrages ,il n'y a eu aucune recherche exhautive concernant les moyens de divertissement

II: Book Reviews

centres or the capital, they attest the dynamism of the Byzantine economy at that time and have a bearing on the separate but related question of State finances. Even if the imperial authorities were unable to gain much fiscal benefit from silks exported directly to the West from minor centres such as Euripos or Patras, textiles carried by sea via the Bosphoros to the Rus lands were likely at some stage to pass through their fiscal net. This ambivalence seems to exemplify the effect on central government finances of the growth of regional production centres no longer geared solely to the demand and commands of Constantinople. Ultimately the proliferation of these and the growing allure of foreign markets facilitated political fragmentation but in the shorter term it probably contributed substantially to an increase in the revenues readily at the imperial authorities' disposal. Further work in collating the extant silks in Western church treasuries with the silk materials from archaeological excavations and the written evidence should illuminate this often paradoxical process and shed light on the growth of the Byzantine economy between the tenth and the twelfth centuries.

'Shelkovye tkani v srednevekovoi vostochnoi Evrope' , *Sovetskaia Arkheologiia,* 1982, no. 2, 69. See also M. A. Saburova and M.V. Sedova, 'Nekropol' Suzdalia', in I.P. Rusanova (ed.), *Kul'turai isskustvo srednevekovogo goroda* (Moscow 1984) 121- 7.

right direction. If, as seems to be the case, Thebes was second only to Constantinople in its ability to produce red samite and gold-interwoven silks, and if the attribution of Roger II's coronation mantle to its workshops can be confirmed,17 the task might prove feasible. Extant examples of medium-and lower-grade silks might also be submitted to investigation although, as Jacoby points out, their survival prospects are poorer than are those of the finest-quality silks18. Were it to prove possible to distinguish between Greekfinished and Constantinopolitan products, the quantitative data, however crude, would contribute to understanding of the relative roles of the provincial centres and the capital in exporting silks to the West. This would have a bearing on Jacoby's postulate of 'a progressive contraction in Constantinopolitan silk production since the late eleventh century or, at any rate ... [a reduction of] the capital's share in the overall supply of the Byzantine market in a period of rising demand'19 . This is a field where further collation of Muthesius' expertise with jacoby's analysis would be fruitful.

There is another corpus of extant material, which could be brought to bear on the debate, silks from the lands of the Rus. There, notably in the burial-grounds of the north-eastern settlements, excavations have revealed a considerable number of fragments of strips of gold braid and of monochrome silk; they served as the collars and yokes of garments of relatively well-to-do peasant women. These burials date from the twelfth to the beginning of the thirteenth century - roughly the period of expanding production in Greece highlighted by Jacoby - and the silks are reportedly for the most part of Byzantine origin20. Whether these silks were spun and woven in Greek

[17]- See Jacoby, 'Silk', 462 - 4, 483.

[18]- Jacoby, 'Silk' 473 - 4.

[19]- Jacoby, 'Silk' 498.

[20]- K.I. Komarov, 'Importnye tkani vo vladimirskikh kurganakh', *Kratkie Soobshcheniia Instituta Arkheologii* 210 (1993) 79, 81, 83 - 4 and map on 81. M.V. Fekhner estimated that 'over 70% of impotred silk [found in pre-Mongol Rus lands] is comnected with the production of Byzantium's silk-weaving workshops':

to the central administration. Jacoby points out that Thebes' high quality silks were denied to the Genoese and Pisans and 'judging by the evidence pertaining to Alexius III, imperial control over a portion of Theban silk production and trade remained surprisingly strong by 1195'[16]. This raises the questions of what proportion of Thebes' silks was reserved by the government for its own uses and of whether all the highest quality silks belonged to this category. One might suppose that a 'high-profile' production centre such as Thebes was relatively easy for the imperial authorities to regulate effectively, and thus that top quality Theban silks remained a governmental monopoly. This would imply that examples found in the West arrived there as diplomatic gifts rather than as traded commodities. In contrast, it may have been fairly straightforward and not unprofitable to put on the market medium- and lower-grade silks, especially those manufactured in other, poorer, production complexes. The latter may have escaped close government scrutiny, being at once less capable of really high-quality product, less fiscally remunerative and more dispersed. It was the easier to avoid taxation on such silks in that much of the carrying-trade was in the hands of the Venetians who, unlike the Genoese and Pisans, were allowed to buy costly textiles. And in Northern Italy the Greek silk-producers were assured of a robust market, accessible yet well beyond the reach of imperial fiscal officials and thus more lucrative than markets within the empire.

To hypothesise thus is, of course, to make large assumptions about the degrees of intrusiveness and venality of government officials in Thebes and the other western provincial centres. Even the highest-quality silks may have found their way from Thebes onto the market in Italy and one will never be able precisely to chart the volume of production in twelfth-century Thebes or the relative importance of government commissions and the internal Byzantine and foreign markets for it. But systematic identification of the extant products of Theban workshops would be a step in the

---

[16]- Jacoby, 'Silk' 492.

they might well exemplify economic expansion, with production of high-quality but not hugely expensive silks opening up in provincial centres.

Attention to economic growth and its periodisation is paid in one of the most recent papers incorporated in Muthesius' Studies14. But this aspect needs to be integrated more fully with the technical issues of which she shows such mastery. A wide-ranging investigation of the silk industry in Byzantium's western provinces is offered by Jacoby. He points to firm evidence of production on Andros as well as in Thebes and Corinth from the later eleventh century onwards, while noting much earlier hints of the Peloponnese's connections with the silk industry: already in the ninth century its north-western part was known as 'Morea' for its mulberry-trees, when the widow Danelis disposed of weavers and precious textiles of some sort in the neighbourhood of Patras15. Jacoby emphasises that Theban private manufacturers received commissions from the central administration to make very high-grade silks, dyed with murex purple. However, as Jacoby suggests, this was essentially a twelfth-century phenomenon. Moreover, Thebes seems to have been rather exceptional, benefiting from a particular combination of natural resources, easy communications and the capital and organisational skills of the *archontes*, members of the local landed *élite* . The latter seem to have been the driving force in the formation of a large-scale manufacturing industry, producing for the market. Thebes' elaborate nexus of production ranged from mulberry growing to dyeing with purple produced in Athens.

The quality of Theban fabrics was well-known to Western Europeans and Turks in the twelfth century as well as

[14]- Mention is also made there of developments in the provinces in the eleventh and twelfth centuries: 'Constantinople and its Hinterland: Issues of Raw Silk Supply' (27th Spring Symposium of ByzantineStudies, Oxford, March 1993), in *Studies* 315 - 35.

[15]- Jacoby reserves Judgements as to whether the *silken* sendes despatched by Danelis to Basil I had actually been made in workshops under her control: 'Silk' 458 - 60; *Vita Basilii*, in Theophanes Continuatus, V.74, ed. I. Bekker (Bonn 1838) 318.

course, this development is just one facet of the general upswing in population-size, economic exchanges and wealth-formation, which Alan Harvey has documented, and Jacoby himself draws attention to it12. But it is very probable that the silk industry, already possessing close ties with the Islamic world, was peculiarly sensitive to the greater security in eastern border areas and the Aegean which set in from the later tenth century onwards. Muthesius offers evidence of the identity - rather than just similarity - of the techniques of Byzantine and Moslem weavers in changing from single to paired main warp twills from the ninth century onwards and Cairo Genizah documents attest the sale of raw silk to Byzantine merchants in the 1060s and 1070s. A Byzantine presence in Syria, with Byzantine agents reportedly levying taxes on the silks traded in Aleppo, is likely to have further encouraged cross-border exchanges - including, perhaps, migration of craftsmen. One possible witness to burgeoning collaboration comes from the eleventh-century Griffin Silk from St. Trond, whose stylistic features are fairly distinctively Byzantine, but whose use of cotton selvedge points to a Moslem workshop. Muthesius considers Syria to be a possible location for it. A still more significant mark of contacts is what Muthesius calls 'a technical breakthrough', the development of the 'lampas' weave and the related incised twill silks, both types being monochrome13 . This took place c. 1000 in both Byzantine and Islamic production centres, seemingly without an appreciable time lag between the two milieux . The monochrome silks required a high level of skills to produce, but they did not call for expensive dyes or the dyeing process and this, together with the relatively large number of examples found in the West, suggests that they may have been made in non-imperial workshops. In other words,

[12]- Jacoby, 'Silk' (as in n. 1 above), 452 - 500; A. Harvey, *Economic Expansion in the Byzantine Empire, 900 - 1200* (Cambridge 1989) 148 - 4, 213 - 20. I have not had access to Jacoby's study 'Silk crosses the Mediterranean' (in S. Origone (ed.) *Le vie del Mediterraneo, idee, uomini, oggetti)* reported as 'in press' in Lexikon des Mittelalters, VII (Munich 1995) S.V. *Seide . B. Byzantinisches Reich,* col. 1709.

[13]- Muthesius, Studies, 107, 112, 136, 290; Plate 83.

maintaining a massive over-capacity in its own, imperial workshops. Close collaboration involving a high degree of flexibility in arrangements and mobility of skilled labour is understandable against a background of shortages of raw materials and skills, military insecurity, uncertain communications and a concentration of wealth in constantinople. Such was, essentially, the empire's condition at the turn of the ninth and tenth centuries, when the *Book of the Eparch* was being drafted.

The collaboration between the imperial authorities and the private sector was wary, at least from the State's viewpoint. But the forementioned constraints weighed against private production rivalling imperial workshops in terms of sustainable quality or becoming very large-scale. There was, above all, the problem of finding a market for one's products and although the *Book of the Eparch's* injunctions against sales outside the City imply that such things were done, they could scarcely have been risk-free or very profitable. Constant, flagrant breaches of the restrictions would have attracted the attention of the Eparch's officials or other functionaries, venal as these may have been. So long as purchasing-power was concentrated in the capital and was more or less directly connected with the palace, an alternative nexus of sericulture and manufacturing far from Constantinople was unlikely to be a going concern. The fact that the main foreign source of raw silk was formally in a state of permanent warfare against Byzantium put a further constraint on illicit private enterprises. The number of authorised trading emporia was small and fairly easily supervisable by the authorities. Those traders attempting evasion risked interception by both Byzantine patrols and Moslem raiders.

One might expect an improvement in the empire's strategic situation and an easing of communications to have lifted some of the foresaid constraints on private silk production outside Constantinople. That this seems to have happened, albeit gradually, is suggested by David Jacoby's study of silk production and trade in what is now Greece. Of

leaves and close liaison was necessary between the providers of the leaves and the rearers of the worms. At the other end of the process, a top-quality piece such as the Aachen Elephant Silk 'required 1.440 manipulations of the pattern making device' for just one roundel (p. 290). Time, as well as skill and equipment was needed for this and sudden shortages of raw materials further increased the risks, while restrictions on prices curbed producers' ability to recoup their losses. To these constraints, noted by Muthesius, needs to be added the question of the strength and geographical location of the demand. The highest-quality silks were very costly indeed and presumably even the lower-grade fabrics came within purchasing range only of the well-to-do. To master difficult skills or to invest heavily in an industry where one did not enjoy fairly constant demand would have been quixotic. There are hints as to the vagaries of the market in the Book *of the Eparch's* stipulation that workmen should be hired by the *metaxopratai* on *monthly* contracts (*Eparchenbuch, 6.2; ed. Koder, pp. 96 - 7)*. Perhaps fluctuating supplies of materials made it imprudent to take on wage-earning workers for long, while the imperial workshops themselves may have needed to take on skilled hands at short notice. These circumstances not only make it overwhelmingly probable that (as Muthesius argues) the highest quality silks were produced exclusively in the imperial workshops; they also suggest that the state was the purchaser of many of the lesser quality textiles woven by the guilds. That such purchases were common is clear from the treatise on the imperial baggage-train's specifications11 .

The demands some assurance of sales to those engaged in production or trading. On the other hand the State officials could not entirely foresee sudden expenditure needs - gifts of *skaramangia* to buy off menacing Bulgarians or Hungarians, for example. To be able to resort to a market in privately produced or imported silks was therefore highly desirable and it gave the State a keen interest in quality control. It was thereby freed from the cost and organisational strain of

[11]- Constantion Porph, *Three Treatises*, ed. Haldon 108 - 9, 112 - 13, 126 - 7; 219, 230 (commentary).

for the produciton of silks: the number of Syrian merchants resident in Constantinople for ten or more years was substantial enough for provision to be made for them in the *Book of the Eparch*[9]. These were, presumably, distributors distinct from the visiting Syrian exporters who were only allowed three months in the city. Further, the government's ambivalence towards silk produced in workshops not under its direct supervision gains in perspective. As the *Book of the Eparch* attests, the authorities were apprehensive, issuing, for example, injunctions against private production of the 'forbidden' categories of textiles, unauthorised sales to foreigners and covert purchases by raw silk traders on behalf of a '*dynatos* or wealthy man' (*Eparchenbuch*, 6.10; ed. Koder, pp. 98 - 9). But, as Muthesius argues, it was in the state's interest to maintain standards of quality and general order among the silk-producers and to maintain levels of production. The government benefited from taxes on transactions so long as they took place in easily supervisable places. And it needed to draw on the silk supplies and the silk-making skills of the 'private sector'. Hence the *Book of the Eparch's* note that officials and private persons were permitted to manufacture purple garments of high quality if they were ordered to do so 'for supplies (*choregian*) for the *eidikon*[10]'. It may well have been fear of loss of skills rather than of transmission of them to foreigners that underlay the penalty for selling a slave from a silk workshop 'to outsiders or foreigners' (*Eparchenbuch*, 8.7; ed. Koder, pp. 104 - 5). The picture which emerges for the tenth century is one of, essentially, cooperation between the private and imperial sectors, the degree of collaboration being rather higher them the *Book of the Eparch* expressly acknowledges.

This leads to a further consideration. Muthesius rightly lays emphasis on the sheer complexity of silk manufacture: the delicate worms had to be fed on finely chopped mulberry

[9]- *Eparchenbuch*, 5,2,5; ed. Koder 94 - 7; Muthesius, *Studies* 307.

[10]- *Eparchenbuch*, 8.2; Koder 104 - 5; Lopez, Industry' 15; (Muthesius, *Studies* 259 - 60, 286.

slaves and also paid workers; these slaves could themselves open workshops7.

Some important themes emerge from 'Muthesius' investigations. Firstly, there seems to have been an endemic shortage of raw silk before the eleventh or twelfth centuries. As she points out, much of Asia Minor was unsuitable for growing mulberry trees. While accepting N. Oikonomides' interpretation of the seals of *kommerkiarioi* to the extent 'the seals most plausibly do have a relationship to sericulture', she justly doubts do whether they necessarily attest mulberry growing or silk-worm rearing in all the places mentioned on the seals8. In any case, the amount and quality of the silk yarn produced seems to have been unequal to demand. An underlying condition of shortage helps explain the government's interest in trade with Syria, an important region

---

[7]- *Eparchenbuch* 8.7, 10, 12, 13; ed. Koder, 140 - 70. Muthesius, *Studies* 285 .

[8]- Muthesius, *Studies* 323. That *kommerkiarioi* became 'mainly related to silk production' in the seventh century was suggested by N. Oikonomides ('Silk trade and production in Byzantium from the sixth to the ninth century: the seals of *Kommerkiarioi*' *DOP* 40 (1986) 43 - 4). It seems most probable that *kommerkiarioi* then possessed special links with the silk-trade, as they had done in previous centuries. But in an era of demonetarisation and slackening economic exchanges their role is likely to have broadened out into one of buying up, selling and stockpiling other valuable manufactures and commodities which became available in their districts, as well as performing a fiscal function. Their functions were probably multiple and variable and they could well have dealt in or accepted as revenue 'agricultural and other primary products', as A. Dunn proposed ('The *Kommerkiarios*, the *Apotheke*, the *Dromos*, the *Vardarios* and *The West*,' *BMGS* 17 (1993) 10). However, it seems likely that their 'depots' *(apothekai)* mostly contained higher-value commodities rather than run-of-the-mill, perishable, agrarian produce. The high insecurity and need for constant improvisation of the mid-seventh to mid-ninth-century provinces will have created an acute need for regional stores of valuables and related supply networks under the care of officials who had some competence as valuers of, and dealers in, them. The *kommerkiarioi* could well have performed the role of local 'fix-its', having powers to buy up valued manufactured goods as they came on the market, to commission production of them, to tax and also to sell or dispense them gratis, according to circumstances. Silks, being highly valued and highly portable, would have ranked prominently but by no means exclusively among these 'big ticket' commodities and instruments of manipulation. See the critique of Oikonomides and comparable suggestions made by J.F. Haldon, *Byzantium in the Seventh Century. The Transfomation of a Culture* (Cambridge 1990) 232 - 4.

reconstructed drawloom . Data on the raising of the worms has been adduced from Chinese sources, notabley the twelfth-century *Geng Zhi Tu.* Muthesius' scope extends beyond the finished products to the uses to which they were put. She underlines the similarities of usage in the Christian East and West, arguing from abundant evidence that the eighth - and ninth-century papacy seems to have played a key role in displaying, distributing, and arousing Western appetites for, eastern silks.

Muthesius' expertise gives weight to her reappraisal and redating of a number of other individual silks, for example the 'Krefeld-Berlinnumber of other individual silks, for example the 'Krefeld-Berlin Dusseldorf' Imperial Lion Silk, which should probably be re-assigned to the co-emperorship of Basil II and Constantine VIII from that of Basil I and his son Constantine . From a different perspective, she rebuts the estimate of raw silk yield in Calabria made by the editor of the sole text to specify the location of mulberry plantations in the Byzantine lands: it 'seems one hundred times too greal' and may exaggerate the importance of Southern Italy as a source of raw silk for Byzantium5. Muthesius also casts doubt on some general conclusions drawn about the organisation of silk production from the *Book of the Eparch*. It is highly unlikely that the *serikarioi* could personally have engaged in prepating the raw silk and dyeing it as well as weaving6. For the degumming process alone occupies one man and perhaps an assistant, while the boiling of the gum creates dirt incompatible with the high standards of cleanliness required in a weaver's workshop. Muthesius suggests that the *serikarioi* were 'factory owners with a series of workshops' rather them manual workers. This suggestion is compatible with the evidence of the *Book of the Eparch* that the *serikarioi* had

[5]- *Le brebion de la metropole byzantine de Region (vers 1050)*, ed. A. Guillou (Corpus des actes grecs d'Italie du Sud et de Sicile 4) (Vatican City 1974) e.g. 17 - 33, 63 – 70; cf. Idem, 'production and profits in the Byzantine province of Italy (tenth to eleventh centuries) : an expending society', *DOP* 28 (1974) 92 - 5, repr. in his *Culture et societe en Italie byzantine (VI-XI s.)* (London 1978), no. 13.

[6]- As proposed by D. Simon 'Die byzantinischen Seidenzunfte', *BZ* 68 (1975) 34.

starting with some heroic feats of cataloguing. A catalogue of 120 silks found in the West has been prepared, together with a handlist of many other examples, including some related Islamic ones. She had to prepare her own preliminary catalogues of the contents of major holdings such as Sens Cathedral Treasury, in default of detailed local catalogues, and this led to important acts of identification. Thus she tracked down the famous Siegburg Loin silk, falsely supposed to have been destroyed during the Second World War. Such feats highlight the fact that the lack of a corpus of surviving silks has been a serious weakness of Byzantine studies as a whole and the imminent publication of the forementioned full catalogue is to be warmly welcomed3.

Mutherius' technical expertise has enabled her to determine the likely origins of silks by the nature of their weaves. There are limits to this method: Byzantine and Islamic workshops favored some identical types of twill in the ninth to twelfth centuries, as we shall see below (p. 253f.). Even so, certain techniques were characteristic of particular regions, for example, grège - textiles with silk threads which had not had their coating of gum removed and which had not been twisted. Detecting these traits in the Lion Silk of St. Servatius, Maastricht, Muthesius proposes Central Asia as the likely place of manufacture: the manufacturers may have been imitating an authentic Lion Silk, made in imperial workshops. Her suggestion is very plausible, seeing that imperial interest stretched as far as Central Asia and guardsmen from Ferghana played a part in tenth-century palace ceremonial4. Muthesius' familiarity with all the technical aspects of silk production reaches back to the grub, which makes it possible. She has studied the organisation and methods of silk worshops in modern Indian villages and paid close attention to the looms, to the point of attempting to weave textiles from a

---

[3]- A. Muthesius, *Byzantine Silk Weaving A.D. 400 to A.D. 1200*, J, Koder and E. Kislinger (eds.) (Vienna, forthcoming).

[4]- Constantine Porphyrogenitus, *De cerimoniis aulae byzantine*, II. 15, ed. I.I. Reiske, I (Bonn 1829) 576 .

use as, for example, chasubles, wrappings of relics, cushions and bindings of Gospel-Books2. But it is worth noting that the numerous examples of Silks, Fragmentary or more less whole, found in Church treasuries probably represent only a small fraction of those originally sent to Western Europe. Many ended up in lay hands and those of top quality would often have been put on display, probably retaining something of their original form. To that extent they were likely to impress more foreign beholders, and to be more readily comprehensible as imperial Byzantine products, than were other items, including gold and silver coins. The value of silks to the emperor in terms both of domestic patronage and diplomatic gifts is indicated by Constantine VII'S treatise on imperial expeditions. It provides for various types of silken garments and cloths, specifying which sorts were brought 'for distinguished refugees and for sending to distinguished and powerful foregners'3. That all this effort made its mark was inferred by R.S. Lopez; the borrowing of Byzantine ceremonial by the Western rulers is the best acknowledgement of Byzantine "hierarchy through clothing"3.

Lopez's classic study might have been expected to prompt many publications on aspects of Byzantine silks. Yet this did not happen. As the late John Beckwith observed, 'the study of medieval woven textiles is highly complex and is, perhaps, the most difficult discipline in the entire field of art history', in that it calls for competence in the art of weaving, ability to read inscriptions in Coptic, Greek, Latin and Arabic and wide-ranging historical knowledge. For some time after Beckwith made this remark textiles continued to be appraised primarily in terms of iconography and style. But Anna Muthesius has taken a major step towards the kids of inter-disciplinary investigation for which Beckwith appealed,

---

[2]- A. Muthesius, *Studies in Byzantine and Islamic Silk Weaving* (London 1995) 21 - 4, 29 - 30, 36 - 42, 77 - 80. See also Jacoby, 'Silk' 473. The celebrated Gunthertuch, a huge silk originally measuring 210cm by 260cm and showing a triumphant emperor, was re-used intact as a bishop's shroud, most probably just after its arrival in the West: G. Prinzing, 'Das Bamberger Gunthertuch in neuer Sicht', *BS* 54 (1993) 219 - 20 and n.8.

Silks, skills and opportunities in Byzantium : some reflexions

Jonathan Shepard

Faculty of History,Cambridge University

Silks gave visible form to Byzantium's political culture and, being light to carry, could circulate widely. Many of the garments issued to recipients of offices and titles were made of silk and the *Book of the Eparch* takes for granted the close connection between imperial prerogatives, silken vestments of various shades of purple and restrictions, on foreigners access to them 1. Through whetting appetites for silks and maintaining a monopoly over the finest quality products, the emperor could hope to arouse in his own subjects and foreigners alike the desire to gain them through some form of 'Servia'. These 'class' when cut up into pieces. That products simultaneously expressed his wealth, superior knowledge and - by the symbols on them - the antiquity and unsurpassable legitimacy of his rule.

Gold and silver coins could likewise attest these qualities, but they were easily melted down and re-used as ornaments or for other purposes unrelated to the emperor. Large-scale sumptuous silks manufactured in imperial workshops and the silks bestowed as vestments on title-holders and others in favor might appear less likely to be re-used in a form which wholly effaced their origins. The former category of silks tended to bear characteristic marks of imperial authority such as eagles; the latter lost 'class' when cut up into pieces. That re-use and fragmentation did in fact often occur after the silks left Byzantine soil is shown in Anna Muthesius' collection of studies. She discusses their eventual

[1] - *Das Eparchenbuch Leons des Weisen*, 4.1, 3, 4; 8.1, 2; ed. J. Koder (Vienna 1991)" 90 - 3, 102 - 5. See also D. Jacoby, "Silk" in Western Byzantium before the Fourth Crusade' *BZ* 84/85 (1991 - 92) 456 - 7. Now repr. in Jacoby's *Trade. Commodities and Shipping in the Medieval* Mediterranean (Aldershot 1997), no. 7.

I : The Papers

The Contributors

- Abdul-Hamid, R., Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Abdel-Fatah, S., Demonstrator of Islamic History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Abdel-Karim, N., Associate Prof. of Islamic History, Faculty of Arts, Al-Mnoufia University, Egypt.
- Al-Gindi, S., Assistant Lecturer of Islamic Civilization, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Al-Tahry, A., Prof. of Islamic History, Faculty of Arts and Humanities, Al-Mohammadia University, Morocco.
- Atya, H., Assistant Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Tanta University, Egypt.
- Gonzalez, V., Lecturer in History and Aesthetics of Islamic Art, Marsille, France.
- Iskander, F., Prof. of Medieval History, Faculty of Arts, Benha University, Egypt.
- Ismaiel, M., Prof. of Islamic History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Magani, B., Prof. of Islamic History, Faculty of Arts, Mentory University, Constantina, Algeria.
- Mohammed, T., Associate Prof. of Byzantine History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Egypt.
- Shepard, J., Prof. of Medieval Russian History, Faculty of History, Cambridge University, Britain.

II: Book Reviews

Part II: The Foreign Section

I: The papers

II: Book reviews

Contents

Part I : The Arabic Section

I : The Papers

Journal of Medieval and Islamic History

Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History
Dept. of History, Faculty of Arts, Ain Shams University
Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566

- An Annual Review Interested in Medieval History, specially Byzantine and Islamic History.

- We accept all the papers and book reviews in Arabic, English, French, Italian and German.
- Books for review should be sent in one copy only.
- Orders may be addressed directly to the board of the Seminar on the above-mentioned address.
- All papers should be written by the computer as follow:
  Text's size is 12,5 x 19,5 cm.;
  Text's fonts are 12 New Times Roman and 14 Traditional Arabic for the Arabic papers.
  Footnotes font is 10;
  Main titles font is 16 Bold.

- Correspondences: Editor-in-chief: *Prof. Dr. Raafat Abdul-Hamid* or *Dr. Tarek Mansour Mohammed.*
  on the following address: Department of History, Faculty of Arts, Ain Shams University, Abbasiya, Cairo, Egypt. Postal code 11566. Fax. 00202-2854079. E.mail: amrtar_eg@yahoo.co.uk

Journal of Medieval and Islamic History

An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies
(*JMIH*)

Volume I
Pt. II
The Foreign Section
2000-2001

Issued by: Seminar of Medieval and Islamic History, History Department, Faculty of Arts, Ain Shams University, Cairo, Egypt, Postal code 11566.

Publisher: Misr el-Arabia
13A *Islam St., Hammamat Al-Koubba,*
Cairo, Egypt.

Journal of Medieval and Islamic History

(JMIH)

Volume 1 / 2000 -2001

An Annual Review of Medieval, Byzantine and Islamic Studies. Issued by : Seminar of Medieval and Islamic History,History Department , Faculty of Arts, Ain Shams University, Cairo,Egypt

الغلاف:عماد حليم

